موسوعة

أخلاق القرآن

الجزء الثاني

تأليف

الدكتور أحمد الشرباصي

الاستاذ بجامعة الأزهر

دار الرائد العربي

بيروت • لبنان

ص . ب ٦٥٨٥

اخـلاق القرآن ـ ج ٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى ، أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولي النعمة ومصدر الرحمة : « إنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِيْنَ » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هو نبي المرحمة ، وقائد الملحمة : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ».

وأصلي وأسلم على جميع أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان الى يوم الدين .

واستفتح بالذي هو خير : « رَبَّنَا عَلَيْكَ توكَّلْنا ، وإليْكَ أنَبْنَا ، وإليْكَ المَصِيرُ » .

قبس من كتاب الله

« قَدْ أَفلَحَ الْمؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ في صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغوِ مُعْرِضُونَ ، والَّذِينَ هُمْ لِلزكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِم حَافِظُونَ ، إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنَ ابْتَغَى وَرَاءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ العَادُونَ، وَالَّذِين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ، أُولٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

«سورة المؤمنون»

مقدمة المؤلف

هذا هو الجزء الثاني من كتابي « أخلاق القرآن » أقدمه الى قرائي راجيا أن يكون عملا مقبولا عند الله سبحانه ، وأن يكون محمود الاثر والثمر عند الناس ، والله وحده هو الذي تتم بفضله الصالحات •

ولقد ختمت الجزء الاول من هذا الكتاب بالعبارة التالية :

« أما بعد ، فيا أخي القارىء ، ان القرآن الكريم كنز نعرف أوله ، ولكننا لا نبلغ بجهدنا القليل غايته ، فهو واسع فسيح ، وما سبق من حديث عن « أخلاق القرآن » لم يستوعب كل ما تحدث عنه كتاب الله من فضائل ومكارم ، والرجاء في عون الله كبير ، والأمل في عودة الى مواصلة الحديث عن « أخلاق القرآن » قريب غير بعيد ، فالى لقاء بمشيئة الله » •

وها قد شاء الله أن يمد في الاجل ، وأن يبارك في العمل ، وأن يحقق الأمل ، فنعود الى اللقاء حول مائدة القرآن الكريم ، لنستمد منه الدواء والغذاء والضياء ، ولنتخذه خير ما يزكي النفوس ويحيي القلوب ، وصدق العلي الكبير حين يقول : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم

يتفكرون (١) » . ولا عجب فهو « **تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون** » (٢) .

ومما أتحدث به من نعمة الله تبارك وتعالى، وأشكره عليه ، أنه أسعدني حين شغلني بالقرآن ــ منذ صباي ــ في أكثر من ميدان ، فقد حفظت القرآن المجيد في قريتي « البجلات » بمحافظة الدقهلية في مصر ، وانا دون الثانية عشرة من عمري ، فقوَّم لساني ، وشغل جناني ، ثم انتسبت الى الازهر الشريف لطلب العلم الديني ، فكان القرآن يغاديني ويراوحني فيما أدرس من علوم اسلامية وعربية ، ثم اشتغلت بالخطابة المنبرية ، فجعلت القرآن أول ينبوع للاستمداد والاسترشاد ، ثم كتبت فصولا في التفسير نشرتها في مجلات : «الاعتصام» و«الرابطة الاسلامية» وغيرهما من مجلات مصر ، وفي سنة ١٩٦٢م أصدرت كتابي « قصة التفسير » .

وفي سنة ١٩٦٥ م بدأت أقدم برنامج « مع كتاب الله » في التلفزيون المصري ، حيث قدمت عشرات وعشرات من الحلقات في التفسير ، وقد عُرضت هذه الحلقات في أكثر من تلفزيون في الدول العربية ، ثم قدمت حلقات اخرى عن التفسير في الاذاعة المسموعة بمصر والكويت ، وقمت باعداد مسابقات عن القرآن لاذاعة الشعب بالقاهرة .

ونشرت حلقات من سلسلة « معاني مفردات القرآن » في مجلة « منبر الاسلام » بالقاهرة ، وكنت عضوا في لجنة التفسير بالمجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، وشاركت في كتابه « المنتخب في تفسير

---

(١) سورة الحشر ، الآية ٢١ .
(٢) سورة فصلت ، الآيتان ٢ و٣ .

القرآن الكريم » الذي اصدره المجلس ، كما اشتركت في لجنة التفسير بمجمع البحوث الاسلامية في الازهر الشريف ، وقمت بتدريس مادة التفسير عدة سنوات في كلية اللغة العربية ، حرسها الله معقلا للغة القرآن وأدب العرب .

وفي كتابي « أدب الاحاديث القدسية » ، وكتابي «من أدب النبوة» استعنت كثيرا بالآيات القرآنية في الشرح والايضاح ، لايماني بأن الاحاديث ينبغي أن نفهمها في ضوء القرآن الحكيم .

ولقد نشرت في أحيان متباعدة سلسلة مقالات عن طائفة من « المفردات القرآنية » ، على طريقة استيعاب الكلمة القرآنية في كل استعمالاتها في كتاب الله عز وجل ، وقد تحدثت عن ذلك في كتابي « قصة التفسير » (١) . وفي أغلب الاوقات أجعل محاضراتي العامة للناس مستمدة من تفسير التنزيل المجيد .

أذكر هذا كله تحدثا بنعمة الله وشكرا له ، ورجاء في فضله أن يديم عليّ نعمة الارتباط بكتابه ، والاستمداد منه ، والاهتداء به .

وها هي ذي موضوعات « أخلاق القرآن » تربطني بالقرآن أكثر وأكثر ، لانها تدفعني ــ مع كل موضوع ــ الى الآيات الكريمة أنظر فيها ، وأتقلب في مجانيها ، فيتصل الحمد والشكر لواهب القوى والقدر .

ولذلك لست مبالغا حين أقرر أنني اشعر بسعادة غامرة وأنا أقدم هذا الجزء الثاني من كتابي « أخلاق القرآن » . وما زال فضل الله واسعا بلا انقطاع .



---

(١) انظر كتابي « قصة التفسير » ص ١٦٤ و ١٦٥

واذا كان القرآن الكريم في مجال هذه البحوث هو العماد والاساس، فقد عاونتني في البحث مراجع أفيء اليها بين الحين والحين ، وبعض هذه المراجع معاجم لغوية ، كالقاموس المحيط للفيروزابادي ، وشرحه « تاج العروس » للزبيدي ، وأساس البلاغة للزمخشري ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ، ولسان العرب لابن منظور ، وتهذيب اللغة للأزهري ، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير .

ومنها كتب تفسير ، مثـل مفردات القـرآن للراغب الاصفهاني ، وتفاسير : الطبري ، والرازي ، والقرطبي ، والزمخشري ، والطبرسي ، وابن الجوزي ، و « غرائب القرآن » للنيسابوري ، و «لطائف الاشارات» للقشيري ، وتفسير المنار ، وتفسير جزء عم للامام محمد عبده ، واعجاز القرآن للرافعي ...

وبعضها كتب اخلاقية روحية ، كاحيـاء علـوم الدين للغزالي ، ومدارج السالكين لابن القيم ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، والتحبير في التذكير للقشيري ، واللمع للطوسي .

ومنها كتب سيرة أو تراجم ، كالسيرة النبوية لابن كثير ، وطبقات الصوفية للسلمي .

ومنها كتب عامة ، كالعقد الفريد لابن عبد ربه ، وعيون الاخبار لابن قتيبة ، وبدائع الفوائد لابن تيمية ... وغيرها .



واذا كنت أتمنى أن يمتد الطريق أمامي أكثر مما امتد في الكتابة

عن « أخلاق القرآن » فانه يحلو لي أن أردد هنا ما قاله الامام محمد عبده في فاتحة تفسيره لجزء « عم » ، وهو :

« فتحت لي يا رب أبواب فضلك ، وعرفتني ما شئت من أسرار قولك، فبأي لسان أحمدك ، وبأية جارحة أشكرك ؟

أسألك المعونة على بيان الحق ، لارشاد المستعدين لقبوله من الخلق، وأن تجعل الكلمة العليا لكتابك المبين ، والسلطة العظمى لهدى خاتم المرسلين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع النبيين ، ومن تبعهم على الصراط المستقيم ، واقتفى أثرهم في الصالحات والسير القويم. وأرشد اللهم هذه الامة العانية الى ما فيه لها السلامة والعافية ، ولا تجعلها حربا للهادين ، ولافتنة للضالين المضلين » !.

اللهم آمين .

ابو حازم
احمد الشرباصي

الامانة

الأمانة مصدر أمنه يأمنه أمانة ، أي وثق به واطمأن اليه ، ولم يخفه، والأمين هو الثقة المؤتمن ، ويذكر ابن فارس أن مادة « الأمانة » لها أصلان متقاربان ، أولهما الامانة التي هي ضد الخيانة ، ومعناها سكون القلب ، والآخر التصديق ، والمعنيان متدانيان . وأصل الامن هو طمأنينة النفس وزوال الخوف ، ونلاحظ ان هناك ثلاثة ألفاظ من مادة الالف والميم والنون ، وبينها علاقة او رابطة ، وهذه الكلمات هي ، الامن ، والامانة ، والايمان ، والمعنى المشترك بينها هو الاطمئنان ، لأن الامانة تدل على الثقة ، والثقة اطمئنان ، والأمن عدم الخوف ، وعدم الخوف اطمئنان ، والايمان تصديق واذعان ، وفيهما استقرار واطمئنان .

والامانة بمعناها الاخلاقي شعور بالتبعة ، واحتكام الى الضمير اليقظ ، ونهوض بالرعاية لكل ما في عهدة الانسان من شيء حسي أو معنوي ، وكأن الحديث النبوي يرمز الى هذا المعنى حين يقول : « كلكم راع ، وكل راعٍ مسؤول عن رعيته » .

ولقد تحدث القرآن الكريم عن فضيلة « الامانة » في أكثر من موطن ، منوها بشأنها ، حاثا على رعايتها وصيانتها ، ومن الآيات المجيدة التي جاء فيها ذكر الامانة قول الله تعالى في سورة الاحزاب : « انا

عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسانُ انه كان ظلوماً جهولا (١) » • ولقد ذكر الاصفهاني في كتابه « المفردات » أن معنى الامانة هنا فيه أقوال ، هـي : كلمة التوحيد ، أو العدالة ، أو حروف التهجي ، أو العقل ، ثم مال الى اختيار معنى العقل ، لأنه في رأيه يشمل الأقوال السابقة ، فقال عنه : « وهو صحيح ، فان العقل هو الذي بحصوله تتحصل معرفة التوحيد ، وتجري العدالة ، وتعلم حروف التهجي ، بل لحصوله تعلم كل ما في طوق البشر تعلمه ، وفعل ما في طوقهم من الجميل فعله ، وبه فُضِّل (الانسان) على كثير من خلقه » •

ولكن الأقرب الى القبول في معنى « الامانة » هو أنه يراد بهـا التكاليف والحقوق المرعية التي أودعها الله المكلفين ، وائتمنهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد ، وأمرهم بمراعاتها وأدائها والمحافظة عليها ، من غير اخلال بشيء من حقوقها ، وفي كتابي «يسألونك في الدين والحياة» اجابة على سؤال يتعلق بتفسير هذه الآية ، وقد جاء في الاجابة ما يلي :

« هذه الآية الكريمة جاءت في سورة الاحزاب ، والمقصود منها ـ والله أعلم بمراده ـ هو تصوير خطورة التكاليف التي كلف الله بها الانسان ، فمن شأن هذه التكاليف أنها تحتاج الى القلب السليم والعقل القويم والتصرف المستقيم ، فلو أن هذه التكاليف عُرضت على السموات بشمسها وقمرها وكواكبها ، أو على الارض بما فيها وما لها من ضخامة ، أو على الجبال بعلوها وشموخها ، لتخلَّص من تبعاتها ، لا تمردا ولا عصيانا ، بل خوفا ورهبة واشفاقا •

---

(١) سورة الاحزاب ، الآية ٧٢ .

ولكن الانسان الذي أوتي العقل والتفكير تعرض لحمـل هذه الامانة والنهوض بها ، وهو بهذا التعرض كان ظالما لنفسه ، وكان جاهلا بكثير من تبعات هذه الامانة ، ولذلك أوقع نفسه في مسؤوليات وتبعات تحتاج الى موصول العمل ، حتى لا يتعرض للعقاب والعذاب .

وعرض الامانة هنا هو على أساس أن من يقبل هذه الامانة، ويحفظها ويقوم بحقوقها ، فله الفوز والثواب والنعيم ، ومـن يضيعها أو يهمل حقوقها فله الخسران والعقاب والجحيم ، ولذلك قال الله تعالى عقب هذه الآية مباشرة ، « ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، وكـان اللـه غفورا رحيما » . الآيـة ٧٣ .

ولقد ذكر المفسرون أقوالا كثيرة في المراد بالامانة ، فقيل ان الامانة هي المحافظة على الصلوات ، وأداء الزكاة ، والصوم ، وحج البيت من استطاع اليه سبيلا ، وقيل انها أمانات الناس ، أي ودائعهم التي يودعونها عند غيرهم ، وقيل انها الامانة في الحديث وعدم الزيادة عليه ، وقيل انها صيانة المرأة لعرضها ، وقيل انها الاغتسال من الجنابة ، وقيل انها صيانة الانسان لدم غيره وعدم الاعتداء عليه .

وهذه الأقوال كلها وأمثالها لا تخرج عن كونها ضرب أمثلة وأنواع لصور من الامانة الكثيرة الصور والانواع ، والذي يطمئن اليه القلب هو أن المراد بالامانة الطاعة والتكاليف والفرائض التي افترضها الله على عباده ، وهي كل أمور الدين بما فيها مـن واجبات وحدود ، ولذلك استحسن الامام الطبري أن يكون المراد بالامانة في هذا الموضع هو جميع الامانات الموجودة في الدين ، وكذلك جميع الامانات التي تكون بين

الناس . لأن الآية الكريمة لم تخصص نوعا من أنواع الأمانة ، فكان التعميم أولى وأحسن (١) »



ويقول الحق تبارك وتعالى في سورة النساء : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » ولا تؤدى الامانات الى أهلها على وجهها الا من المتصفين بفضيلة الامانة ، حتى يرعوا حقوق الناس حق رعايتها . وقد روي في سبب نزول هذه الآية أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما فتح مكة دعا عثمان بن طلحة ، وكان بيده مفاتيح الكعبة ، فلما جاء عثمان قال له النبي : أرني المفتاح (يعني مفتاح الكعبة) ، فلما مد عثمان يده بالمفتاح ، قال العباس بن عبد المطلب : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، اجمعه لي مع السقاية .

فقبض عثمان يده بالمفتاح خوفا أن ينتزع منه ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : هات المفتاح يا عثمان . فأعطاه قائلا : هاك أمانة الله . فقام النبي وفتح الكعبة وطهرها ، وخرج فطاف بالبيت ، ثم عاد فرد المفتاح الى عثمان ، وتلا قول ربه تبارك وتعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ... » (٢) .

ويقول الله تعالى في سورة البقرة : « فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمنَ أمانته وليتق الله ربَّهُ » (٣) . أي ان وثق بعضكم ببعض

---

(١) كتاب «يسألونك في الدين والحياة» ص ٤٢٠ و ٤٢١ . طبعة دار الرائد العربي ببيروت .
(٢) سورة النساء ، الآية ٥٨ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٨٣ .

فليحفظ الموثوق به أمانته، والمؤتمن عليه ها هنا عام يشمل الوديعة وغيرها، فعلى المؤتمن ان يؤدي الامانة الى من ائتمنه ، وليتق الله ربه ، فلا يتخون من الامانة شيئا ، لأنه لا حجة على ذلك الشيء ولا شهيد ، فان الله رب العالمين هو خير الشاهدين ، فهو أولى بأن يتقى ويطاع ...

مما يدل على جلال مكانة الامانة أن القرآن الكريم وصف سفير الرحمن جبريل عليه السلام بأنه أمين ، فقال في سورة الشعراء : « نزل به الروح الأمين (١) أي المؤتمن على وحي الله ، لا يزيد فيه ولا ينقص منه . وكذلك قال عن جبريل في سورة التكوير : « انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين » (٢) .

وأشار القرآن الكريم أكثر من مرة ان رسل الله عليهم الصلاة والسلام يتصفون بصفة الامانة ، ففي سورة الشعراء نرى أن نوحا قد قال لقومه : « اني لكم رسول أمين (٣) » ، أي اني رسول من الله اليكم ، أمين فيما بعثني به ، أبلغكم رسالات ربي ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها ، ونوح هو أول رسول أرسله الله تعالى الى أهل الارض بعدما عبد الناس الاصنام .

وكذلك قال كل من هود وصالح ولوط وشعيب — عليهم السلام : « اني لكم رسول أمين » كما نرى في سورة الشعراء (٤) .

وأشار القرآن الى أمانة موسى منذ شبابه ، فجاء في سورة القصص

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٩٣

(٢) سورة التكوير ، الايات ١٩ — ٢١ .

(٣) سورة الشعراء ، الآية ١٠٧

(٤) سورة الشعراء ، الآيات ١٢٥ و١٤٣ و١٦٢ و ١٧٨ .

على لسان ابنة شعيب: «قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الأمين (١) » • وقولها «القوي» لأنه كان ــ فيما يروى ــ يحمل الصخرة لا يطيق حملها جمع من الرجال ، وقولها « الامين » لأنه كان ذا أمانة ، فقد رووا ان ابنة شعيب حينما سارت أمامه لتبلغ به مكان أبيها، وصفت الريح جسمها ، فأنف موسى من ذلك ، وطلب اليها أن تمشي خلفه ، وتدله على الطريق ، حتى لا يتطلع الـى جسمها والريح تلعب بثوبها حوله •

وأشار القرآن الى أمانة يوسف ، حيث جاء فيه علـى لسان العزيز ليوسف : « انك اليوم لدينا مكين أمين (٢) » •

ولقد كان سيدنا محمد رسول الله مثلا أعلى في فضيلة الامانة ، حتى لقبه الناس منذ فتوته بلقب « الصادق الأمين » ، ومن الادلة على ذلك أنهم جعلوه حكما بينهم عند النزاع على وضع الحجر الأسود ، وقالوا عندما رأوه : هذا هو الامين ، لقد رضيناه حكما بيننا •••

ومن هنا كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يستعيذ من الخيانة ــ وهي ضد الامانة ــ ويتحدث عنها كأنها سبع كاسر أو شر مستطير ، فيقول لربه : « أعوذ بك من الخيانة ، فانها بئس البطانة » •

وقد أقسم القرآن بمكة في سورة التين فقال : « وهـذا البلـد الأمين (٣) » • أي أنه بلد يحفظ من دخله ، كما يحفظ الامين ما يؤتمن عليه ، أو ان أهله آمنون •

ووصف الله تبارك وتعالى المؤمنين ، فقال فيما وصفهم به : «والذين

---

(١) سورة القصص ، الآية ٢٦ .
(٢) سورة يوسف ، الاية ٥٤ .
(٣) سورة التين ، الآية ٣ .

هم لأماناتهم وعهدهم راعونَ (١) » • أي اذا اؤتمنوا لم يخونوا الامانة، بل أدوها الى أهلها مهما كانت ، كما أنهم يحفظون أماتتهم في دينهم واعتقادهم وقولهم وعملهم وسلوكهم مع الناس •



ولقد جاءت السنة النبوية المطهرة من وراء القرآن المجيد ، فعنيت بفضيلة الامانة ، ورفعت من شأنها ، وزكّت من حديثها ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « الامانة غنى » أي هي سبب الغنى ، لأن الانسان اذا عرفه الناس بالامانة أقبلوا على معاملته ، وأحبوه ، فيصير ذلك سبب غناه •

وخاطب الرسول كل مسلم فقال له : « أربع اذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة في طعمة » • فانظر كيف جعل فضيلة الامانة طليعة لتلك الفضائل الاربع•

وطالب النبي كل مسلم بأن يرعى الامانة ويستمسك بها مع الناس جميعاً ، فقال : « أدِّ الامانة الى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك » •

وأرشدت السنة المطهرة الى أحوال ومواطن تحتاج الى الامانة لتصونها وتحصنها ، فقال الحديث : « المجالس بالأمانة » وفي هذا حث على صيانة ما يجري في المجلس من أحاديث أو أسرار ، فكأن ذلك أمانة عن من سمعه أو رآه • وجاء الحديث : « المستشار مؤتمن » • أي أمين على المشورة أو النصيحة ، فان كان يعرف وجه الصواب فيما يستشار فيه ،

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٨ .

ذكره دون خداع أو تمويه، وان كان لا يعرف أحاله على من يعرفه واعتذر، ولو أنه عرف وجه الصواب في النصيحة وأخفاه وذكر سواه ، كان خائنا، والله جل جلاله لا يحب الخائنين ــ ويؤكد هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : «من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه » •

وجاء الحديث : « المؤذن مؤتمن » أي يثق به الناس ، ويتخذونه ضابطا لهم ، وحافظا عليهم ، في مواعيد صلاتهم وصيامهم ، فيجب عليه أن يضبط هذه المواعيد والمواقيت •

وتحذر السنة المطهرة المسلم تحذيرا بليغا رادعا أن يضيع الامانة ، أو يتنكر لها ، فيقول الحديث : « لا ايمان لمن لا أمانة له » • ولقد مر النبي صلى الله عليه وسلم على رجل يبيع بُرًّا (قمحا) ، فوضع النبي يده داخل القمح فوجد بللا • فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟• فأجابه : أصابته السماء يا رسول الله • فاستنكر النبي تصرفه ، وعابه عليه ، وقال له : « أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟• من غشنا فليس منا » •

وجاء الحديث القائل : « اذا ضُيِّعت الامانة فانتظر الساعة » • قيل : كيف اضاعتها يا رسول الله ؟• قال : « اذا أسند الامر الى غير أهله فانتظر الساعة » !• وفي هذا تحذير وتخويف من ضياع الامانة ، واشعار بأنها حين تضيع تختل الامور ويفسد العالم ، ومن هنا رُوي عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال :

حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين ، رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الامانة نزلت في جذر (أي أصل) قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن ، ثم علموا من السنة • وحدثنا عن رفعها قال : ينام الرجل النومة فتنقبض الامانة من قلبه ، فظل أثرها مثل أثر

الوكت (أي السواد الخفيف) ، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل (النفاخة في اليد) كجمر دحرجته على رجلك فنفط ، فتراه منتبرا (مرتفعا) وليس فيه شيء ، فيصبح الناس يتبايعون ، فلا يكاد أحد يؤدي الامانة ، فيقال : ان في بني فلان رجلا أمينا • ويقال للرجل : ما أعقله وما أظرفه وما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة خردل من ايمان • ولقد أتى عليَّ زمان وما أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مسلما ردَّه علي الاسلام ، وان كان نصرانيا أو يهوديا رده علي ساعيه (أي وليه) فأما اليوم فما كنت أبايع الا فلانا وفلانا •

ولقد صور الرسول عليه الصلاة والسلام ضياع الامانة معولا من معاول التقويض لهذه الحياة ، وعلامة على قرب قيام الساعة ، فجعل ضياع الامانة علامة من علامات القيامة ، فذكر بين اشراطها أن يتخذ الناس الامانة مغنما ، أي يضيعونها في سبيل شهواتهم وأهوائهم ، فيرى من في يده أمانة أن خيانتها غنيمة قد حصل عليها • ويقول حديث آخر : « لن تزال أمتي على الفطرة ما لم يتخذوا الامانة مغنما والزكاة مغرما » • وكيف يبقى على الفطرة من يتنكر لفضيلة الامانة والرسول قد جعل الخيانة احدى صفات المنافق الأثيم فقال عنه : « اذا أؤتمن خان » •



وهناك كثير من الناس اذا سمعوا كلمة « الأمانة » تصوروها مقصورة على « الوديعة » التي تودع عند الناس ، كالنقود والحلي وما شابه ذلك ، مع أن مدلول الامانة في المفاهيم الاسلامية يشمل ألوانا كثيرة ، فأمانة العبد مع ربه ، وتتحقق بحفظ ما أمر الله بحفظه ، وبأداء واجباته والابتعاد عن منهياته ، وأمانة العلم تتحقق بنشره وتفهيمه الناس•

وأمانة الانسان مع الناس تتحقق برد ودائعهم اليهم ، وحفظ حقوقهم ، وصيانة أعراضهم ، وحفظ أسرارهم ، والبعد عن غشهم والاعتداء عليهم. وأمانة الحكام مع المحكومين تتحقق بالعدل بينهم ، والحرص على مصالحهم ، والسهر من أجلهم . وأمانة الانسان مع نفسه تتحقق باختياره الأصلح له في الدين والدنيا ، وأمانة الحياة الزوجية تتحقق بكتمان أسرارها ، وعدم الحديث عن دخائلها ، والحديث يقول : « ان شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة ، الرجل يفضي الى امرأته ، وتفضي اليه ، ثم ينشر سرها » والأمانة في التجارة تتحقق بما أشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « ان أطيب الكسب كسب التجار الذين اذا حدثوا لم يكذبوا ، واذا أؤتمنوا لم يخونوا ، واذا وعدوا لم يخلفوا ، واذا اشتروا لم يذموا ، واذا باعوا لم يطروا ، واذا كان عليهم لم يمطلوا ، واذا كان لهم لم يعسّروا » . والأمانة في الكيل والميزان تتحقق بالضبط والعدل والابتعاد عن الانقاص أو الزيادة ، وبذلك ينجو الانسان من تهديد القرآن الشديد حين يقول : « ويل للمطففين ، الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين (١) » . وأمانة حديث السر تتحقق بكتمانه وعدم ذكره لغير صاحبه ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « اذا حدث رجل رجلا بحديث ثم التفت فهي أمانة » . ويقول : « ان من الخيانة أن تحدّث بسر أخيك » . والغزالي يقول : « افشاء السر خيانة ، وهو حرام ان كان فيه اضرار ، ولؤم ان لم يكن فيه اضرار » .



---

(١) سورة المطففين ، الايات ١ـ٥ .

وللاستاذ الامام الشيخ محمد عبده كلمة قيمة في أمانة العلم والعلماء يقول فيها : « الامانة حق عند المكلف يتعلق به حق غيره ، ويودعه لأجل أن يوصله ذلك الغير ، كالمال والعلم ، سواء كان المودع عنده ذلك الحق قد تعاقد مع المودع على ذلك بعقد قولي خاص صرَّح فيه بأنه يجب على المودع عنده ان يؤدي كذا الى فلان مثلا ، أم لم يكن كذلك ، فان ما جرى عليه التعامل بين الناس في الامور العامة هو بمثابة ما يتعاقد عليه الأفراد في الامور الخاصة ، فالذي يتعلم العلم قد أودع أمانة ، وأخذ عليه العهد — بالتعامل والعرف — بأن يؤدي هذه الامانة ، ويفيد الناس ويرشدهم بهذا العلم .

وقد أخذ الله العهد العام على الناس بهذا التعامل المتعارف بينهم شرعا وعرفا ، بنص قوله : « واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لَتبيننَّهُ للناس ولا تكتمونه »(٢). ولذلك عدَّ علماء أهل الكتاب خائنين بكتمان صفات النبي صلى الله عليه وسلم ، فيجب على العالم أن يؤدي أمانة العلم الى الناس ، كما يجب على من أودع المال أن يرده الى صاحبه ، ويتوقف أداء أمانة العلم على تعرف الطرق التي توصل الى ذلك ، فيجب أن تعرف هذه الطرق لأجل السير فيها .

واعراض العلماء عن معرفة الطرق التي تتأدى بها هذه الامانة بالفعل هو ابتعاد عن الواجب الذي أمروا به ، واخفاء الحق باخفاء وسائله هو عين الاضاعة للحق ، فاذا رأينا الجهل بالحق والخير فاشيا بين الناس ، واستبدلت به الشرور والبدع ، ورأينا أن العلماء لم يعلموهم ما يجب في ذلك ، فيمكننا أن نجزم بأن هؤلاء العلماء لم يؤدوا الامانة ، وهي

---

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٨٧ .

ما استحفظوا عليه من كتاب الله ، ولا عذر لهم في ترك استبانة الطريق الموصل الى ذلك بسهولة وقرب » .



وقد تحدث الامام ابن تيمية طويلا عن الامانة عند الأئمة والحكام في كتابه « السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية » فذكر أولا أنه يجب على ولي الامر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين ، أصلح من يجده لذلك العمل ، لأن الحديث يقول : « من ولي من أمر المسلمين شيئا ، فولّى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله » . ولأن عمر قال : «من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمسلمين » ويقرر ابن تيمية ان الامانة في هذا المجال واجبة على ولي الامر ، فيقول : « فيجب عليه البحث عن المستحقين للولايات ، من نوابه على الأمصار ، من الامراء الذين هم نواب ذي السلطان ، والقضاة ، ومن أمراء الاجناد ومقدمي العساكر الصغار والكبار ، وولاة الاموال من الوزراء والكتاب والشادين (أي الجامعين) والسعاة على الخراج والصدقات ، وغير ذلك من الاموال التي للمسلمين .

وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده ، وينتهي ذلك الى أئمة الصلاة والمؤذنين والمقرئين والمعلمين وأمير الحاج والبُرُد (جمع بريد ، وهم الذين ينقلون الرسائل) والعيون الذين هم القصاد ، وخزان الاموال ، وحراس الحصون ، والحدادين الذين هم البوابون على الحصون والمدائن ، ونقباء العساكر الكبار والصغار . وعرفاء القبائل والأسواق ورؤساء القرى الذين هم الدهاقين » .

وبعد أن يبين خطر الخيانة يقول : « ثم ان المؤدي للامانة مع مخالفة هواه يثيبه الله ، فيحفظه في أهله وماله ، والمطيع لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده ، فيذل أهله ، ويذهب ماله » .



واذا كان القرآن المجيد قد عني بتزكية الامانة والتنويه بفضلها كمكرمة من مكارم الاخلاق الاسلامية ، فقد حمل على نقيضها وهي الخيانة حملة صادقة ، ونفر منها تنفيرا بليغا ، فقال في سورة النساء : « ولا تكن للخائنين خصيما (١) » أي مخاصما مدافعا عنهم ثم قال : «ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما (٢)» . ويقول في سورة الانفال : « انّ الله لا يحب الخائنينَ » (٣) وقال في سورة الحج : « ان الله لا يحب كل خوان كفور » (٤) . ويقول في سورة يوسف : « وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين » (٥) .

ونستطيع أن نستخلص عبرة دقيقة عميقة حين نتذكر أنه بسبب الخيانة وفقدان الامانة قذف الله جل جلاله بامرأتين من نساء الأنبياء والمرسلين في النار ، فالله تعالى يقول في سورة التحريم : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل أدخلا النار مع الداخلين » (٦) .

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٠٥ .
(٢) سورة النساء ، الآية ١٠٧ .
(٣) سورة الانفال ، الاية ٥٨ .
(٤) سورة الحج ، الآية ٣٨ .
(٥) سورة يوسف ، الآية ٥٢ .
(٦) سورة التحريم ، الآيتان ٩ و ١٠ .

وأصحاب الخلق الكريم والطبع السليم والشعور القويم هم الذين يحزنون حينما يحسون أنهم قد قصروا في شيء من حقوق الامانة ، ولو عن غير قصد ، وحينئذ تتمزق قلوبهم أسفا وحسرة على ما فرط منهم ، ومن أمثلة هؤلاء الصحابي الجليل ابو لبابة رضي الله عنه .

تحدثت عن شعوره بتبعة الامانة في كتابي « الفداء في الاسلام » فقلت :

« لقد حدث في اثناء غزوة الاحزاب ان غدر يهود بني قريظة بالرسول والمسلمين ، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين النبي ، وانضموا الى المشركين في وقت شديد عصيب ، وشاءت عناية الله أن تحقق حملة الأحزاب ، وتوجه الرسول بعدها الى تأديب الغدرة الفجرة من بني قريظة ، وتمكن منهم بعد حصار طال وامتد ، وطلب هؤلاء من الرسول ان يبعث اليهم بالصحابي أبي لبابة ، وكان حليفا لهم في الجاهلية ، وكان له بينهم مال وعقار ، فحسبوا أنه سيكون سبب تخفيف عنهم ، ولما وصلهم أبو لبابة أخذوا يسألونه : أيسلمون وينزلون على حكم النبي ؟. فقال لهم : نعم .

ثم بدرت منه بادرة غير مقصودة ، فأشار بيده الى حلقه اشارة يفهم منها أن مصيرهم هو القتل ، ولعله كان قد عرف ذلك من الرسول أو استنتجه ، وهو قصاص عادل من غير شك .

وما كاد أبو لبابة رضي الله عنه يأتي بهذه الاشارة حتى تنبه لنفسه في خوف وجزع ، وأحس وكأنه خان أمانة الله ورسوله ، في هذه الاشارة ، لأنه كشف شيئا كان يجب عليه — ولو في اعتقاده — أن يخفيه ، فعصره الألم والحزن ، وقال : « فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفتُ اني خنت الله ورسوله » .

وظهر الندم على وجهه ، فقال له بعض اليهود : مالك يا أبا لبابة ؟ فأجاب : لقد خنت الله ورسوله • وعاد مسرعا الى المدينة ، والدموع تسيل من عينيه ، وما زال مسرعا في مشيته حتى دخل المسجد ، وربط نفسه في أحد أعمدته بسلسلة ثقيلة ، وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت ، أو يتوب الله عليّ مما صنعت • وأخذ على نفسه العهد الوثيق ألا يدخل أرض بني قريظة ما دام حيا ، مع أنـــه قد كان له فيها مال وعقار •

وبلغت القصة مسمع النبي صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : أما لو جاءني لاستغفرت له ، وأما اذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه حتى يتوب الله عليه ، وجاء الوحي من عند الله ــ عز وجل ــ مؤدبا ومعلما، فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » (١) •

وظل أبو لبابة مربوطا في عمود المسجد عشرين يـــوما ، لا تفك قيوده الا لأداء الصلاة ، ثم يعود الى القيد من جديد ، حتى نزلت مغفرة الله تعالى له على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقبـــل جبريل يخبر الرسول بأن الله جل جلاله قد تاب على أبي لبابة بعد هذا الندم ، وبعد هذا التطهير ، وجاء قوله عز من قائل : « وآخرون اعترفوا بذنوبهـــم ، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهـــم ، ان الله غفور رحيم » (٢) •

وانتهت البشرى الى مسامع أبي لبابة ، فطار لها فرحا ، وسعد بها

---

(١) سورة الانفال ، الآية ٢٧ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١٠٢ .

كثيرا ، ولكنه ظل في قيده كما هو ، وأراد بعض الصحابة أن يفكه من القيد فأبى ذلك ، وقال : والله لا يفكني من قيدي الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكأنه كان يريد بذلك أن يوثق توبته ، وأن يكون فك الرسول لقيده تأكيدا لغفران الله له وعفوه عنه .

ومحيت الهفوة من سجل أبي لبابة ، بفضل الله ورحمته ، وواصل حياته مجاهدا مستقيما على الطريق ، وفيا بعهده ، لا يخون ولا يهون »(١) .

وهذه كلمة لموقظ الشرق السيد جمال الدين الافغاني يصور بها أهمية الأمانة وضرورتها للأمم ، يقول فيها :

« من المعلوم الجلي أن بقاء النوع الانساني قائم بالمعاملات والمفاوضات في منافع الأعمال ، وروح المعاملة والمعاوضة انما هي الامانة ، فان فسدت الامانة بين المتعاملين بطلت صلات المعاملة ، وانبترت حبال المعاوضة ، فاختل نظام المعيشة ، وأفضى ذلك بنوع الانسان الى الفناء العاجل .

ثم من البيّن ان الأمم في رفاهتها ، والشعوب في راحتها وانتظام أمر معيشتها ، محتاجة الى الحكومة بأي أنواعها : اما جمهورية أو ملكية مشروطة ، أو ملكية مقيدة ، والحكومة في أي صورها لا تقوم الا برجال يلون ضروبا من الأعمال ، فمنهم حراس على حدود المملكة يحمونها من عدوان الاجانب عليها ، ويدافعون الوالج في ثغورها ، وحفظة في داخل البلاد يأخذون على أيدي السفهاء ممن يهتك ستر الحياء ، ويميل الى الاعتداء من فتك أو سلب أو نحوهما ، ومنهم حملة الشرع وعرفاء القانون ، يجلسون على منصات الأحكام لفصل الخصومات ، والحكم في المنازعات .

---

(١) كتاب « الفداء في الاسلام » ، ص ٥٥ — الطبعة الاولى .

ومنهم أهل جباية الأموال ، يحصلون من الرعايا ما فرضت عليهم الحكومة من خراج ، مع مراعاة قانونها في ذلك . ثم يستحفظون ما يحصلون في خزائن المملكة ، وهي خزائن الرعايا في الحقيقة ، وان كانت مفاتيحها بأيدي خزنتها • ومنهم من يتولى صرف هذه الأموال في المنافع العامة للرعية ، مع مراعاة الاقتصاد والحكمة ، كانشاء المدارس والمكاتب ، وتمهيد الطرق وبناء القناطر واقامة الجسور واعداد المستشفيات ، ويؤدي أرزاق سائر العاملين في شؤون الحكومة ، من الحراس والحفظة وقضاة العدل وغيرهم ، حسبما عين لهم •

وهذه الطبقات من رجال الحكومة ، الوالين على أعمالها ، انما تؤدي كل طبقة منها عملها المنوط بها بحكم الأمانة ، فان خزيت أمانة أولئك الرجال ــ وهم أركان الدولة ــ سقط بناء السلطة ، وسلب الأمن ، وراحت الراحة من بين الرعايا كافة ، وضاعت حقوق المحكومين، وفشا فيهم القتل والتناهب ، ووعرت طرق التجارة ، وتفتحت عليهم أبواب الفقر والفاقة ، وخوت خزائن الحكومة ، وعميت على الدولة سبل النجاح ، فان ضربها أمر سدت عليها نوافذ النجاة •

ولا ريب أن قوما يساسون بحكومة خائنة اما أن ينقرضوا بالفساد ، واما أن يأخذهم جبروت أمة أجنبية عنهم ، يسومونهم خسفا، ويستبدون فيهم عسفا ، فيذوقون من مرارة العبودية ما هو أشد من مرارة الانقراض والزوال •

ومن الظاهر ان استعلاء قوم على آخرين ، انما يكون اتحاد آحاد العاملين . والتئام بعضهم ببعض ، حتى يكون كل منهم لبنية قومه كالعضو للبدن ، ولن يكونُ هذا الاتحاد حتى تكون الأمانة قد ملكت قيادهم ، وعمت بالحكم أفرادهم •

فقد كشف الحق أن الأمانة دعامة بقاء الانسان ، ومستقر أساس الحكومات ، وباسط ظلال الأمن والراحة ، ورافع أبنية العز والسلطان ، وروح العدالة وجسدها ، ولا يكون شيء من ذلك بدونها .

واليك الاختيار في فرض أمة عطلت نفوسها من حلية هــذه الخلة الجليلة ، فلا تجد فيها الا آفات جائحة ، ورزايا قاتلة ، وبلايا مهلكة ، وفقرا معوزا ، وذلا معجزا ، ثم لا تلبث بعد هذا كله أن تبتلعها بلاليع العدم ، وتلتهمها أمهات اللهم » .

يا مصدر التوفيق ، يا خير رفيق ، يا رب العبــاد ، هبنا فضيلــة الأمانة ، وجنّبنا رذيلة الخيانة ، فانك الرؤوف الرحيم .



المحبة

المحبة كما يقول الأئمة هي ارادة ما تراه أو تظنه خيرا ، واللغة تقول : حبَبت ُ فلانا ، بمعنى أصبت حبة قلبه ، وتقول : أحببت فلانا ، بمعنى جعلت قلبي معرضا لحبه ، وللمحبة أنواع بين الناس ، فهناك محبة اللذة ، كمحبة الرجل للمرأة ، ومحبة الانسان للطعام ، ومن ذلك قول القرآن الكريم : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » (١) • وهناك محبة للنفع ، كمحبة الانسان للشيء الذي ينتفع به ، ومن ذلك قول الله تعالى : « وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب » (٢) • وهناك محبة للفضل ، كمحبة اهل الايمان بعضهم لبعض •

وقد تفسَّر المحبة بالارادة في نحو قوله تعالى : « لمسجد أسِّسَ على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » (٣) • فكلمة « يحبون » هنا معناها يريدون ، ولكن بعض المحققين يرى أن المحبة أبلغ من الارادة ، فكل محبة ارادة ، وليس كل ارادة محبة •

وعندما تتردد كلمة « المحبة » بين الناس يفهم منها أكثرهم معنى

(١) سورة الانسان ، الآية ٨ .
(٢) سورة الصف ، الآية ١٣ .
(٣) سورة التوبة ، الآية ١٠٨ .

التجاذب الحسي أو الميل الجنسي الذي يقع بين الرجل والمرأة ، وهذا المعنى ليس هو المراد الأساسي في مجالنا هذا ، وان كان المعنى اللغوي العام لكلمة « المحبة » يشمله ، ولكن المراد بالمحبة هنا هو تلك الصفة النبيلة ، والفضيلة الجليلة ، التي تدفع صاحبها على الدوام الى محبة كلّ جميل ، والميل الى كل كريم وقويم من الأشياء والأحياء ، والقرآن الكريم يشير الى هذا الميل الطهور السامي عند أهل المحبة حينما يقول مثلا : « فيه رجال يحبون أن يتطهروا » • ويقول : « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » (١) • ويقول : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » •

ومن الواضح أن عامة الناس لا يحبون على هذا الوجه الجميل الرائع من المحبة ، وهناك كثيرون لا يبلغون هذا المستوى الرفيع من صفات الخير ، بل يظلون هناك في الدرك الأسفل من منازل الحب ، وفي أمثال هؤلاء يقول القرآن الكريم : « ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا » (٢) • ويقول : « ومنَ الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله » (٣)• ويقول : « الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك في ضلال بعيد » (٤) • ويقول : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » (٥) •

---

(١) سورة الحشر ، الآية ٩ .
(٢) سورة الانسان الآية ٢٧ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٦٥ .
(٤) سورة ابراهيم ، الآية ٣ .
(٥) سورة فصلت ، الآية ١٧ .

وهناك أشياء يحبها النــاس ، ولا يعاب عليهــم أن يتناولوها في اعتدال واستقامة ، وبطريق سليم شريف ، ولكن منهم من ينحرف في حبها ، فلا يسلم من المؤاخذة والحساب ، والى هذه الأشياء يشير القرآن الكريم في قوله : « زيِّنَ للناس حب الشهوات مــن النســاء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » (١) .

و « المحبة » التي تعد خُلقا من أخلاق القرآن المجيــد هي تلك الصفة الكريمة التي تجعل صاحبهــا متفتح القلب والعقل لتمجيد مــا يستحق التمجيد ، وتأييد ما يستحق التأييد ، وفي قمة درجات هــذه الصفة تأتي محبة الله تعالى ، ثم محبة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم محبة المؤمنين المستقيمين من عباده ، ثم محبة كل ما هو جميل طهور ، ولذلك يقول الحديث الشريف : « ثلاث من كنَّ فيــه وجــد حــلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا الله ، وأن يكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يُقذف في النار » .

وانما تستقيم هذه المحبة اذا كانت بغير غرض أو مرض ، وكانت خالصة لوجه الله عز وجل ، لأن ما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل ، ومن هنا نفهم قــول الرسول : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الايمان » . وقوله : « أفضل الأعمال الحب في الله ، والبغض في الله » . أي يجعل حبَّه للشيء متفقا مع رضا الله تعالى عن ذلك الشيء ، ويبغض الشيء الذي يبغضه الله سبحانه ولا يحبه .



(١) سورة آل عمران ، الآية ١٤ .

والتحلي الكامل بصفة « المحبة » الصادقة على الوجه الذي تقدم لا يتحقق للانسان الا بتوفيق من الله وعون ، ولقد سئل معروف الكرخي عن المحبة ، فقال : « المحبة ليست من تعليم الخلق ، انما هي من مواهب الحق وفضله » ، ولعلنا نزداد ايمانا بهذا حين تتذكر الحديث القائل : « الأرواح جنود مجنَّدة ، ما تعارف منهـا ائتلف ، وما تناكر منهـا اختلف » • كما أن نيل المرء محبة الناس على وجهها السليم يحتاج الى مثل هذا العون ، فان الله تعالى يقول لموسى عليه السلام : « وألقيت عليك محبة مني ، ولتصنع على عيني » (١) • فالله هو الذي ألقى المحبة على موسى عليه السلام •

ومحبة الله تعالى لعباده هي كنز الكنوز ، والقرآن يشير الى هذه المحبة في قوله : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومـة لائم ، ذلك فضل الله ، يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم » (٢) •

ومحبة الله تعالى لعبده هي رضاه عنه ، وانعامه عليـه ، ومحبة العبد لله هي طلب الزلفى اليه ، وقصر العبادة عليه ، مـع دوام حمده وشكره وتمجيده •

ولقد عرض علينا كتاب الله صفات أولئك الذين يحبهم ربهم ، فاذا هم يتحلون بمكارم الأخلاق ومحامد الصفات ، من الاحسان ، والتوبة ، والتطهر ، والتقوى ، والصبر ، والتوكل ، والعدل ، والجهاد ، ولذلك جاءت في كتاب ربنا جل جلاله هذه الآيات : « ان الله يحب المحسنين »،

---

(١) سورة طه ، الآية ٣٩ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٤ .

« ان الله يحبُ التوّابين ويحب المتطهرين » ، « فانّ الله يحب المتقينَ »، « والله يحب الصابرين » ، « ان الله يحب المتوكلين » ، « ان الله يحب المقسطين » ، « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .



ولقد توسع الصوفية في الحديث عن فضيلة « المحبة » . وقالوا فيها كثيرا من الكلمات النوابغ ، وعُنوا عنايــة خاصة بمحبة الانسان لربه ، فهذا ذو النون يسأله سائل عن المحبة ، فيقول : « المحبة أن تحب ما أحب الله ، وتبغض ما أبغض الله ، وتفعل الخير كله ، وترفض كــل ما يشغل عن الله ، وألا تخاف في الله لومة لائم ، مع العطف للمؤمنين ، والغلظة على الكافرين ، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فــي الدين » . ويقول محمد بن علي الترمذي : « حقيقــة حب الله دوام الانس بذكره » . ويقول رويم البغدادي : « المحبة هي الموافقة فــي جميع الأحوال » ، وأنشد :

ولــو قلتَ لي : مت ، متُّ سمعا وطاعــة
وقلتُ لداعـــي الموت : أهــلا ومرحبــا

ويقول حاتم الأصم : « من ادعى حب الله من غير ورع عن محارمه فهو كذاب » . ولقد يتوسع بعض اقطاب الصوفيــة في تصوير حبهم لله ، وانشغالهم به ، وفنائهم في رحابه ، ويصوّرون ذلك نثرا وشعرا ، ومن المنسوب الى الامام الدسوقي قوله :

اذا لــم يكــن معنى جــلالك لــي يُروى
فلا مهجتــي تشفــى ، ولا كبــدي تروى

نظـرت فلــم أنظـر ســـواك أحبـه
ولولاك مـا طـاب الهوى للذي يهـــوى
ولما حــلا لــي الذكر في خلـــوة الرضا
وغيبت ، قـال النـاس : ضلت بك الأهوا
لعمـرك مـا ضـل المحب ومـا غـوى
ولكنهـم لمـا عمـوا أخطـأوا الفتـوى
خلعت عذاري في هـواك ، ومـن يكـن
خليـع عذار في الهـوى : سره نجـوى
ومزقـت أثـــواب الوقـــار تولهـــا
عليـك ، وطـابت في محبتـك الدعـوى
فما في الهوى شكـوى ، ولو فرق الحشا
وعـار علـى العشاق في حبك الشكـوى
وما علمـوا للحب داء سـوى الهـــوى
وعنـدي أسـباب الهـــوى كلهـا أدوا
وقد كنت مـن خوف الهوى أتقي الهـوى
ولكــن اذا اشتد الهـوى كـانت التقوى

ومحبة العبد لربه تعالى تستوجب رضا العبد بكل ما يأتيه عن الله جل جلاله ، ولو كان ابتــلا ء او اختبارا او تمحيصا ، لأنـه القائل : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمـة وأولئك هـم المهتدون » (١) . ولذلك يقول عمر بن عثمان المكي : « اعلم أن المحبة

(١) سورة البقرة ، الآيات ١٥٥ و ١٥٦ و١٥٧ .

داخلة في الرضا ، ولا محبة الا بالرضا ، ولا رضا الا بمحبة ، لأنك لا نحب الا ما رضيت وارتضيت ، ولا ترضى الا ما أحببت » .

واذا أحبَّ الله عبدا من عباده اتاه من ثمرات هذه المحبة ما يعظم شأنه ، ويجل قدره ، والحديث الصحيح الذي رواه مسلم يقول : « ان الله اذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : اني أحب فلانا فأحبَّه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء ، فيقول : ان الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، واذا أبغض الله عبدا ، دعا جبريل فيقول : اني أبغض فلانا فأبغضه ، فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : ان الله يبغض فلانا فأبغضوه ، فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض » .



ومحبة الانسان لربه ـ وهي أسمى ألوان المحبة من الانسان ـ تهيىء كذلك لمحبة الناس هذا الانسان المحب لله ، ولذلك يقول يحيى ابن معاذ : « على قدر حبك لله تعالى يحبك الخلق » .

وبعد محبة الانسان لربه تعالى تأتي محبته لرسوله صلى الله عليه وسلم . والقرآن يشير الى ذلك في قوله : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » (١) . ومن وراء محبة الله ورسوله تتسلسل ألوان من المحبة الدينية السامية ، كمحبة ما عند الله في الآخرة ، وكمحبة التقوى ، والاستعداد بالزاد للقاء الله عز وجل ، وكأن سهل بن عبد الله كان يشير الى مثل هذا حين قال : « علامة حب الله حب القرآن ، وعلامة حب القرآن حب النبي

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٣١ .

صلى الله عليه وسلم ، وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة ، وعلامة حب الله وحب القرآن وحب النبي وحب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة أن يحب نفسه ، وعلامة حب نفسه أن يبغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها الا الزاد والبُلغة » • أي ما يتبلغ به ويتوصل به الى الشيء المطلوب • ولقد روى أبو الدرداء عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في قوله تعالى : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » ، قال : « على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس » ، رواه الترمذي •

وبعد محبة الانسان لربه وكتابه ورسوله ولقائه وطاعته ، تأتي محبته لأولياء الله الصالحين المصلحين ، الذين قال فيهم رب العالمين : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » (١) • والصدق في محبة اولياء الله العالمين العاملين ، الصالحين المصلحين ، ينهض دليلا على محبة الله تعالى ، ولذلك قال شاه الكرماني : « محبة اولياء الله تعالى دليل على محبة الله عز وجل » • والحديث القدسي يقول : « من آذى لي وليا فقد استحل محاربتي ، وما تقرب اليَّ عبدي بمثل اداء الفرائض ، وما يزال عبدي يتقرب اليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها ، وأذنه التي يسمع بها ، ورجله التي يمشي بها ، وفؤاده الذي يعقل به ، ولسانه الذي يتكلم به ، ان سألني أعطيته ، وان دعاني أجبته ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن وفاته ، لأنه يكره الموت وأنا أكره مساءته » • رواه أحمد •

---

(١) سورة يونس ، الآيات ٦٢ و٦٣ و٦٤ •

وبعد محبة الأولياء تأتي محبة المؤمن لاخوته في الايمان والدين ، لأن القرآن الكريم يقول : « انما المؤمنون اخــوة » (١) • ولا تستقيم الأخوة الا على أساس المحبة • والمحبة في ظل الايمان والتقوى تكون محبة شريفة عفيفة نظيفة ، وتبقى في الدنيـا ، وفي الآخرة ، ولذلك يقول القرآن : « الأخلاَّء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين » (٢) •

ولقد أخبرتنا السنة من بعد القرآن الكريم أن هؤلاء المتحابين في الدنيا تحت لواء الايمان والتقوى يجمع الله بينهم في دار النعيم ، وان كان بين منازلهم شيء من التفاوت • فهذا رجل يقول للرسول : يا رسول الله ، كيف تقول في رجل أحبَّ قوما ولم يلحق بهم (أي لم يساوهم في قدر الطاعة) • فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحبَّ » •

كما نوهت السنة بشأن هؤلاء المتحابين ، فقال الحديث : « زار رجل أخا له في قرية أخرى ، فأرصدَ اللهُ له على مدرجته (أي طريقه) ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لي في هذه القرية، قال : هل لك عليه من نعمة تَربُّها (أي تصلحها وتنمها) ؟ قال : لا ، غير أني أحببته في الله عز وجل • قال : فاني رسول الله اليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » •

وجاء في السنة : « ان الله تعالى يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي (أي لعظمتي) ؟ اليوم أظلهم في ظلي : يوم لا ظل الا ظلي » • وفي رواية أخرى : « المتحابون في ظلالي ، لهم منابر من نور ، يغبطهم

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٠ .
(٢) سورة الزخرف ، الآية ٦٧ .

النبيون والشهداء » . وفي حديث آخر : « **ان من عباد الله لأناسا ما هم** بأنبياء ولا شهداء ، **يغبطهم الأنبياء والشهداء** يوم القيامة ، بمكانهم من الله **تعالى . قالوا : يا رسول الله ، تخبرنا من هم ؟** . قـال : هم قوم تحابتوا بروح **الله** (بمحبته ورحمته) **على** غير أرحام بينهم (أي قرابة) ولا أموال يتعاطونها (يتعاملون فيها) فوالله ان وجوههم لنور ، وانهم لعلى نور ، لا يخافون اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس ، « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وان القرآن الكريم هو كتاب المحبة ، وان دين الله الاسلام هو دين المحبة ، وان أتباعه المؤمنين هم أهل المحبة ، وصلوات الله وسلامه على رسوله حين قال : « المؤمن الف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلَف » . اللهم ارزقنا حبك ، وحب من يحبك ، انك نعم المولى ونعم النصير .

●

الاحسان

اذا سمع كثير من الناس كلمة « الاحسان » انصرفت أذهانهم الى المعنى المادي الذي جرى به عرفهم ، وهو معاونة الغني للفقير بشيء من المال ، ولكن معنى هذه الكلمة ليس بهذا الضيق ، بل هو واسع عميق ، فالاحسان في اللغة معناه الاتقان وهو ضد الاساءة . وهو الاخلاص وصدق المراقبة ، وهو التطوع بالفضل بعد مراعاة العدل ، وهو الصنع الجميل ، والتصرف الحميد .

ولذلك جاء قول الله تبارك وتعالى : « انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » . وجاء قول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وقد جاءت مادة « الاحسان » ومتعلقاتها فيما يقرب من أربعين موضعا في القرآن الكريم . وهذه العناية التي تظهر في القرآن بأمر الاحسان ، وتتمثل في الحديث عنه عشرات المرات ، تدل على المكانة السامية التي تحتلها فضيلة « الاحسان » .

ولا عجب في ذلك ، فعلماء الأخلاق يقولون ان الاحسان خلق جامع لجميع أبواب الحقائق ، وفيه لب الايمان وروحه ، ولعل أساس التعريف بالاحسان هو العبارة النبوية الجليلة التي يقول فيها المصطفى

صلوات الله وسلامه عليه : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » .

وقد عبّر ابن الأثير عن معنى هذه الكلمات المضيئة بتعبير موجز يقول فيه : « أراد بالاحسان الاخلاص ، وهو شرط في صحة الايمان والاسلام معا . وذلك أن من تلفظ بالكلمة ، وجاء بالعمل من غير نية الاخلاص . لم يكن محسنا ، ولا كان ايمانه صحيحا . وقيل : أراد بالاحسان الاشارة الى المراقبة وحسن الطاعة ، فان من راقب الله أحسن عمله . وقد أشار اليه في الحديث بقوله : فان لم تكن تراه فانه يراك » .

والاحسان على هذا الأساس هو كمال الحضور مع الله تعالى ، والمراقبة الجامعة لخشيته ، والاخلاص له ، بأن يحسن الانسان قصده ، فيجعله خالصا متجردا لله ، فلا يستجيب ولا يطيع الا كلمة ربه ، وأمر دينه ، وأن يقدم على تنفيذ ما أمر الله به في قوة وعزم ، بلا ضعف أو وهن ، وأن يصفي نفسه من الشوائب والأهواء ، وأن يجعل نفسه كالمهاجر الدائم الى الله عز وجل .

وقد ضرب القرآن الكريم لعباده مثلا رائعا في هذا الاحسان ، وجاء هذا المثل فيما رواه كتاب الله عن قصة ابراهيم ، واقدامه على ذبح ابنه اسماعيل ، حيث يقول عنهما : « فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدني ان شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتلّه للجبين ، وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين » .

وابراهيم كان محسنا غاية الاحسان ، لأن الاحسان هنا يتمثل في

تلك الطاعة المطلقة لله تعالى ، بلا تردد ولا توقف ، فابراهيم حينما رأى في المنام أنه يذبح ابنه ، وتأكد لديه أن هذه الرؤيا من الله تعالى ، ورؤيا الأنبياء حق ، سارع بتنفيذ الرؤيا ، ونسي في طاعة الله معاني الأبوة والبنوة ، وأحضر ولده ، وعرض عليه الأمر ، فكان على نهج أبيه ، فكان كل منهما محسنا ، ولذلك أثابهما الله تعالى بما أثابهما به ، وقال : « انا كذلك نجزي المحسنين » •

واذا كنا قد عرفنا أن « الاحسان » فضيلة تطوي بين جناحيها فضائل ، فانه من السهل أن تتقبل قول العلماء : ان الاحسان يقال على وجهين : أحدهما الانعام على الغير ، فيقال : أحسن فلان الى فلان ، اذا أكرمه وأنعم عليه ، والثاني في الفعل ، كأن يعلم علما حسنا ، وأن يعمل عملا حسنا ، ومن هذا القبيل قول الامام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه : « الناس أبناء ما يحسنون » ، أي منسوبون الى ما يعملونه من الأعمال الحسنة •

وقد ورد ذكر « الاحسان » بمعنى الزيادة عن الواجب ، والتفضل بما ليس مفروضا • ومن أمثلة ذلك قول الله عز من قائل في سورة آل عمران : « والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين»، فكظم الغيظ هو كتمانه بشيء من المقاومة والمغالبة والمجاهدة ، والعفو هو الصفح وعدم مقابلة الاساءة بمثلها ، والاحسان هو الزيادة عن الكظم والعفو ، بأن يحسن الانسان الى من أساء اليه ، ولا يكتفي معه بالعفو ، بل يتفضل عليه بالاحسان وصنع الجميل •

ومن أمثلة ذلك أيضا قول الله تعالى أيضا : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » ••• فالعدل هو أن يعطي الانسان ما عليه ، ويأخذ حقه ،

والاحسان أن يعطي الانسان أكثر مما عليه ، ويأخذ أقل مما له ، فالاحسان زائد على العدل ، ولذلك كان تحري العدل مفروضا واجبا ، وكان تحري الاحسان مندوبا مستحبا •

ومن هذا القبيل قول الله سبحانه في سورة البقرة : « بلى من أسلم وجهه لله ، وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » • وقوله في سورة النساء : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا ، واتخذ الله ابراهيم خليلا » • وقوله في سورة لقمان : « ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ، والى الله عاقبة الامور » •

وذكر القرآن الاحسان ، بمعنى حسن المعاملة ، وليس هناك من هو أحق بحسن المعاملة أكثر من الوالدين ، ولذلك أكد القرآن الكريم الدعوة الى احسان المعاملة معهما ، فقال في سورة النساء : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا » • وقال في سورة الأنعام : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا » • وقال في سورة الاسراء : « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه ، وبالوالدين احسانا » • وقال في سورة الأحقاف : « ووصينا الانسان بوالديه احسانا » •

واذا كان الوالدان هما أحق الناس بأن يتحلى الانسان معهما باحسان المعاملة ، فليس معنى هذا أن ينسى الانسان فضيلة الاحسان مع غيرهما ، فهناك الاحسان الى الاولاد ، والزوجة ، والأقارب ، والجيران ، وسائر الناس •

وهذا حجة الاسلام أبو حامد الغزالي يقول : « وقد أمر الله تعالى

بالعدل والاحسان جميعا ، والعدل سبب النجاة فقط ، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال ، والاحسان سبب الفوز ونيل السعادة ، وهو يجري مجرى الربح ، ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله ، فكذا في معاملات الآخرة ، فلا ينبغي للمتدين ان يقتصر على العدل واجتناب الظلم ، ويدع أبواب الاحسان ، وقد قال الله تعالى : (وأحسن كما أحسن الله اليك) ، وقال عز وجل : (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) ، وقال سبحانه تعالى : (ان رحمة الله قريب من المحسنين). ونعني بالاحسان فعل ما ينتفع به المعامل ، وهو غير واجب عليه ، ولكنه تفضل منه ، فان الواجب يدخل في العدل وترك الظلم » .

ويعود حجة الاسلام الى الحديث عن الاحسان في استيفاء الحقوق والديون ، وهو لون من ألوان الاحسان في المعاملات ، فيقول : « والاحسان فيه مرة بالمسامحة وحط البعض ، ومرة بالامهال والتأخير، ومرة بالمساهلة في طلب جودة النقد، وكل ذلك مندوب اليه ومحثوث عليه.

قال النبي صلى الله عليه وسلم : (رحم الله امرأ سهل البيع ، سهل الشراء ، سهل القضاء ، سهل الاقتضاء) . فليغتنم دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم : (اسمح يسمح لك) . وقال صلى الله عليه وسلم : (من أنظر معسرا ، أو ترك له ، حاسبه الله حسابا يسيرا) . وفي لفظ آخر : أظله الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل الا ظله » .



وهكذا نجد ان مجال الاحسان يتسع ويتسع ، حتى يشمل مجموعة من فضائل الاعمال ومكارم الاخلاق ، ولعل هذا هو بعض السر في أن المفسرين ذكروا معاني كثيرة لكلمة «الاحسان» الواردة في سورة النحل من القرآن الكريم ، فوردت في تفاسيرهم هذه المعاني للكلمة : « أداء الفرائض ـــ القيام بالنوافل ـــ الاخلاص لله ـــ قول كل حسن ـــ أن

تعبد الله كأنك تراه ــ أن تكون السريرة أفضل من العلانية ــ فعل كل مندوب اليه ــ ان تحب للناس ما تحب لنفسك ، فان كان غيرك مؤمنا أحببت أن يزداد ايمانا ، وان كان كافرا أحببت ان يصير أخاك في الاسلام ..... » الخ .

وأغلب هذه المعاني كما ترى يرتبط بمفهوم اساسي للاحسان ، وهو أن يجعل الانسان للفضل في معاملاته نصيبا ، فلا يقتصر على أداء الواجب والمفروض ، بل يضيف الى ذلك شيئا من الفضل ، وهو الاحسان ، ولذلك نرى الامام الرازي في تفسيره يميل الى هذا الجانب ، فيقول « ان العدل في الطاعات هو أداء الواجبات ، أما الزيادة على الواجبات فهي ايضا طاعات ، وذلك من باب الاحسان ، وبالجملة فالمبالغة في اداء الطاعات بحسب الكمية وبحسب الكيفية هو الاحسان ، والدليل عليه أن جبريل لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الاحسان قال : الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك .

فان قالوا : لم سُمِّي هذا المعنى بالاحسان ؟. قلنا : كأنه بالمبالغة في الطاعة يحسن الى نفسه ، ويوصل الخير والفعل الحسن الى نفسه .

والحاصل ان العدل عبارة عن القدر الواجب من الخيرات، والاحسان عبارة عن الزيادة في تلك الطاعات ، بحسب الكمية ، وبحسب الكيفية ، وبحسب الدواعي والصوارف ، وبحسب الاستغراق في شهود مقامات العبودية والربوبية ، فهذا هو الاحسان . واعلم أن الاحسان بالتفسير الذي ذكرناه يدخل فيه التعظيم لأمر الله تعالى ، والشفقة على خلق الله .

ومن الظاهر ان الشفقة على خلق الله أقسام كثيرة ، وأشرفها وأجلها صلة الرحم ، لا جرم أنه سبحانه أفرده بالذكر فقال : «وايتاء ذي القربى»، يعني في قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذي القربى .... » الى آخر الآية الكريمة .

ونرى الامام القرطبي يتجه اتجاها ثانيا ، فهو يرى أن «الاحسان» في تعبير القرآن يشمل تحسين الانسان ما يعمله وتكميله ، واحسان الانسان الى غيره ، وهو ايصال ما ينتفع به اليه ، فهو يذكر هذين المعنيين عند تفسيره الآية السابقة .

ثم يقول : « وهو في هذه الآية مراد بالمعنيين معا ، فانه تعالى يحب من خلقه احسان بعضهم الى بعض ، حتى ان الطائر في سجنك ، أو السِّنَّور (١) في دارك ، لا ينبغي ان تقتصر في تعهده باحسانك ، وهو تعالى غني عن احسانهم ، ومنه الاحسان والنعم والفضل والمنن » .

وهو ــ أي الاحسان ــ في حديث جبريل بالمعنى الاول لا الثاني، فان المعنى الاول راجع الى اتقان العبادة ، ومراعاتها بآدابها المصححة والمكملة ، ومراقبة الحق فيها ، واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع وحالة الاستمرار ، وهو المراد بقوله : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك .

وأرباب القلوب في هذه المراقبة على حالين : أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه ، ولعل النبي صلى الله عليه وسلم أشار الى هذه الحالة بقوله : (وجُعلت قرة عيني في الصلاة) ، وثانيهما لا ينتهي الى هذا ، لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليه ومشاهد له ، واليه الاشارة بقوله تعالى : « الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين » ، وقوله : « الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه » .



والواقع ان صاحب الاخلاق القرآنية يستطيع أن يجد للاحسان

---

(١) السنور : القط .

مكانا وكيانا في كل الاحوال ، لأن الاحسان مطلوب في الاعتقاد باخلاص الاعتراف بالالوهية والتوحيد لله جل جلاله بلا أدنى اشراك ولو في الصورة او الظاهر .

والاحسان مطلوب في النية بتجريدها لله سبحانه ، كما يقول سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « انما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » .

والاحسان مطلوب في القول ، بارشاد القرآن المجيد حيث يقول عن الاخيار من العباد « وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد » ، وقوله : « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » ، وقوله : « وقولوا للناس حسنا » .

والاحسان مطلوب في العمل بدليل قول الله تعالى : « انّا لا نضيع أجر من أحسن عملا » . والاحسان مطلوب في المظهر كالثياب ، وذلك بما يرمز اليه قول الله تعالى : « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » .

والاحسان مطلوب في التحية بدليل قول الله تعالى : « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ان الله كان على كل شيء حسيبا » .

والاحسان مطلوب في سائر العبادات : انه مطلوب في الصلاة بتحقيق السكينة والخشوع فيها ، وذلك بدليل أن القرآن يستعمل في الامر بالصلاة مادة « اقامة الصلاة » غالبا ، مثل : أقيموا ، أقاموا ، يقيمون ، أقام الصلاة .

وهذه المادة تدل على التسوية والاتقان والاحسان ، ولقد رأى الرسول رجلا يسرع في صلاته ، فقال : « لو خشع هـذا لخشعت جوارحه » • ورأى آخر يسرع في صلاته فقال له : « صلّ فانك لم تصلّ » •

والاحسان مطلوب في أداء الزكاة ، بدليل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الارض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه الا ان تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد» (١) وقوله : « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » • •

والاحسان مطلوب في الصوم باخلاص النية ، والامتناع عن المفطرات الحسية ، ومنع الاعضاء عن استخدامها فيما لا يليق بالمسلم ، ومنع العقل والقلب عن خواطر الاثم وأفكار السوء •

ولذلك يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » • ففي قوله : « لعلكم تتقون » اشارة الى أن جوهر الحكمة في الصوم التقوى ، ومن هنا قال الحديث القدسي : « كل عمل ابن آدم له ، الا الصوم، فانه لي ، وأنا أجزي به ، يدع طعامه وشرابه من اجلي » •

والاحسان في الحج مطلوب بالتجرد في الرحلة الى الله تبارك وتعالى ، والاستغراق في معاني ضيافة الله ، والله يقول : « الحج أشهر

---

(١) لا تيمموا : لا تقصدوا . والخبيث : الرديء . وتغمضوا فيه : تتساهلوا .

معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، وما تفعلوا من خير يعلمه الله، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولي الالباب » .



هذا وللصوفية عن فضيلة «الاحسان» أحاديث ذات تحليل وتفصيل، وهذا ابن القيم في «مدارج السالكين» يذكر من عناصر الاحسان قول القائل : « ان تجعل هجرتك الى الحق سرمدا » ، ويعلق على ذلك بقوله : « لله على كل قلب هجرتان ، وهما فرض لازم له على الانفاس ، هجرة الى الله سبحانه بالتوحيد والاخلاص ، والانابة والحب، والخوف والرجاء والعبودية .

وهجرة الى رسوله صلى الله عليه وسلم بالتحكيم له والتسليم والتفويض ، والانقياد لحكمه ، وتلقي أحكام الظاهر والباطن من مشكاته، فيكون تعبده به أعظم من تعبد الركب بالدليل الماهر في ظلم الليل ومتاهات الطريق .

فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحث على رأسه الرماد، وليراجع الايمان من أصله ، فيرجع وراءه ليقتبس نورا ، قبل أن يحال بينه وبينه، ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور ، والله المستعان » .

ولقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موطن الى الثواب الجليل لاهل الاحسان ، ومن هذه الاشارات ما جاء في تلك الآيات : « ان الله مع المحسنين » ، « ان الله يحب المحسنين » ، « ان رحمة الله قريب من المحسنين » ، « ما على المحسنين من سبيل » . جعلنا الله بمنه وتوفيقه من هؤلاء .

التوبـــة

«التوبة» كلمة فيها معنى الرجوع والعودة : وفيهـا معنى طلب الوقاية ، والبعد عن شر ما يخافه الانسان في المستقبل من سيئات اعماله، وعرّفها العلماء بأنها الرجوع الى الله تعالى : بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره ، وهناك من يصوّر معناها بأنه علم بضرر الذنب ، وتألم فـي القلب بسبب ذلك ، وندم على ما فات، وقصد الى التخلص من الذنب ، وترك للمعصية في الحال ، والعزم على تركها في الاستقبال ، وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الاحوال .

ويذكر الاصفهاني ان التوبة هي ترك الذنوب على أجمل الوجوه، وهذا هو أبلغ وجوه الاعتذار ، فان الاعتذار على ثلاثة أوجه : امـا ان يقول المعتذر : لم أفعل ، أو يقول : فعلت لاجل كذا ، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت ، وهذا الاخير هو التوبة .

وكلمة «التائب» تقال للعبد الذي توجه الى الله بالتوبة ، والتائب أيضا هـو الله سبحانه وتعالى الذي تاب على عبده ، وكلمة « التواب» تقال للعبد الكثير التوبة ، وذلك بتركه كل وقه بعض الذنوب علـى الترتيب ، حتى يصير تاركا لجميعها ، والله تعالى من صفاته أنه «التواب» لكثرة قبوله توبة عباده حالا بعد حال .

ومعنى التوبة يتسع ويتسع حتى يكون فيه معنى الرجوع المستمر

عما يكرهه الله ظاهرا وباطنا ، الى ما يحبه ظاهرا وباطنا ، ويدخل في مسماها الاسلام والايمان والاحسان ــ كما يقول ابن القيم ــ وتتناول جميع المقامات ، ولذلك كانت غاية كل مؤمن ، وبداية الامر ونهايته •

ولعلنا نستطيع ــ في ضوء هذا التحديد ــ أن نفهم جانبا من قصد الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله : « يا أيها الناس ، توبوا الى الله ، فوالله اني لأتوب اليه في اليوم اكثر من سبعين مرة » • ويروى ان الرسول كان يكثر في مجلسه من قوله : « رب اغفر لي وتب علي انك أنت التواب الغفور » • وحينما نزلت عليه سورة : « اذا جاء نصر الله والفتح » كان يقول عقب صلواته : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي » •

ومما يدلنا على أن التوبة خلق يصاحب المؤمن في مسيرته الحديث الذي يقول : « ان الله يحب العبد المفتن التواب » أي الذي كلما فتن بالذنب تاب ورجع • وحسب هذه الفضيلة شرفا ان يقول الحق عز وجل في شأنها : « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » (١) • ويقول حجة الاسلام الغزالي : « التوبة عن الذنوب بالرجوع الى ستار العيوب وعلام الغيوب : مبدأ طريق السالكين : ورأس مال الفائزين ، وأول أقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين» •

ولقد تحدث الامام ابن القيم عن منازل السالكين ، وهم يرتقون بأرواحهم في مراتب الادب والتهذيب ، ثم قال : « ومنزل التوبة أول المنازل واوسطها وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه الى الممات ، وان ارتحل الى منزل آخر ارتحل به ، واستصحبه معه ، ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته اليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته اليها في البداية كذلك » •



(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢٢ .

والتوبة تصاحب الانسانية منذ أبيها الاول « آدم » عليه السلام • ولذلك نجد القرآن الكريم يقول في سورة البقرة : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » (١) • وكانت التوبة دعوة الانبياء والرسل منذ القدم ، فهذا ابراهيم عليه السلام يقول كما جاء في سورة البقرة مخاطبا ربه : « وتب علينا انك أنت التواب الرحيم » (٢)، وهذا «هود» عليه السلام يقول لقومه كما جاء في سورة هود : « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه » • وهذا هو «صالح» عليه السلام يقول عنه القرآن في السورة نفسها : « قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا اليه ، ان ربي قريب مجيب » • وهذا هو «شعيب» عليه السلام يقول لقومه في السورة نفسها : « واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ، ان ربي رحيم ودود » (٣) •

وهذا هو « موسى » عليه السلام ، يلجأ الى التوبة ، ليتخذ منها مسلكا الى غفران ربه ورضاه ، فنجد في سورة الاعراف قوله تعالى : « فلما أفاق قال : سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين » (٤)

وفي سورة التوبة يقول القرآن المجيد : « لقد تا بالله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة (٥) » • وفي السورة نفسها يجعل الله صفة التوبة أول صفة يذكرها لاولئك الذين اشتروا الجنة من ربهم ، ببيع نفوسهم واموالهم ، فيقول : « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين (٦) •

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٢٨ .
(٣) سورة هود ، الآيات ٥٢ و٦١ و٩٠ على التوالي .
(٤) سورة الاعراف ، الآية ١٤٣ .
(٥) سورة التوبة ، الآية ١١٧ .
(٦) سورة التوبة ، الآية ١١٢ .

وهكذا نجد التنزيل الالهي كأنه يريد لنا أن نفهم أن «التوبة» سمة اساسية من سمات الاخيار المؤمنين بالله منذ أقدم العصور •



وليست التوبة كلمة تقال ، أو عبارة تردد ، ولكنها تتحقق بعدة أمور : منهـا أن يشعر الانسان بالندم على ارتكاب الخطأ أو الذنب، ومن هنا جاء في الحديث : « الندم توبة » • وان يترك المعصية ويبتعد عنها ، وان يعزم على عدم الرجوع اليها ، وان ينتقل من مجال الخطأ الى حقل العمل الصالح ، حتى يكون بعد التوبة أفضل مما كان عليه قبلها ، والا ينوي الاصرار على أي ذنب مهما كان صغيرا ، لان الله تبارك وتعالى يقول في سورة آل عمران : « والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » (١) •

ومن شروط التوبة الخروج من عهدة حق الآدمي ، اما باعادة التائب هذا الحق الى صاحبه ، اذا كانت هناك قدرة على الاعادة ، واما باستحلال صاحب الحق بعد اعلامه به ، والحديث يقول : « من كان لأخيه عنده مظلمة من مال او عرض ، فليتحلله اليوم قبل ان لا يكون دينار ولا درهم ، الا الحسنات والسيئات » • والراجح عند العلماء أنه لا يشترط على التائب أن يذكر كل شيء لصاحب الحق ، بل يكفي التعميم ، وقد بحثوا ــ فيما بحثوا ــ موضوع التوبة من الغيبـة والقذف : هـل يشترط ان يذهب التائب الى من اغتابه أو قذفه ، ويذكر لـه ذلك ليستسمحه ؟• واختلفوا في ذلك ، والامام ابن تيمية يرجح عدم الذكر، وهذا تلميذه ابن القيم يقول في ذلك ــ بعد أن ذكر رأي من يـرى

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٣٥ .

الاخبار ـ : « والقول الآخر أنه لا يشترط الاعلام بما نال من عرضه وقذفه واغنيابـه ، بل يكفي توبته بينـه وبين الله ، وأن يذكر المغتـاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة ، فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه ، وقذفه بذكر عفته واحصانه ، ويستغفر له بقدر ما اغتابه ، وهذا اختيار شيخنا ابي العباس ابن تيمية قدس الله روحه .

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن اعلامه مفسدة محضة لا تتضمن مصلحة ، فانه لا يزيده الا أذى وحنقا وغما ، وقد كان مستريحا قبـل سماعه ، فاذا سمعه ربما لم يصبر على حمله ، وأورثه ضررا في نفسه أو بدنه ، كما قال الشاعر :

فان الذي يؤذيك منه سماعه   وان الذي قالوا وراءك لم يقل

وما كان هكذا فان الشارع لا يبيحه ، فضلا عن أن يوجبـه ويأمر بـه .

قالوا : وربما كان اعلامه بـه سببا للعداوة والحرب بينه وبـين القائل ، فلا يصفو له ابدا ، ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف ، وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب والتراحم والتعاطف والتحابب .

قالوا : والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الابدان مـن وجهين : أحدهما أنه قد ينتفع بها اذا رجعت اليه ، فلا يجوز اخفاؤها عنه ، فانه محض حقه ، فيجب عليه أداؤه اليه ، بخلاف الغيبة والقذف ، فانه ليس هناك شيء ينفعه يؤديه اليه ، الا اضراره وتهييجه فقط ، فقياس أحدهما على الاخر من أفسد القياس .

والثاني انه اذا أعلمه بها لم تؤذه ولم تهج منه غضبا ولا عداوة ،

بل ربما سره ذلك وفرح به ، بخلاف اعلامه بما مزق به عرضه طول عمره ليلا ونهارا من أنواع القذف والغيبة والهجو ، فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد ، وهذا هو الصحيح في القولين كما رأيت ، والله أعلم » .



وقد أوجز الاصفهاني الشروط التي يلزم توافرها في صحة التوبة، فذكر أنها ترك الذنب لقبحه ، والندم على ما فرط منه ، والعزيمة على ترك المعاودة ، وتدارك ما أمكنه ان يتدارك من الاعمال بالاعادة ، فمتى اجتمعت هذه الاربع فقد كملت شروط التوبة في الشرع ، ويبدو أن هذا هو المراد من «التوبة النصوح» التي ذكرها القرآن الكريم في سورة التحريم حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا انك على كل شيء قدير (١) » .

وكلمة « النصوح » مأخوذة من مادة « النصح » التي تفيد معنى خلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة ، وذلك لان التوبة النصوح انما تتم بتخليصها من كل غش ونقص وفساد ، وبتحقيقها على أكمل الوجوه ، بأن تكون شاملة لكل الذنوب صغيرها وكبيرها ، فلا يتوب من ذنب ويترك ذنبا آخر ، وأن يعزم عليها ويبادر اليها بارادته دون تردد، وان يجعلها خالصة لوجه الله سبحانه ، لا لغرض ولا لمرض ولا لعلة .

وقد وردت كلمات بليغة في وصف هذه التوبة ، فقال فيها عمر رضي الله عنه : « هي أن يتوب من الذنب ثم لا يعود اليه، كما لا يعود

(١) سورة التحريم ، الآية ٨ .

اللبن الى الضرع » • وقال الحسن البصري : « هي ان يكون العبد نادما على ما مضى ، مجمعا على أن لا يعود فيه » • وقال الكلبي : « ان يستغفر باللسان ، ويندم بالقلب ، ويمسك بالبدن » • وقـال محمد بن كعب القرظي : « يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والاقلاع بالابدان ، واضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سيء الاخوان » •



ولقد أطال الصوفية الحديث عن التوبة ، وفصلوا القـول فـي معانيها تفصيلا ، وهي عند البصراء منهم أصل من أصولهم السبعة التي يكمل بها التصوف ، وهي : التمسك بكتاب الله تعالى : والاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الاذى ، واجتناب الآثام ، وأداء الحقوق ، والتوبة • وبعضهم يرى أن عمق الندم على ارتكاب الاثم هو المنبع الذي ينبثق منه رحيق التوبة ، ولذلك يقول ان شجرة التوبة تسقى بماء الندم ، ويرى بعض آخر منهم أن عماد التوبة هو أن ترى جرأتك على الله تعالى بارتكاب الذنب ، فتستعظم ذلك ، وترى حلم الله عنك فلا تغتر به •

وهم يرون أن التوبة فرض ، وأنها واجبة على جميع المذنبين وفي كل الذنوب ، ولذلك يقول عمرو بن عثمان المكي : « التوبة فرض على جميع المذنبين والعاصين ، صغر الذنب أو كبر ، وليس لاحد عذر في ترك التوبة بعد ارتكاب المعصية ، لان المعاصي كلها قد توعد الله عليها أهلها ، ولا يسقط عنهم الوعيد الا بالتوبة ، وهذا مـا يبين ان التوبة فـرض » •

واذا كانت التوبة عند الصوفية مقامـات ــ كما يشرح ذلك ابن القيم ــ فان منها مقاما لا يعرفه الا المحبون لله تعالى ، الذين يستقلون

في حق محبوبهم جميع أعمالهم واحوالهم واقوالهم ، فلا يرونها قط الا بعين النقص والازراء عليها ، ويرون شأن محبوبهم أعظم ، وقدره أعلى ، واذا غفلوا عن مراد محبوبهم منهم ، ولم يوفوه حقه ، تابوا من ذلك توبة أصحاب الكبائر ، فالتوبة لا تفارقهم ابدا ، وكلما ازدادوا حبا لله ازدادوا معرفة بحقه ، وادراكا لتقصيرهم ، ولذلك يكون خوفهم أشد .

والتوبة تجب على الفور عقب وقوع الذنب ، ولذلك تتحتم المبادرة بها ، ولا يباح تأخيرها ، وكل تأخير للتوبة يعد استمرارا في الذنب والرضى به ، ولذلك كان من المأثور قولهم : العجلة من الشيطان الا في خمس : اطعام الطعام اذا حضر ضيف ، وتجهيز الميت اذا مات ، وتزويج البكر اذا أدركت ، وقضاء الدين اذا وجب ، والتوبة من الذنب اذا أذنب.

ولعل المبادرة بالتوبة هي بعض مـا نفهم من قول الله تبارك وتعالى في سورة النساء : « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قـال اني تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار ، أولئك أعتدنا لهم عذابا أليمـا (١) » .

وانما تقبل التوبة ممن يقدر على ارتكاب الذنب ، ثم يمنع نفسه عنه ويتوب منه ، ولكن الشخص الذي لا يستطيع ان يسرق مثلا ، لسبب خارج عن ارادته ، ويقول اني تائب عن السرقة ، ولكنه عند زوال هذا السبب يقدم على السرقة ، لا تقبل توبته ، وهذه التوبة تسمى « توبة الافلاس » أو « عفة العاجز » .



(١) سورة النساء ، الآيتان ١٧ و١٨ .

ولا يليق بالمؤمن ان يتوب من ذنب ، ويظل قائما على ارتكاب ذنب آخر ، واذا كان هناك من يقول بجواز التوبة من ذنب مع وجود سواه ، فان شأن المؤمن ان يبتعد عن كل الخطايا ، ويتوب منها كلها ، ولذلك كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في توبته مرشـدا ومعلما : « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، واسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني ، اللهم اغفر لي جدي وهزلي ، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي . اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت الهي ، لا اله الا أنت » .

وقد تحدث الامام الغزالي عما ينبغي أن يبادر اليه التائب ان وقع منه ذنب بقصد ، أو بحكم الاتفـاق ، فذكر انه يجب عليـه أن يبادر بالتوبة والندم والتكفير عن الذنب بحسنة مضادة له ، فان لم تساعده نفسه على العزم على الترك ، لغلبة الشهوة ، فقد عجز عن أحد الواجبين، فلا يليـق به أن يترك الواجب الثاني ، وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها ، فيكـون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا . والحسنات المكفرة للسيئات تكـون بالقلب أو باللسان أو بالجوارح ، فالتكفير بالقلب يكون بالتضرع الى الله تعالى في سؤال العفو والمغفرة ، وكذلك يضمر بقلبه الخير للمسلمين والعزم على الطاعات .

والتكفير باللسان يكون بالاعتراف بالخطأ والاستغفار فيقول : رب ، ظلمتُ نفسي وعملت سوءا ، فاغفر لي ذنوبي ، وكذلـك يكثر من ألوان الاستغفار .

والتكفير بالجوارح يكون بعمل الطاعات ، واخراج الصدقات ، واداء أنواع العبادات .

ولقد جاء في بعض الآثار ما يدل على أن الذنب اذا أتبعه صاحبه بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا ، وأربعة من هذه الثمانية تكون بالقلب ، وهي التوبة أو العزم على التوبة ، وحب الاقلاع عن الذنب ، والخوف من العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له • والأربعة الباقية تكون بالجوارح ، وهي أن يصلي عقيب الذنب ركعتين ، ثم يستغفر الله بعدها سبعين مرة ، ويقول : « سبحان الله العظيم وبحمده » مائة مرة ، ثم يتصدق بصدقة ، ثم يصوم يوما •



والناس فيما يتعلق بموقفهم من التوبة طبقات ، فالطبقة العليا هي أن يتوب الانسان ، ويستقيم على التوبة الى آخر عمره ، فهذا هو السابق بالخيرات ، وهو صاحب التوبة النصوح ، وهو صاحب النفس المطمئنة التي ترجع الى ربها راضية مرضية ، والطبقة التي بعدها هي أن يتوب الانسان ، ويستقيم في عمل أمهات الطاعات ، ولكنه قد يقع في بعض الذنوب ، فيندم ويأسف ، ويلوم نفسه على ذلك ، وهذا هو صاحب النفس اللوامة ، والطبقة الثالثة هي أن يتوب الانسان ، ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم يغلب عليه هواه ، فيدعوه الى بعض الذنوب من حين الى حين ، وان كان مؤديا للطاعات ، وهذا هو صاحب النفس السوّالة التي تسوّل لصاحبها عمل المعاصي ، والطبقة الرابعة هي أن يتوب الانسان مدة ، ثم يعود وينهمك في المعاصي ، وهذا هو صاحب النفس الأمارة بالسوء ، وهذه الطبقة هي شر الطبقات الأربع ، وقد توسع الغزالي في الحديث عن كل طبقة من هذه الطبقات •

والتوبة اذا تحققت على وجهها كان ثوابها عظيما جليلا ، وحسبنا أن نجد القرآن الكريم يقول في سورة القصص : « فأما من تاب

وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكـون من المفلحين » (١) • ويقول في سورة النور: «وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون» (٢)• ونحن نرى أن الآية قد علقت الفلاح علـى التوبة ، وقالت « لعلكم » للاشعار بأن المؤمنين اذا تابوا كانوا علـى رجاء الفـلاح ، فلا يرجو الفلاح الا التائبون •

وكذلك نرى مـن ثمرات التوبة تبديـل السيئات الى حسنات ، والقرآن الكريم يقول في سورة الفرقان : « الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبـدل الله سيئاتهم حسنات ، وكـان الله غفورا رحيما » (٣) • ويروى أن الرسول صلى الله عليـه وسلم فرح بنزول هذه الآية فرحا شديدا ، والآية تفيد أن الله يبدل قبائح أعمال التائبين الى محاسن ، فيبدلهم بالكذب صدقا ، وبالخيانة أمانة • وقال سعيد بن المسيب : « هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة • فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة » •

وكذلك يحدثنا القرآن الكريم في سورة مريم بأن مـن ثمرات التوبة المقرونة بالعمل الصالح ، الفوز بدخول الجنة ، فيقول : « الا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا » (٤)•

أما بعد ، فما أجدر كل مؤمن بأن يردد الاستغفار الوارد ، والمسمى « سيد الاستغفار » الذي يقول « اللهـم أنت ربي ، لا اله الا أنت ، خلقتني ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ، ووعدك مـا استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليَّ ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي ، انه لا يغفر الذنوب الا أنت » • اللهم آمين •

---

(١) سورة القصص ، الآية ٦٧ .
(٢) سورة النور ، الآية ٣١ .
(٣) سورة الفرقان ، الآية ٧٠ .
(٤) سورة مريم ، الآية ٦٠ .

كظم الغيظ

« كظم الغيظ » خلُق قرآني جعله الله تبارك وتعالى من صفات المتقين . فقال في سورة آل عمران « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » .

ومادة « الكظم » تدل في أصلها اللغوي على الامساك والجمع للشيء ، والكظم هو اجتراع الغيظ والامساك عن ابدائه ، وكأنه يجمعه الكاظم في جوفه . والكظم أيضا مخرج النفس — بفتح الفاء — ويقال : كظم البعير ، اذا ترك الاجترار ، ويقال : كظمه الغيظ ، اذا أخذ بنفسه ، فهو كظيم ومكظوم .

وقد جاء في سورة النحل قوله تعالى : « واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم » الآية ٥٨ . وفي سورة يوسف : « وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » الآية ٨٤ . وفي سورة غافر : « وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » الآية ١٨ . وفي سورة الزخرف : « ظل وجهه مسودا وهو كظيم » الآية ١٧ . وفي سورة القلم : « ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم » الآية ٤٨ .



و « الغيظ » صفة تدل على تغير في المخلوق عند احتداده يتحرك لها ، وفي الحديث جاءت كلمة : « غيظ جارتها » ، لأنها ترى من حسنها ما يغيظها ويهيج حسدها • ولقد قال الاستاذ الامام محمد عبده عن الغيظ : « الغيظ ألم يعرض للنفس اذا هُضم حق من حقوقها المادية ، كالمال ، او المعنوية كالشرف ، فيزعجها الى التشفي والانتقام ، ومن أجاب داعي الغيظ الى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال ، ولا يكتفي بالحق ، بل يتجاوزه الى البغي ، فلذلك كان من التقوى كظمه » •

وقد وردت مادة « الغيظ » في آيات من القرآن الكريم ، ففي سورة آل عمران : « واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور » الآية ١١٩ • وفي سورة التوبة : « ويذهب غيظ قلوبهم » الآية ١٥ • وفيها أيضا : « ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار » الآية ١٢٠ • وفي سورة الاحزاب : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم » الآية ٢٥ ••• الخ •

و « كظم الغيظ » هو تجرعه واحتمال سببه والصبر عليه ، وفي الحديث : « اذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع » • اي فليحبسه ما أمكنه ، وقد قال المفسرون في قوله تعالى عن المتقين : « والكاظمين الغيظ » (١) انهم الذين اذا ثار بهم الغيظ ـ وهو أشد الغضب ـ كظموه وكتموه ، ولم يستجيبوا لداعيه ، ولا يعملون غضبهم في الناس ، بل يكفون عنهم شرهم ، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل •

ولشيخ المفسرين الامام ابن جرير الطبري عبارة في التعليق على كلمة « والكاظمين الغيظ » ، يقول فيها ما نصه : « قوله : (والكاظمين الغيظ) يعني والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه ، يقال منه :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٣٤ .

كظم فلان غيظه اذا تجرعه ، فحفظ نفسه من ان تـُمضي ما هي قادرة على امضائه باستمكانها ممن غاظها ، وانتصارها ممن ظلمها .

وأصل ذلك من كظم القربة ، يقال منه : كظمت القربة اذا ملأتها ماء . وفلان كظيم ومكظوم اذا كان ممتلئا غما وحزنا ، ومنه قول الله عز وجل : (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) يعني ممتلىء من الحزن ، ومنه قيل لمجاري المياه : الكظائم ، لامتلائها بالماء ، ومنه قيل : أخذت بكظمه ، يعني بمجاري نفسه ، والغيظ مصدر من قول القائل : غاظني فلان فهو يغيظني غيظا ، وذلك اذا أحفظه وأغضبه . أ هـ .



وكظم الغيظ يحتاج الى ارادة صلبة ، وعزيمة قوية ، وشخصية تتحكم في عواطفها ومشاعرها وانفعالاتها ، فلا يستبد بها الغضب ، ولا يسيطر عليها الهوى الجامح ، فيدفعها الى الانتقام والتشفي ، أو الى ارتكاب ما لا يحسن بالرجل الحكيم الوقور .

ولذلك قال سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه : « ليس الشديد بالصُّرعة : انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » . وفي رواية انه قال : ما تعدون الصرعة فيكم ؟ . قالوا : الذي لا يصرعه الرجال . قال : ليس بذلك ، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب .

ولقد عنيت السنة المطهرة عناية واضحة بفضيلة كظم الغيظ ، فجاءت فيها مجموعة من الأحاديث الشريفة التي تنوه بمكانة هذا الخُلق الاسلامي القرآني ، فجاء في الحديث : « من كظم غيظا وهو قادر على أن يُنفذه ، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، حتى يخيِّره من أي الحور العين شاء » . وجاء فيه : « من كظم غيظا ــ ولو شاء أن يمضيه لامضاه ــ ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا » .

وتشير السنة الى ما تتطلبه فضيلة كظم الغيظ من جهد ومعاناة ، ومغالبة للهوى والنفس ، فيقول الحديث الشريف : « ما جرع عبد جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى » .

فالتعبير بكلمة « جرع » تفيد معنى المعاناة والمعالجة وحمل النفس على الشيء المتعب الذي يعقب خيرا، كما يتجرع المريض الدواء المر ليورثه الشفاء والعافية . وهذا هو الأصفهاني يقول في كتابه « مفردات القرآن » عن مادة جرع : جرع الماء يجرع ، وقيل جرع وتجرعه اذا تكلف جرعه ، قال عز وجل : « يتجرعه ولا يكاد يسيغه » .

وكأن احتياج كظم الغيظ الى الجهد والمشقة والمقاومة ، هو بعض السر في أن الله تبارك وتعالى قد جعل هذه الفضيلة من أخلاق اهل التقوى ، كما جاء في التنزيل المجيد : « أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ » .

ولعل هذا هو السبب في أن السيدة عائشة رضي الله عنها كظمت غيظها ، حينما غاظها بعض من يخدمها ، وقالت : « لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء » .



والغضب هو العامل المفسد لكظم الغيظ . فمن استجاب لداعي الغضب لم يستطع ان يكظم غيظه ، ولذلك يروى أن رجلا رحل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : علّمني شيئا ، ولا تكثر علي لعلي أعيه . فقال له : لا تغضب ، فكرر الرجل قوله مرارا ، وفي كل مرة يقول له النبي : لا تغضب .

وفي بعض الروايات أن هذا الرجل يسمى « جارية بن قدامة »

وانه قال للنبي : أوصني ولا تكثر عليَّ في الوصية لعلي أحفظها . فقال : لا تغضب . فأعاد الرجل السؤال فأعاد النبي الجواب .

وقد كرم الرسول صلوات الله وسلامه عليه أولئك الذين ينأون بأنفسهم عن الاستجابة للغضب الطائش الجامح . فقال : أشدكم من ملك نفسه عند الغضب ، وأحلمكم من عفا عند القدرة . وقال : « من كفَّ غضبه ستر الله عورته » . وقال : « من ملك غضبه وقاه الله عذابه » .

والعلماء يقولون ان الغضب هو فوران دم القلب لارادة الانتقام . وهذا شيء كأن الانسان مجبول عليه ، ولا يستطيع التخلص منه بالكلية . ولكن المأمول من الرجل صاحب الاخلاق الفاضلة أن يتجنب أولا أسباب الغضب ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وأن لا يطيع الشيطان فيما يوسوس له من الاستجابة لداعي الغضب ، فلا يتهور ولا يتجبر ولا يندفع . وهذا خُلق من أخلاق الأنبياء ، لأن الحلم شيمة من شيمهم الأساسية ، والحليم لا يرتضي لنفسه التهور أو الاندفاع عند ثوران الغضب ، ولقد قال الله تعالى عن نبيه يحيى : « وسيدا وحصورا » (١) . وقال عكرمة في تفسير الحصور هنا : « انه السيد الذي لا يغلبه الغضب » .

هذا وان كان المشهور عند جمهور المفسرين أن الحصور هو الذي لا يأتي النساء من العفة والاجتهاد في ازالة الشهوة . ولقد كان سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يعطي المثل الأعلى في كظم الغيظ ومقاومة الغضب . وكان يتحمل من أذى قومه ما يتحمل وهو كاظم غيظه ضابط نفسه ، ويقول في تواضع نبيل : « أوذي موسى بأكثر من ذلك فصبر » .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٣٩ .

ومن وراء سيدنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه نجد أفرادا عرف الناس لهم كظم الغيظ ومقاومة الغضب وتحمل الأذى ، ومن هؤلاء : الأحنف بن قيس الذي كان يقول : « من لم يصبر على كلمة سمع كلمات ، ورُبَّ غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه » .

ولقد كتب الامام علي رضي الله عنه الى الحارث الهمذاني فقال له فيما قال ، وهو يوصيه بمكارم الخصال ومحامد الفعال : « واكظم الغيظ ، وتجاوز عند المقدرة واحلم عند الغضب ، واصفح مع الدولة (أي السلطة والقدرة) تكن لك العاقبة » .

وهذا النص يدلنا على أن كظم الغيظ انما يجمل ويحسن اذا كان من الأعلى بالنسبة الى الأدنى ، ومن القادر بالنسبة الى العاجز ، ومن القوي بالنسبة الى الضعيف ، ومن الحاكم بالنسبة الى المحكوم ، ومن الرئيس بالنسبة الى المرؤوس ، وهكذا .

ولذلك كان أحق الناس بالاتصاف بفضيلة كظم الغيظ : الحكام والرؤساء والقادة ، والمعلمون والكبار ومن على شاكلتهم ، وفي هذا المجال تتذكر ما روي ان مملوكا لموسى بن جعفر رضي الله عنه قدّم اليه صحفة فيها طعام حار ، فتعجل في تقديمه ، فوقع الطعام على موسى ، فغضب ، فقال له الغلام : والكاظمين الغيظ . فقال موسى : قد كظمتُ غيظي . فقال الغلام : والعافين عن الناس . فقال موسى : قد عفوت عنك . فقال الغلام : والله يحب المحسنين . فقال موسى : اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى .



ولقد تحدث حجة الاسلام الغزالي عن آثار الغضب عند العجز عن كظم الغيظ فقال : « ومن آثار هذا الغضب في الظاهر . تغير اللون،

وشدة الرعدة في الأطراف ، وخروج الأفعـال عن الترتيب والنظـام ، واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهـر الزبد على الاشداق ، وتحمر الأحداق ، وتنقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة .

ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته ، لسكّن غضبه حياء من قبح صورته ، واستحالة خلقته ، وقبح باطنه أعظم مـن قبح ظاهره ، فان الظاهر عنوان الباطن ، وانما قبحت صورة الباطن اولا ، ثم انتشر قبحها الى الظاهر ثانيا ، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن ، فقس الثمرة بالمثمرة ، فهذا أثره في الجسد .

وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكـلام الذي يستحي منه ذو العقل ، ويستحي منه قائله عنـد فتور الغضب ، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ .

وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة . فان هرب منه المغضوب عليه ، أو فاته بسبب، وعجز عن التشفي ، رجع الغضب على صاحبه ، فمزق ثوب نفسه، ولطم نفسه . وقد يضرب بيده على الأرض ، ويعـدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحير ، وربما يسقط صريعا ، لا يطيـق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب ، ويعتريه مثـل الغشية ، وربما يضرب الجمادات والحيوانات . فيضرب القصعة مثلا على الأرض ، وقد يكسر المائدة اذا غضب عليها . ويتعاطى أفعـال المجانين ، فيشتم البهيمـة والجمادات ويخاطبها » أ هـ .



وقد أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى وسائل نتقي بها عواقب الغضب السيئة ، وتؤدي [illegible] الى التحلي بحلمه ككظم [illegible] .

والوسيلة الأولى تتمثل في قول الرسول : « اذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فان ذهب عنه الغضب فليضطجع » •

والوسيلة الثانية تتمثل في قوله : « ان الغضب من الشيطان » ، أي من أثر وسوسته ، وان الشيطان خُلق من النار ، وانما تطفأ النار بالماء ، فاذا غضب فليتوضأ » •

والوسيلة الثالثة تتمثل في الحديث الذي يقول ان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه رأى رجلا غاضبا ثائرا ، فقال : « اني لاعرف كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » •

وينبغي ان تتذكر ان الغضب قد يكون محمودا في بعض الاحيان، وقد اشار الغزالي الى هذا حين قال : « وانما المحمود غضب ينتظر اشارة العقل والدين ، فينبعث حيث تجب الحميَّة ، وينطفىء حيث يحسن العلم ، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده، وهو الوسط الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : (خير الامور اوساطها) •

فمن مال غضبه الى الفتور ، حتى احسَّ من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله ، فينبغي ان يعالج نفسه حتى يقوى غضبه ، ومن مال غضبه الى الافراط حتى جرَّه الى التهور واقتحام الفواحش ، فينبغي ان يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ، ويقف على الوسط الحق بين الطرفين فهو الصراط المستقيم » •

نسأل الله تبارك وتعالى ان يجعلنا بخُلق الاستقامة على سواء السبيل •

الفُتـُوة

كلمة « الفتوة » في الأصل تفيد معنى الشبابُ والحداثة . والشاب الحديث السن يسمى « فتى » • ولكن كلمة « الفتوة » كسبت في الاستعمال معاني أخلاقية كثيرة . فجاء في القاموس أن الفتوة هي الكرم . وأن الفتى هو السخي الكريم . وجاء في « أساس البلاغة » أن الفتوة هي الحرية والكرم ، كما جاء في المعاجم غير هذه المعاني ، ونستطيع أن نقول ان كلمة « الفتوة » توحي في مدلولها العام بمعنى القوة الحسية والقوة النفسية •

وقد توسع بعض علماء الأخلاق في الاسلام ، في تصور المراد من فضيلة « الفتوة » . فذكروا أنها هي التي يعبَّر عنها بكلمة « مكارم الأخلاق » . وجمعوا بينها وبين الحديث الشريف القائل : « ان الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق ، ومحاسن الافعال » • ولعل هذا هو السر في أن الأخلاقيين قالوا في تعريف الفتوة انها استعمال الأخلاق الكريمة مع الناس . وكف الأذى عنهم . واحتمال الأذى منهم . وقال الفضيل بن عياض : ان الفتوة هي الصفح عن عثرات الاخوان . وقال الحارث المحاسبي : ان الفتوة أن تنصف غيرك . ولا تنتصف من غيرك . وقال الجنيد : الفتوة كف الأذى وبذل الندى ، وقال الهروي : نكتة الفتوة ألا تشهد لك فضلا . ولا ترى لك حقا . الى غير ذلك من التعريفات التي جالت بكلمة « الفتوة » في معان كثيرة من رياض المكارم والفضائل.

حيث ابانوا ان الفتوة تدعو الى نبل التصرف ، والترفع عن الصغائر ، والتصون من الدنايا ، والسماحة في المعاملة ، والتنزه عما يستحي منه الكريم ، حتى قال ابو حفص النيسابوري : « من يرى الفتيان ولا يستحي منهم في شمائله وأفعاله فهو فتى » • ولا يراد بعدم الاستحياء هنا الجرأة او الوقاحة او قلة المبالاة بالذنب • وانما يراد به ان الانسان لا يرتكب أي شيء معيب يستحيي منه، وعلى هذا الوجه فسر بعض العلماء حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام : « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » •

كما ان عدم الاستحياء ههنا لا يعني ضعفا او هوانا ، لان من اعلام الاخلاقيين من اخبرنا بشعره ان الفتوة ثبات واطمئنان ، وقوة عزيمة ، فقال :

ان الفتوة ما ينفك صاحبها
مقدما عند رب الناس والناس
ان الفتى من له الايثار تحلية
فحيث كان فمحمول على الراس
ما ان تزلزله الاهواء بقوتها
لكونه ثابتا كالراسخ الراسي
لا حزن يحكمه ، لا خوف يشغله
عن المكارم حال الحرب والباس



واذا كان العلماء قد فرقوا بين « الفتوة » و « المروءة » بان المروءة أعم من الفتوة ، وان الفتوة نوع خاص من المروءة تعد مروءة ، ولا تعد كل مروءة فتوة . فان صاحب فضيلة الفتوة لا يصدق في تحليه بها الا

اذا عبر اليها ميدان المروءة الواسع ، وهذا هو ابن القيم يقرر ان المروءة هي استعمال كل خلق حسن ، واجتناب كل خلق قبيح ، وحقيقتها تجنب الرذائل والدنايا من الاقوال والاخلاق والاعمال ، فمروءة اللسان حلاوته وطيبه ولينه واجتناء الثمار منه بسهولة ويسر ، ومروءة المال الاصابة ببذله في مواقعه المحمودة عقلا وعرفا وشرعا ، ومروءة الجاه أن يخدم به المحتاج اليه ، ومروءة الاحسان تعجيله وتيسيره .

واما مروءة الترك فترك الخصام والمماراة ، مع تغافل عن عثرات الناس، والتوقير للكبير ، وحفظ حرمة النظير ، ورعاية حق الصغير .

ويرى ابن القيم أيضا ان المروءة لها ثلاث درجات . فمروءة الانسان مع نفسه ان يحملها على ما يزين ، ويفصلها عما يشين ، في سره وجهره، ومروءته مع الناس ان يحسن معاملتهم ، ويتجنب معهم ما لا يحب ان يعاملوه به ، ومروءته مع الله تعالى ان يستحيي من نظره اليه ومراقبته له. وفي ضوء هذا البيان يسهل علينا ان نعرف لماذا يقرر أهل التصوف أن الفتوة نتيجة وثمرة لحسن الخلق .



وهناك طائفة من الصوفية يتجه أهلها بالفتوة الى معنى محاربة النفس ومخاصمتها . في سبيل ارضاء الله عز وجل . ولعل هذا هو معنى قول محمد بن علي الترمذي : « الفتوة ان تكون خصما لربك على نفسك » . حتى عبر بعضهم عن هذه النفس الامارة بالسوء بكلمة « الصنم » . فقال ان الفتوة هي أن تكسر الصنم الذي بينك وبين ربك. وهو نفسك . ويذكر هذا البعض ان ابراهيم عليه السلام كان خليل الرحمن حين كسر الاصنام وجعلها جذاذا كما يقص القرآن الكريم . وكأن

هذا هو ما عناه بعضهم حين قال : ان الفتوة فضيلة تأتيها ، ولا تـرى نفسك فيها •



ولقد ذكر القرآن الكريم مادة الفتوة في جملة مواطن • ولعل أقرب هذه المواطن الى خلق «الفتوة» هو ما ذكره الله تبارك وتعالى فـي سورة الكهف عن أهل الكهف ، حيث قال سبحانه : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض ، لن ندعو من دونه الها، لقد قلنا اذا شططا » (١) •

وفي هذه الكلمات الالهية ذكر القرآن المجيد لهذهالمجموعة الكريمة طائفة من الصفات ، فهم جماعة من الشبان آمنوا بالله عز وجل ، وقرنوا هذا الايمان بالعمل المتواصل ، فزادهم الله هداية وتوفيقا ، وثبتـت قلوبهم على الحق ، فكأنها مربوطة به ، لا تفارقه ولا تخالفه ، وهم قد قاموا بالدعوة الى الصراط المستقيم ، عن طريق جهرهم بكلمة التوحيد وعقيدة الالوهية لرب السموات والارض ، مع عدم الاشراك به •

وقد أخبر القرآن الكريم قبل هذه الكلمـات الالهية بأن هـذه المجموعة قد هاجرت في سبيل عقيدتها ودينها ، وضحت بالمقام في دارها وبين أهلها ، وآثروا الحق على الباطل ، ورجوا من الله الرشاد والهداية،

---

(١) سورة الكهف ، الآيتان ١٣ و ١٤ •

فقال : « اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا » (١) •



وقد يقال ان حديث القرآن المجيد عن مادة الفتوة لا يظهر فيه التصريح بمعنى المدح ، الا في سورة الكهف ، في الآيات السابقة ، ولكن هذا لا يمنع القول بأن المواطن التي جاء فيها ذكر مادة «الفتوة» في القرآن الكريم ، توحي بطريق الرمز أو الاشارة بأن الفتوة القويمة من شأنها ان تكون محمودة ، وفوق هذا لم يذكر القرآن مادة الفتوة في أي موطن يعيب • لقد جاء ذكر ابراهيم موصوفا بأنه فتى في قوله تعالى : « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم » (٢) • وابراهيم هو أبو الانبياء ، وخليل الرحمن عليه السلام •

وجاء في القرآن الكريم الترغيب في زواج الفتيات الموصوفات بأنهن مؤمنات ، فقال : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » (٣) • والزواج سنة الاسلام ، والايمان عماد الدين •

وجاء في القرآن وصف يوشع بن نون تلميذ موسى أو خادمه بأنه فتى ، وذلك في قوله تعالى : « واذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا » ، وطلب العلم على يد الرسول شرف، وكذلك العمل في خدمة الرسول شرف •

---

(١) سورة الكهف ، الآية ١٠ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٦٠ .
(٣) سورة النساء ، الآية ٢٥ .

وجاء في القرآن ذكر النساء اللواتي يردن التحصن بأنهن «فتيات»، في قوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم » (١) • والتحصن ضد الرذيلة من مكارم الاخلاق وفضائل الخصال •



هذا ويقول علماء الاخلاق ان كمال الفتوة لا يكون الا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، واستدلوا على ذلك بأن كل انسان يقول يوم القيامة : نفسي نفسي ، ولكن النبي وحده صلوات الله وسلامه عليه يقول : « أمتي ، أمتي » •

ولم ير هؤلاء بأسا في أن يطلق على خاتم النبيين لقب « سيد الفتيان » بعد ان استأنسوا لذلك بأن ابراهيم قد ورد وصفه في القرآن الكريم بلقب « فتى » •

ومن أروع الوصايا التي يؤدي التزامها الى التحلي بفضيلة «الفتوة» ما جاء منسوبا الى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وفيه قوله : « أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها : اوصاني بالاخلاص في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وان أعطي من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأعفو عمن ظلمني ، وان يكون نطقي ذكرا ، وصمتي فكرا ، ونظري عبرا » •

والكثير من أعلام الصوفية قد وصفتهم سيرهم بأنهم من أهل

---

(١) سورة النور ، الآية ٣٣ •

الفتوة ، وكثير منهم قد تحدثوا عن معاني الفتوة ومقوماتها ؛ وممن أكثروا الكلام في هذا الباب هؤلاء الاعلام : جعفر بن محمد ، والفضيل ابن عياض ، واحمد بن حنبل ، وسهل بن عبدالله التستري ، والجنيد ، وحاتم الاصم ، وغيرهم .

وخير الفتيان هو من يفقه الفتوة ، فيحسن تصويرها والتعبير عنها، ثم يحسن التزامها والعمل بما يوائمها ، فهذا هو الامام جعفر بن محمد الصادق ، يسأله سائل عن الفتوة ، فيقول للسائل : ما تقول أنت ؟. قال : ان اعطيت شكرت وان منعت صبرت ، فقال الامام : الكلاب عندنا كذلك ، فقال السائل ، يا بن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما الفتوة عندكم ؟

قال : ان أعطينا آثرنا ، وان منعنا شكرنا .

وكذلك أقبل « عنوان البصري » على الامام جعفر الصادق ، وسأله مرة بعد مرة أن يوصيه فأوصاه بوصية تتضمن المثل الاعلى لاهل الفتوة، قال : « أوصيك بتسعة اشياء ، فانها وصيتي لمن يريد الطريق الى الله تعالى ، والله أسأل ان يوفقك : ثلاثة في رياضة النفس ، وثلاثة في الحلم، وثلاثة في العلم ، فأما اللواتي في الرياضة فاياك ان تأكل ما لا تشتهيه ، فانه يورث الحماقة والبله ، ولا تأكل الا عند الجوع ، واذا أكلت فكل حلالا ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه ، فان كان ولا بد فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

وأما اللواتي هن في الحلم ، فمن قال لك : ان قلت واحدة سمعت عشرا ، فقل له : ان قلت عشرا لم تسمع واحدة ، ومن شتمك فقل : ان كنت صادقا فاسأل الله أن يغفر لي ، وان كنت كاذبا فاسأل الله أن يغفر لك ، ومن توعدك فعده بالنصيحة والدعاء .

واما اللواتي في العلم ، فاسأل العلماء ما جهلت، واياك ان تسألهم تعنتا وتجربة ، واياك ان تعمل برأيك ، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد اليه سبيلا ، واهرب من الفتيا هربك من الاسد ، ولا تجعل رقبتك في الناس جسرا » •

وكذلك قال الامام : « الفتى المؤمن اذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق ، واذا رضي لم يدخله رضاه في باطل » •

ولم يكتف الامام بالقول عن الفتوة وآدابها ، بل ضرب أمثلة في الفتوة تعز على طلاب المكارم ، فقد روى التاريخ أن رجلا كان على سفر، وكان معه ألف دينار ، فأدركه النوم فنام ، فلما استيقظ لم يجد النقود معه ، ففزع ، ورأى على مقربة منه جعفر رضي الله عنه ، فتعلق به واتهمه بسرقة النقود، فأخذه الامام الى داره ، وأعطاه الف دينار ، وبعد حين وجد الرجل نقوده ، فذهب الى جعفر معتذرا ، وقدم اليه ماله ، فرفض جعفر ان يأخذ المال وقال : « شيء أخرجته من يدي لا أسترده ابدا » ، وقد نوه بهذا الموقف الامام ابن القيم واثنى عليه •



الحذر

أصل مادة « الحذر » يدل على التيقظ والتحرز والانتباه ، والرجل الحذور هو المتيقظ المتحرز ، وحذرون أي خائفون ، ولذلك قيل ان الحذر احتراز عن مخيف ، والانسان الذي يتحلى بفضيلة الحذر يكون صاحب خشية ، فهو يقدر لرجله قبل الخطو موضعها ، وهو لا يتكلم الا عن تفكير وبصيرة ، ولا يتصرف الا عن تدبر وحكمة ، وهو يحسب لكل أمر حسابه ، ويعد لكل نازلة عدتها ، فلا يؤخذ على غرة ، ولا يخدعه غيره بسهولة ، لان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « المؤمن كيس فطن » • ويقول : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ، وهو يحذر أن يقف موقف المؤاخذة أو المعاقبة او المحاسبة ، ولذلك لا يرتكب ما يعتذر عنه ، ولا يقترب مما يعيبه أو يؤخذ عليه ، وهو يحصن نفسه وحسه وعقله وقلبه ، بما يجعله بعيدا عن الخطأ والخطر والعقاب •

ولقد تحدث كتاب الله المجيد عن فضيلة الحذر في جملة مواضع ، واذا كان للحذر ألوان وأنواع، فان الحذر من عقاب الله ومؤاخذته أولى ألوان الحذر باهتمام المؤمن وعنايته ، والله جل جلاله يقول في سورة البقرة : « واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حليم » (١) • أي أن الله تعالى يعلم ما في انفسكم من العزم

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٣٥ •

على ما لا يجوز فعله ، فاحذروا حسابه وعقابه ، ولا تعزموا على ارتكاب ما لا يليق فتتقدموا في الخطأ ، واعلموا ان الله غفور لمن عزم ثم أحجم فلم يفعل خشية وخوفا من الله تعالى ، وهو سبحانه حليم لا يعـاجل بالعقوبة •

وعاد القرآن الكريم الى الحديث عن الحذر والدعوة اليه ، فقال في سورة آل عمران : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء مـن دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء الا أن تتقوا منهم تقاة، ويحذركم الله نفسه ، والى الله المصير » (١) • أي لا تتعرضوا لسخط الله بمخالفة أحكامه ، أو موالاة اعدائه ، وهذا تهديد ــ كما يقول المفسر البيضاوي ــ مشعر بتناهي المنهي عنه في القبح ، وقد ذكر « النفس » للاشعار بأن المحذر منه عقاب يصدر منه تعالى ، فلا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة • ويقول « تفسير المنار » في ايضاح ذلك : « ويحذركم الله نفسه ، فانه من ورائكم محيط ، وسنته ــ في تأثير الاعمال في النفوس، وجعل آثار أعمالها مصدرا لجزائها ــ حاكمة عليكم ، أفلا يجب عليكم ــ والامر كذلك ــ أن تحذروه بما أوتيتم من القدرة على الخير ، والميل اليه ، بترجيحه على ما يعرض على الفطرة من تزيين عمل السوء ، والتوبة اليه سبحانه مما غلبتم عليه في الماضي » ؟!•

واذا كان القرآن المجيد في الآية الماضية قد أورد ذكـر الحذر بمناسبة النهي عن موالاة المؤمنين للكافرين ، فانه قد عاد بعد ذلك بقليل يدعو الى الحذر من ارتكاب السيئات ، ويخوف من عقاب الله تعالى ، فيقول في سورة آل عمران ايضا : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢٨ .

الله نفسه والله رؤوف بالعباد » (١) • وانما ذكرت الآية رأفة الله بعباده للاشارة الى أنه تعالى انما نهاهم وحذرهم رأفة بهم ، ومراعاة لصلاحهم، أو انه لذو مغفرة وذو عقاب ، فترجى رحمته ويخشى عذابه ، واذا كان الانسان بطبيعته يرجو الخير والرحمة ، ويطمع في الفضل والثواب ، فان واجبه الديني يقتضيه ألا يغره الرجاء ، أو يخدعه الطمع عن التحلي بالحذر والخوف من عقاب الله ، لان القرآن يقول في سورة الاسراء : « ان عذاب ربك كان محذورا (٢) » • أي حقيقا بأن يحذره كل أحد حتى الرسل والملائكة كما قال أهل التفسير •

ويؤكد القرآن الحكيم الامر بالحذر والدعوة اليه ، فيقول في سورة المائدة : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين (٣) » ونفهم من هذا النص الكريم ان الحذر يقتضي الطاعة • وأن الطاعة تعود صاحبها الحذر والبعد عن المخالفة ، فيحذر المطيع ان يصيب شيئا مما نهى عنه الله أو نهى عنه الرسول ، لان طاعة الرسول من طاعة الله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله (٤) » كما نفهم ايضا أن انعدام روح الحذر في نفس الانسان يؤدي به الى الاعراض عن سبيل الله ، والتولي بعيدا عن صراطه المستقيم ، ويا سوء من استخف بأمر ربه ، وأعرض عن طاعته ، فان له عذاب الجحيم وبئس المصير •

ويقول التنزيل المجيد في سورة النور : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم (٥) » أي يخالفون أمره

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٣٠ .
(٢) سورة الاسراء ، الآية ٥٧ .
(٣) سورة المائدة ، الآية ٩٢ .
(٤) سورة النساء ، الآية ٨٠ .
(٥) سورة النور ، الآية ٦٣ .

بترك مقتضاه ، ويسلكون طريقا غير طريقه ، أو يتبعون نهجا غير منهاجه ، وكأن كلمة «يخالفون» فيها معنى كلمة «يعرضون» ولذلك قال : « يخالفون عن أمره » أي يعرضون عن أمره •

ولو أنهم أصروا على مخالفتهم ، واستمروا في غيهم ، فان الله تعالى يصيبهم بفتنة ، أي محنة في الدنيا ، أو يصيبهم عذاب اليم في الدار الآخرة •

ويقول القرآن الكريم في سورة الزمر : « أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الالباب (١) » • وكأن الآية تشير — والله أعلم بمراده — الى أن فضيلة الحذر اذا تأصلت في نفس صاحبها جعلته حريصا على طاعة ربه والتعبد له ، وتوجيه الدعاء والرجاء اليه في أوقات الليل المختلفة ، وهو يحق له بعد ذلك ان يتطلع الى فضل الله ونعمته ، لأنه يؤمن بالله على علم ، ويعبده بفهم وحذر ، وهذه عبرة ينتفع بها أصحاب العقول والقلوب •



ونستطيع أن نفهم عن القرآن المجيد أن فضيلة الحذر تكون ثمرة للتفقه في الدين والتأثر بالانذار ، ولذلك يقول الله تعالى في سورة التوبة : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » (٢) •

وبعد أن يستوفي كتاب الله خطر الحديث عن حذر المؤمن من عقاب

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٩ •
(٢) سورة التوبة ، الآية ١٢٢ •

ربه ، ينتقل الى الامر بالحذر من طوائف من الناس ، فالله تعالى يحذر نبيه صلى الله عليه وسلم ان يفتنه أهل الكتاب ، أو يتبع شيئا من أهوائهم ، لأن النبي هو المثل الاعلى في الخضوع لامر الله ، والبعد عن مخالفته في قليل أو كثير ، فيقول القرآن في سورة المائدة : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون » (١) .

ويأمر الله تعالى نبيه أن يحذر أولئك المنافقين الخادعين المضللين المتظاهرين بالاسلام المبطنين للكفران ، فيقول عنهم في سورة المنافقون : « واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وان يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون (٢) » . وما أجدر رسول الله عليه الصلاة والسلام — ومن ورائه كل مسلم — أن يحذر هؤلاء المنافقين المخادعين الذين تقول عنهم السورة الكريمة : « اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، انهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » (٣) .



ثم ينتقل القرآن المجيد من تحذير الرسول الى دعوة المؤمنين جميعا الى الحذر والخوف من العدو غير الظاهر ، أو ممن يظنهم الانسان سندا له وعونا ، فاذا هم أحيانا يكونون سببا في خساره أو بواره ، فيقول

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٩ .
(٢) سورة المنافقون ، الآية ٤ .
(٣) سورة المنافقون ، الآيتان ١ و ٢ .

القرآن في سورة التغابن : « يا أيها الذين آمنوا ان مـــن أزواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم » (١) فهم عدو يشغلكم عن طاعة الله تعالى ، أو يخاصمكم في امر الدين والدنيا ، والعدو هنا ليس عدوا لذاته، لان الاصل في الزوجة والاولاد أن يكونوا محبين محبوبين بالنسبة الى الزوج والاب ، وانما هم عدو يشغلكم عن طاعة ربكم ، فاذا فعل الزوج أو الولد فعل العدو كان عدوا ، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد والطـــاعة .

ولقد روى أهل التفسير ان هذه الآية الكريمة نزلت في عوف بن مالك الاشجعي ، كان ذا أهل وولد ، وكان اذا أراد الغزو بكوا اليه ورققوه وقالوا : الى من تدعنا ؟ فيرق لهم فيقيم معهم ويترك الغزو ، فنزلت الآية لتكون عظة وعبرة .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان الشيطان قعد لابن آدم في طريق الايمان ، فقال له : أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك ؟ فخالفه فآمن ، ثم قعد له على طريق الهجرة ، فقال له : أتهاجر وتترك مالك وأهلك ، فخالفه فهاجر . ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له : أتجاهد فتقتل نفسك ، فتنكح نساؤك ، ويقسم مالك ؟ فخالفه فجاهد ، فقتل فحق على الله ان يدخله الجنة .

وقعود الشيطان يكون بوجهين : أحدهمـــا يكـــون بالوسوسة ، والثاني بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب ، ولذلك قال الله تعالى في سورة فصلت : « وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم مـــن الجن والانس انهم كانوا خاسرين (٢) » .

---

(١) سورة التغابن ، الآية ١٤ .
(٢) سورة فصلت ، الآية ٢٥ .

فاللبيب اذن هو من حاذر وخاف ، ولم يستسلم لأحد ، ولو كان من اولاده أو أقاربه ، فانهم قد يزينون له الاثم ، أو يحملونه بفتنتهم على ارتكاب المحظور أو كسب الحرام ، ولذلك قال مجاهد في الآية السابقة : « ما عادوهم في الدنيا ، ولكن حملتهم مودتهم على أن أخذوا لهم الحرام فأعطوه اياهم » . والآية عامة في كل معصية يرتكبها الانسان بسبب الاهل والولد ، وخصوص سبب النزول لا يمنع عموم الحكم .



ويتحدث كتاب الله تعالى عن الحذر من العدو الباغي الطاغي ، فيقول جل جلاله في سورة النساء : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا (١) » . و «ثبات» معناها جماعات متفرقة، ومفردها «ثبة» . والمعنى : استعدوا للاعداء بالحذر والانتباه واليقظة ، والا عصفوا بكم على حين غرة منكم : « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » . وفي « مفردات القرآن » أي معنى « خذوا حذركم » هو : خذوا ما فيه الحذر من السلاح وغيره ، أي استعدوا واعدوا ما يكون سببا لتحقيق فائدة الحذر، وهو كل أنواع القوة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة (٢) » .

وهذه الآية الكريمة خطاب من الله تعالى للمؤمنين المخلصين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمر لهم بجهاد الكفر ، والخروج في سبيل الله ، وقد أمرهم ربهم الا يقتحموا على عدوهم على جهالة ، بل يجب أن يتحسسوا ما عند الاعداء ، ويعلموا كيف يواجهونهم ويردون على اعتدائهم ، فذلك أثبت لهم ، وهذا لا ينافي التوكل على الله ، بل

---

(١) سورة النساء ، الآية ٧١ .
(٢) سورة الانفال ، الآية ٦٠ .

هو مقام عين التوكل ـ كما يذكر القرطبي ـ والحديث النبوي يقول : « اعقلها وتوكل » •

فكونوا يا أهل الايمان متيقظين دائما ، وضعتم السلاح أم لـم تضعوه ، ولا شك ان هذا يدل على تأكيـد الوصية بالحذر والتأهب للعدو في كل الاحوال ، وترك الاستسلام والاغترار ، فان الجيش ما جاءه مصاب قط الا من تفريط في حذر •

ولقد عاد القرآن الكريم يقول في سورة النساء أيضا وهو يتحدث عن المصلين صلاة الحرب : « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم (١) » ، فجعل الحذر سلاحا وآلة يتحصن بها الغازي ، ولذلك عطف الاسلحة على الحذر ، فقال : « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » ، وهذا الحذر مطلوب حتى في الصلاة ، لان الاعداء يتمنون أن ينالوا منكم غفلة فيشدون عليكم شدة واحدة : « ود الذين كفروا لـو تغفلون عـن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة (٢) » •

وهذه وصاة بالغة بالحذر وأخذ السلاح ، لئلا ينال العدو مأربه ويحقق مطلبه ، ولذلك جاء في كتب التفسير أن أكثر أهل العلم يستحبون للمصلي أن يأخذ سلاحه اذا صلى في الخوف • ولقد قال الحكماء : « لا تطمئن الى العدو وان أبدى لك المقاربة ، وان بسط لك وجهه ، وخفض لك جناحه ، فانه يتربص بك الدوائر ، ويضمر لك الغوائل ، ولا يرتجي صلاحا الا في فسادك ، ولا رفعة الا بسقوط جاهك »•

وقالوا أيضا : «احذر الموتور، ولا تطمئن اليه، وكن أشد ما تكون حذرا منه ألطف ما يكون مداخلة لك ، فانما السلامة من العدو بتباعدك

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٠٢ .
(٢) سورة النساء ، الآية ١٠٢ .

عنه ، وانقباضك منه ، وعند الانس اليه والثقة به تمكنه من مقاتلك » .
ورووا من كتب الهند : « الحازم يحذر عدوه على كل حال : يحذر المواثبة ان قرب ، والمغاورة ان بعد ، والكمين ان انكشف ، والاستطراد ان ولى، والكرة ان فر » .



هذا ولقد جاء ذكر الحذر في السنة المطهرة ، فروى أبو داود : « أحذركم زيغة الحكيم » أي ميله وجوره ، وكأن هذا من قبيل : لكل جواد كبوة ، وروى الترمذي : « ان الشيطان حساس لحاس فاحذروه على أنفسكم » . والحساس : شديد الحس والادراك والاستماع ، واللحاس : كثير اللحس لما يصل اليه . وروى ابن ماجه واحمد : « ان الله لم يبعث نبيا الا حذر أمته الدجال » والدجال في الاصل الكثير الخداع . وهذا يذكرنا بالحديث القائل : «يكون في آخر الزمان دجالون » أي كذابون مموهون ، وقد روى مسلم وأحمد : « ان بين يدي الساعة كذابين فاحذروهم » .

قد يقول قائل : وما جدوى الحذر وهناك حديث يقول : « لن ينفع حذر من قدر » ؟. وقد تعرض لهذه الشبهة « تفسير المنار » وذكر ما أورده الرازي من أحاديث فيها ، مثل : « المقدور كائن ، والهم فضل». ومثل : « الحذر لا يغني من القدر » . وذكر تعليق الرازي الذي يقول: « ان صح هذا الكلام بطل القول بالشرائع ، فانه يقال : اذا كان الانسان من أهل السعادة في قضاء الله وقدره ، فلا حاجة الى الايمان ، وان كان من أهل الشقاوة لم ينفعه الايمان والطاعة ، فهذا يفضي الى سقوط التكاليف بالكلية ، والتحقيق في الجواب أنه لما كان الكل بقدر ، كان الامر بالحذر أيضا داخلا في القول ، فكان قول القائل : (أي فائدة في

الحذر) كلاما متناقضا ، لانه لما كان الحذر مقدرا ، فأي فائدة في هذا السؤال الطاعن في الحذر » ؟.

ثم ذكر تفسير المنار أن المسلمين أمسوا أقل الناس حذرا من الاعداء ، حتى ان أكثر بلادهم ذهبت من أيديهم ، وهم لا يتوبون ولا يذكرون ، ولا يتدبرون أمر الله في هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » وما في معناها ولا يمتثلون ، ويحتجون بالقدر .

ثم قال صاحب المنار عن الحديث : « المقدور كائن ، والهم فضل » انه لا يذكر أنه رآه في كتب المحدثين بهذا اللفظ ، ولكن البيهقي روى مرفوعا : « لا تكثر همك ، ما قدر يكن ، وما ترزق يأتك » وهو حديث ضعيف ، وأما الحديث الآخر : « الحذر لا يغني من القدر » فقد رواه الحاكم عن عائشة بلفظ : « لا يغني حذر من قدر » وصححه . ثم قال صاحب المنار : « وما أراه يصح ، وتساهل الحاكم في التصحيح معروف، والرازي ليس من رجال الحديث ، ولكنه رأى بالعقل انه مخالف للآية ، أو مضعف من تأثير الامر فيها ، وكيف يقول الله : (خذوا حذركم) ، ويقول رسوله ان الحذر لا ينفع ، لأن العبرة بالقدر الذي لا يتغير ؟.

واني على استبعادي لصحة الحديث ، وميلي الى انه من وضع المفسدين الذين أفسدوا بأس الامة بأمثال هذه الاحاديث ــ أقول انه لا يناقض الآية ، فان الله أمرنا بالحذر لندفع عنا شر الاعداء ، ونحفظ حقيقتنا ، لا لندفع القدر ونبطله ، والقدر عبارة عن جريان الامور بنظام تأتي فيه الاسباب على قدر المسببات ، والحذر من جملة الاسباب ، فهو عمل بمقتضى القدر لا بما يضاده » .

والعرب لم يفتها الحديث عن الحذر والاشارة الى قيمته ، فكان من دعائهم قولهم : « وقاك الله كل مكروه محذور » . وضربوا الامثال في

الحذر ، فقالوا : فلان أحذر من غراب ، او فلان احذر من ذئب ، لانــه يبلغ من شدة حذره ان يراوح بين عينيه اذا نام ،فيجعل احداهما مطبقة نائمة ، والاخرى مفتوحة حارسة ، بخلاف الارنب الذي ينــام مفتوح العينين ، لا من حذر بل خلقة ، وقال حميد بن ثور في حذر الذئب :

ينام باحدى مقلتيه ، ويتقي بأخرى المنايا ، فهو يقظان هاجع

وقالوا : « أحذر من ظليم » ـــ والظليم الذكر من النعام ـــ لانه يشم ريح القانص من مسافة بعيدة ، فيأخذ حذره • وقالوا في حكمهم : «الحذر قبل ارسال السهم » • أي يجب ان يكون الحذر قبل فوات الاوان ، والا قيل : « سبق السيف العذل » •

نسأل الله جل جلاله ان يجعلنا من المستجيبين لقوله : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » انه ولي التوفيق •



الاعراض عن اللغو

لمادة « اللغو » معنيان أصليان : أحدهما يدل على الشيء الذي لا يعتد به ، والآخر على اللهج بالشيء واللجاج فيه ، واللغو من الكلام ما لا يعتد به ، وهو الذي يورده قائله من غير روية أو فكر ، فيجري مجرى اللغا ، وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور ، وقد يسمى كل قبيح من الكلام لغوا • ويقال : لغا الانسان يلغو ويلغى ، اذا تكلم بالمطروح من القول وما لا يعني ، ولغى الانسان بكذا : أي لهج به كلهج العصفور بلغاه ، أي بصوته ، وسميت اللغة لغة ، لانها الكلام الذي يلهج به أهلوه ، أي يرددونه •

والالغاء هو الابطال ، وقد تستعمل كلمة « لاغية » بمعنى ملغاة ، ومن ذلك الحديث القائل : « والحمولة المائرة لهم لاغية » أي ملغاة لا تعد عليهم ، ولا تلزمهم لها صدقة ، والمائرة هي الابل التي تحمل الميرة •

والاعراض عن اللغو هو تركه وعدم اتيانه ، والابتعاد عمن يأتونه ، وعدم الاقبال عليهم ، لان اللغو من صفات أهل الباطل والضلال ، ولقد جاء في سورة «فصلت» قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون (١) » : أي لا تسمعوه وعارضوه باللغو ، وهو الكلام الخالي عن الفائدة ، وكان الكفار يوصي بعضهم

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٢٦ .

بعضا فيقولون : اذا سمعتم القرآن من محمد وأصحابه فارفعوا أصواتكم بكلامكم حتى تلبسوا عليهم قولهم . وقيل : ان المعنى الغوا فيه بالصفير والتخليط من القول عليهم اذا قرأوا :

والاعراض عن اللغو فضيلة من فضائل القرآن الكريم ، طالب الله بها عباده المؤمنين ، فقال في طليعة سورة المؤمنون : « قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون (١) » . وقد ذكر المفسرون أن المراد باللغو هنا هو الشرك ، أو الباطل ، أو أو المعاصي ، أو الكذب ، أو السب ، والشتم ، والانسب أن يقال ان الجد فيما أمرهم الله به يشغلهم عن اللغو ، وهو كل لعب ولهو وباطل . يقول جار الله الزمخشري عند هذه الآية : « اللغو ما لا يعنيك من قول أو فعل ، كاللعب والهزل ، وما توجب المروءة القاءه واطراحه . يعني أن بهم من الجد ما يشغلهم عن الهزل ، ولما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالاعراض عن اللغو ، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الانفس ، اللذين هما قاعدتا بناء التكليف » .

وحينما يتحدث القرآن الكريم عن عباد الرحمن في موطن آخر يجعل الاعراض عن اللغو سمة بارزة من سماتهم ، فيقول في سورة الفرقان عنهم : « والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما (٢) » أي لم يلتفتوا اليه ، ولم يتوقفوا عنده ، ولم يشاركوا أهله فيه ، بل صانوا أنفسهم واكرموها عن أن يلحق بها شيء من غبار هذا الدنس ، ولذلك يقول الزمخشري هنا : « المعنى : واذا مروا بأهل اللغو المشتغلين به ، مروا معرضين عنهم ، مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم والخوض معهم ، كقوله تعالى : « واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه،

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيات ١ — ٣ .
(٢) سورة الفرقان ، الآية ٧٢ .

وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين (١) » .

واذا كان المفسرون قد ذهبوا في تفسير اللغو في الآيتين السابقتين مذاهب ، فقالوا انه المعاصي ، أو الباطل ، أو أسماء العورات ، أو الاذى، أو السب ، فان شيخ المفسرين ابن جرير الطبري يقول : « وأولى الاقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال : ان الله أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحهم بأنهم اذا مروا باللغو مروا كراما . واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل، لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يستقبح، فسب الانسان الانسان بالباطل الذي لا حقيقة له،من اللغو، وذكر النكاح بصريح اسمه مما يستقبح في بعض الاماكن ، فهو من اللغو ، وكذلك تعظيم المشركين آلهتهم من الباطل الذي لا حقيقة لما عظموه على نحو ما عظموه ، وسماع الغناء مما هو مستقبح في أهل الدين ، فكل ذلك يدخل في معنى اللغو، فلا وجه — اذا كان كل ذلك يلزمه اسم اللغو — أن يقال : عنى به بعض ذلك دون بعض ، اذ لم يكن لخصوص ذلك دلالة من خبر أو عقل » .

ولو تدبرنا لفهمنا ان اللغو يشمل كل باطل من قول او عمل ، كما يشمل كل ما لا يليق أن يتعلق به أو يحرص عليه المؤمن صاحب الهمة والعزيمة والجد ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا في الباطل » . ويقول : « من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

ولله در عطاء بن أبي رباح حين قال : « ان من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أمرا بمعروف ، أو نهيا عن منكر ، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها .

---

(١) سورة القصص ، الآية ٥٥ .

أتنكرون ان عليكم حافظين ، كراما كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ؟ أما يستحي أحدكم اذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره ، كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه » ؟.

ولقد حث الرسول الكريم ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ على الاعراض عن اللغو ، حتى فيما يحسبه الانسان قليلا خفيفا ، أو يظنه موصولا بخير ، كالكلام في أثناء خطبة الجمعة مهما كان قليلا ، ولو بنصيحة ، فقد جاء في الحديث : « من قال لصاحبه والامام يخطب : صه، فقد لغا » . وفي رواية : « اذا قلت لصاحبك والامام يخطب يوم الجمعة: أنصت ، فقد لغوت » . كما جاء في الحديث ايضا : « من مس الحصا فقد لغا » أي تكلم ، وقيل : أي عدل عن الصواب أو خاب ، والمقصود هنا هو مس الحصى عند خطبة الجمعة .

بل حذر الدين أيضا من اللغو حتى في الوقت ، فقد جاء في حديث سلمان رضي الله عنه : « اياكم وملغاة أول الليل » . والملغاة مفعلة من اللغو والباطل ، والمراد هنا السهر أول الليل فيما لا يفيد ، لانه يمنع من قيام الليل .



ولكي يشعرنا القرآن المجيد بعلو المكانة لفضيلة الاعراض عن اللغو ، حدثنا بأن من الوان النعيم الالهي في الجنة أنه لا لغو فيها . فقال في سورة مريم : « لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ، تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا (١) » .

---

(١) سورة مريم ، الآيتان ٦٢ و ٦٣ .

قال المفسرون ان اللغو هنا هو التخالف عند شرب الخمر ، أو ما يلغى من الكلام ويؤثم فيه ، لان اللغو في العربية هو الفاسد المطروح. وقال : « الا سلاما » والسلام ليس من اللغو ، فاستثنى السلام من غير جنسه ، وفي هذا توكيد للمعنى المقصود ، فكأنه قد قال : اذا لم يسمعوا من الكلام الا السلام ، فهم لن يسمعوا فيها لغوا ألبتة •

وكذلك قال القرآن المجيد في سورة الواقعة : « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ، الا قيلا سلاما سلاما » (١) • أي لا يسمعون فيها ما لا يعتد به من الكلام ، وهو الذي يورد لا عن روية وفكر ، ولا يسمعون نسبة الى الاثم ، أي لا يقال لهم : أثمتم ، ولكن يقول بعضهم لبعض : سلاما سلاما ، أي نسلم سلاما بعد سلام •

ويقول الله تبارك وتعالى في سورة الطور عن الجنة وأهلها : « يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم (٢) » • أي يتعاطون ويتبادلون أو يتجاذبون في الجنة كأسا تجاذب المداعبة لشدة سرورهم ، وهذه الكأس لا لغو مع شربها ، ولأنها ليست ككأس الدنيا ، فهم لا يتكلمون في اثناء الشرب بلغو الحديث ولا بسقط الكلام ، ولا يفعلون ما ينسب الى الاثم ، وانما يتكلمون بالحكمة وحسن الكلام ، ويفعلون ما يفعله الكرام • أي أن الكأس لا تذهب بعقولهم فيلغوا أو يرفثوا فيأثموا ، كما كان ذلك في خمر الدنيا •

وكذلك يقول القرآن المجيد في سورة النبأ عن الجنة وأصحابها : « لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا » (٣) أي لا يسمعون فيها كلاما قبيحا ولا تكذيبا • أو لا يسمعون فيها باطلا ، وذلك ان اهل الجنة ــ كما

---

(١) سورة الواقعة ، الآيتان ٢٥ و ٢٦ .
(٢) سورة الطور ، الآية ٢٣ .
(٣) سورة النبأ ، الآية ٣٥ .

حدثنا القرآن ــ اذا شربوا من خمر الجنة لم تتغير عقولهم ، ولم يتكلموا بلغو ، بخلاف أهل الدنيا ، ولا يكذب بعضهم بعضا ، ولا يسمعون كذبا .

وكذلك يقول في سورة الغاشية : « لا تسمع فيها لاغية (١) » أي لغوا ، فجعل اسم الفاعل وصفا للكلام ، واللاغية هنا يراد بها الكلام الساقط غير المرضي ، فلا يسمعون فيها كذبا ولا اثما ولا شتما ولا معصية ولا حلفا بيمين برة أو فاجرة ، لأن أهل الجنة لا يتكلمون الا بالحكمة ، وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم .

ويقول الامام محمد عبده في تفسير هذه الآية : « وانما عجل بهذا الوصف الشريف عقب ذكر الجنة قبل ذكر بقية أنواع النعيم ، لدفع ما يسبق الى الاذهان عند ذكر الجنة ونعيمها ، من أحوال أهل الترف والمولعين بالشهوات ، من تمضية الاوقات في اللهو ، والقول اللغو ، واطلاق الالسن عن قيد الادب ، فيجعلون من متممات النعيم قذائف الهجر والفحش .

فقد سارع الى تنزيه نعيم أهل الجنة عما هو من لوازم نعيم غيرهم في الدنيا ، وفي ذلك تنبيه للمؤمنين الى أنه لا يليق بهم أن يكونوا من أهل اللغو ، مهما فاض عليهم النعيم ، واتسعت لهم النعمة ، بل ذلك مما ينزهون عنه حتى اذا رفعت عنهم التكاليف ، ووصلوا الى فضاء الرحمة الذي لا سخط فيه ولا نقمة ، فنعيمهم ينبغي أن يكون نعيم أهل الفضل والجد ، لا نعيم أهل الجهل والحمق .

فاعتبر بهذه الحكمة، ثم انظر كيف قدم من الاوصاف للجنة وضروب نعيمها ما هو روحاني ، يليق بأرباب النفوس العالية ، والمقامات الرفيعة

---

(١) سورة الغاشية ، الآية ١١ .

في العرفان وكمال الوجدان ، فذكر الرضا بالسعي (١) ، ولذته فوق اللذائذ ، فانه لا لذة تفوق عند العامل لذة سروره بعمله ، ثم أتبعه بالتنزه عن اللغو وما لا فائدة فيه ، وهو أسمى ما يطلب الكامل أن يحيا به » .



وهناك لون من « اللغو » أخبرنا القرآن الكريم ان الانسان لا يؤاخذ عليه ، وان كان البعد عنه أولى ، وذلك هو لغو الأيمان ــ جمع يمين ــ واللغو هنا هو ما لا يعتد به من الأيمان ، وما لا عقد عليه ، وذلك هو ما يجري وصلا الكلام بضرب من العادة ، وقد ذكر القرآن الكريم هذا في سورة البقرة فقال : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم » (٢) .

قيل ان اليمين التي هي لغو هي قول الرجل في درج كلامه واستعجاله في المحاورة : لا والله ، وبلى والله ، دون قصد اليمين ، وغير معتقد لليمين ولا مريدها ، وعن عائشة رضي الله عنها أن أيمان اللغو هي ما كانت في المراء والجدل والمزاح والحديث الذي لا ينعقد عليه القلب . ولذلك يقول الشاعر :

ولست بمأخوذ بقول تقوله ... اذا لم تعمد عاقدات العزائم

وقيل : هو ما يحلف به على الظن فيكون بخلاف ظنه ، وليس فيه كفارة ، وروي ان قوما تراجعوا القول عند الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يرمون بحضرته ، فحلف أحدهم : لقد أصبت ، وأخطأت يا فلان فاذا الامر بخلاف ذلك ، فقال الرجل : حنث يا رسول الله . فقال

---

(١) يقصد قوله تعالى في السورة : « وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية » .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢٥ .

الرسول صلى الله عليه وسلم : « أيمان الرمـاة لغو ، لا حنث فيهـا ولا كفـارة » .

وقيل : اللغو هنا هو الأيمان التي يحلفها الانسان ساهيا أو ناسيا ، وقيل هي اليمين في المعصية أو الغضب ، وقيل : اللغو هو سقوط الاثم عن الحالف اذا كفر عن يمينه .

وجاء في سورة المائدة قوله تبارك وتعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان (١) . قيل : ان قوما حلفوا بأن يحرموا على أنفسهم الطيبات ، فنزل قوله تعالى : « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم (٢) » . فقالوا : ماذا نصنع بأيماننا ؟. فنزل قوله تعـالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم » أي اذا أتيتم باليمين ثم ألغيتموها — أي أسقطتم حكمهـا بالتكفير — فان الله لا يؤاخذكم بعد ذلك ، وانما يؤاخذكم بما أقمتم عليه فلم تلغوه بالتكفير عنه .

وقيل ان لغو اليمين هو تحريم الحلال ، كأن يقول : مالي علي حرام ان فعلت كذا . وقيل : هو دعاء الرجل على نفسه بالويل والخسران ونحوه ، وقيل : هو قول أحد المتبايعين : والله لا أبيعك بكذا ، وقول الآخر : والله لا أشتريه بكذا ...

ومهما يكن من الاقوال ، فان الاساس في لغو اليمين هو ما لم يتعمد الشخص أن يجعله يمينـا . ولا شك ان تجنب الأيمـان — مهما كانت الحال — أفضل وأجمل .

جنبني الله واياك اللغو في القول والعمل ، وجعلنا ممن قال فيهم : « والذين لا يشهدون الزور ، واذا مروا باللغو مروا كراما (٣) » .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٨٩ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٨٧ .
(٣) سورة الفرقان ، الآية ٧٢ .

التوسط

تدل مادة « الوسط » في لغة العرب علـى العدل ، والنصف ، وأوسط الشيء ووسطه أعدله ، ووسط الشيء ما له طرفان متساويان في القدر ، ويقال : فلان من أوسط قومه ، أي من خيارهم ، والرجل الوسيط هو الحسيب بين جماعته • والوسط يفيـد معنى البعد عن الافراط والتفريط ، والزيادة على المطلوب في الامر افراط ، والنقص عنه تفريط ، وكل من الافراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة، فهو شر ومذموم ، والخيار هو الوسط بين طرفي الامر ، اي المتوسط بينهما، ولذلك يقول القرطبي : « لما كان الوسط مجانبـا للغلو والتقصير كـان محمودا » • ولما كانت الوسطية تفيد معنى الخيرية والعدالة قال الشاعر زهير يمدح قوما :

هم وسط يرضى الانـام بحكمهـم
اذا نزلت احـدى الليـالي بمعظـم

وهناك كلمات تقرب في معناها من كلمة « الوسط » ، ومن هذه الكلمات : السواء ، والنصفة ، والعدل ••• .

وقد وردت مادة « وسط » في القرآن الكريم عدة مرات ، ولم تذكر الا في موطن المدح والتقدير ، ونفهم من حديث القرآن عن المادة أن التوسط فضيلة من فضائل الاسلام ، وخلق من أخـلاق القرآن ،

وانه الصفة الاساسية الجليلة التي ارادها الحق تبارك وتعالى للامة المؤمنة ، ولذلك يقول عز من قائل في سورة البقرة : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » (١) •

أي جعلناكم اخيارا عدولا ، وجعلناكم دون الانبياء وفوق الامم ، ما دمتم مهتدين بهدي الله ، عاملين بدينه ، وأحمد الاشياء أوسطها وأعدلها ، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم كلمة « وسطا » في الآية بكلمة « عدلا » • وقوله : « لتكونوا شهداء على الناس » اي تشهدوا في المحشر للانبياء على اممهم ان الانبياء بلغوا الرسالة ، وأدوا الامانة • وقوله : « ويكون الرسول عليكم شهيدا » اي يشهد لكم بانه بلغكم ، وأنكم أهل الايمان •

وقد ورد في هذا حديث رواه البخاري عن ابي سعيد الخدري جاء فيه : « يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب » • فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم • فيقال لامته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما اتانا من نذير • فيقول : من شهد لك ؟ فيقول : محمد وامته • فيشهدون انه قد بلغ • (ويكون الرسول عليكم شهيدا) فذلك قول الله عز وجل : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » •



وقد صوّر « تفسير المنار » كيف أقبلت الامة الاسلامية ، فجعلها الله تبارك وتعالى وسطا بدينها ، وعملها به ، وتمسكها بأخلاقه ، وحرصها على تعاليمه ، بعد ان سبقها صنفان من الناس ، احدهما

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٣ .

افرط ، والآخر فرّط ، وذلك ــ كما عبر التفسير بعبـارته الواسعـة المبسوطة ان الناس كانوا قبل ظهور الاسلام على قسمين : قسم تقضي عليه تقاليده بالمادية المحضة ، فلا هم له الا الحظوظ الجسدية، كاليهود والمشركين ، وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانيـة الخالصة ، وهجر الدنيـا ، وترك مـا فيها من اللذات الجسمية ، كالنصارى والصابئين وطوائف من الوثنيين في الهند اصحاب الرياضات .

واما الامة الاسلامية فقد جمع الله لها في دينها بين الحقين : حق الروح وحق البدن ، فهي امة مادية روحية ، فقـد اعطاها دينها جميع حقوق الانسانيـة ، لان الانسان جسم وروح ، فكأن الآية الكريمـة تقول : جعلناكم امـة وسطا ، تعرفون الحقين ، وتبلغـون الكمالين ، لتكونوا شهداء بالحق على الناس الماديين بما فرطوا في جنب الدين ، والروحانيين بما أفرطوا وكانوا من الغالين : تشهدون علـى المفرطين بالتعطيل القائلين : « وما هي الا حياتنـا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر » (١) بأنهم أخلدوا الى البهيمية ، وقضوا علـى استعدادهم بالحرمان من المزايا الروحية ، وتشهدون على المفرطين بالغلو في الدين القائلين : ان هذا الوجود حبس للارواح وعقوبة لها ، فعلينا ان تتخلص منه بالتخلي عن جميع اللذات الجسمانية ، وبتعذيب الجسد ، وهضم حقوق النفس ، وحرمانها من جميع ما أعده الله لها في هذه الحياة .

تشهدون عليهم بانهم خرجوا عن طريق الاعتدال ، وجنوا علـى ارواحهم بجنايتهم على اجسادهم وقواها الحيوية ، تشهدون على هؤلاء وهؤلاء ، وتسبقون الامم كلها باعتدالكم وتوسطكم في الامور كلها ، لان الاسلام الذي هداكم الله اليه وحباكم به فيه الكمال الانساني الذي

---

(١) سورة الجاثية ، الآية ٢٤ .

ليس بعده كمال ، لان الملتزم به يعطي كل ذي حق حقه ، يؤدي حقوق ربه ، وحقوق روحه ، وحقوق جسمه ، وحقوق ذوي القربى ، وحقوق سائر الناس .

ويكون الرسول صلى الله عليه وسلم شهيدا عليكم ، لانه المثل الاعلى في التوسط والاعتدال ، وانما تكون هذه الامة وسطا باتباعها له في سنته وشريعته وسيرته ، وهو القاضي بين الناس فيمن اتبع سنته ، ومن ابتدع لنفسه تقاليد اخرى ، او حذا حذو المبتدعين .

فكما تشهد هذه الامة العاملة بالاسلام على الناس بسيرتها ورقيها المادي والروحي بان الناس قد ضلوا عن القصد ، يشهد الرسول صلى الله عليه وسلم لامته بما وافقت فيه سنته ، وما كان لها من الاسوة الحسنة فيه ، وبانها استقامت على الصراط المستقيم .

وانما يتحقق لكم وصف « الوسطية » اذا حافظتم على العمل بهدي الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، واما اذا انحرفتم ، أو غيرتم وبدلتم ، فالرسول بنفسه ودينه وسيرته حجة عليكم بانكم لستم من أمته التي وصفها الحق جل جلاله بقوله في كتابه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » (١) .



ووردت في القرآن المجيد آية اخرى تشير الى فضيلة الوسطية حتى في العبادة ، وهي قوله تعالى في سورة البقرة : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين » (٢) . وقد قال العلماء انها

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٠ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٣٨ .

سميت « الوسطى » لانها افضل الصلاة واعظمها اجرا ، ولذلك خصت بطلب المحافظة عليها . وقد تكاثرت اقوال المفسرين في المراد بالصلاة الوسطى ، حتى شملت هذه الاقوال كل الصلوات ، وأيد كل مفسر قوله بدليل ، وكلمة « الوسطى » تحتمل ان يكون المراد بالصلاة الوسطى الصلاة المتوسطة المعتدلة التي لا نقصان فيها ولا افراط ، لان النقصان لا يكون وسطا ، لان الوسط هو العدل والخير ، والافراط لا يكون وسطا ، لانه مدعاة الى الملل .

ولقد تعرض الاستاذ الامام محمد عبده لبيان المراد من الصلاة الوسطى ، وذكر خلاف المفسرين في ذلك ، وأورد الحديث القائل : « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر » ، ثم قال : « ولولا انهم اتفقوا على انها احدى الخمس لكان يتبادر الى فهمي من قوله (والصلاة الوسطى) ان المراد بالصلاة الفعل ، وبالوسطى الفضلى ، اي حافظوا على أفضل أنواع الصلاة ، وهي الصلاة التي يحضر فيها القلب ، وتتوجه بها النفس ، الى الله تعالى ، وتخشع لذكره وتدبر كلامه ، لا صلاة المرائين ولا الغافلين .

ويقوي هذا قوله بعدها : (وقوموا لله قانتين) ، فهو بيان لمعنى الفضل من الفضلى ، وتأكيد له ، اذ قالوا ان في القنوت معنى المداومة على الضراعة والخشوع ، اي قوموا ملتزمين لخشية الله تعالى ، واستشعار هيبته وعظمته ، ولا تكمل الصلاة وتكون حقيقية ينشأ عنها ما ذكر الله تعالى من فائدتها الا بهذا ، وهو يتوقف على التفرغ من كل فكر وعمل يشغل عن حضور القلب في الصلاة وخشوعه ، ولما فيها من ذكر الله بقدر الطاقة » .

وقد علق السيد رشيد رضا على رأي الاستاذ الامام مؤيدا له بانه ليس هناك نص في الحديث المرفوع ينافي ما ذكره الاستاذ الامام ،

لان بعض المحدثين يقول ان كلمة « صلاة العصر » الموجودة في الحديث ، مدرجة من تفسير الراوي •

ويقول الله تبارك وتعالى في سورة القلم عن أصحاب الجنة : « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون » (١) • وأوسطهم أي خيرهم، وأعدلهم رأيا، وأمثلهم طريقة، وأسرعهم رجعة الى الله عز وجل•

وقال في سورة العاديات عن الخيل التي يناضل عليها أصحابها : « فوسطن به جمعا » (٢) أي توسطن جموع المحاربين ، وهذا يفيد شجاعة أصحابها واقدامهم •

وقال في سورة المائدة عن كفارة الحلف : « فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم » (٣) أي من أقصده وأعدله في النوع والقدر •

ونحن نرى ان مادة « الوسط » قد جاء ذكرها في هذه الآيات بمعنى التقدير والرضى •



واذا كان كتاب الله المجيد قد دعا الى التوسط ، وحث على الاعتدال ، فان السنة النبوية قد جاءت من وراء القرآن تؤكد هذا المعنى وتؤيده ، فالحديث الشريف يقول : « خير الامور اوساطها » • ويشرح ابن الاثير ذلك التعبير بان كل خصلة محمودة لها طرفان مذمومان ، فان السخاء وسط بين البخل والتبذير ، والشجاعة وسط بين الجبن والتردد، والانسان مأمور بان يتجنب كل وصف مذموم ، وتجنبه يكون بالتعري منه والبعد عنه ، فكلما ازداد منه بعدا ازداد منه تعريا ، وأبعد الجهات

(١) سورة القلم ، الآية ٢٨ .
(٢) سورة العاديات ، الآية ٥ .
(٣) سورة المائدة ، الآية ٨٩ .

والمقادير والمعاني من كل طرفين وسطهما ، وهو غاية البعد عنهما ، فاذا كان في الوسط فقد بعد عن الاطراف المذمومة بقدر الامكان •

وجاء في الحديث : « اذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة » • وقال عليه الصلاة والسلام دالا على التوسط ، مرشدا الى الاعتدال : « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من اخذ من هذه وهذه » • وقال ايضا : « ان الله بعثني بالحنيفية السهلة، ولم يبعثني بالرهبانية المبتدعة، سنتي الصلاة والنوم ، والافطار والصوم ، ومن رغب عن سنتي فليس مني » •

ويقول الامام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه : « عليكم بالنمط الاوسط ، فاليه ينزل العالي ، واليه يرتفع النازل » • والنمط هو الطريق، وقيل ان النمط هم الجماعة من الناس امرهم واحد •

ويعود الامام علي الى التنويه بالوسطية والدعوة اليها ، والتحذير من الانحراف عن الصراط ذات اليمين او ذات الشمال ، فيقول : «اليمين والشمال مضلة ، والطريق الوسطى هي الجادة ، عليها باقي الكتاب ، وآثار النبوة ، ومنها منفذ السنة ، واليها مصير العاقبة ، هلك من ادعى، وخاب من افترى » •

وللفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلمة مشابهة يقول فيها : « ايها الناس ، قد سُنت لكم السنن ، وفرضت لكم الفرائض ، وتركتم على الواضحة ، الا أن تميلوا بالناس يمينا وشمالا » • واذا تجنب الانسان الميل يمينا او شمالا فقد توسط واعتدل •

ثم يعود الامام علي الى تأكيد الثناء على التوسط ، فيقول : « خير هذه الامة النمط الاوسط ، يرجع اليهم الغالي ، ويلحق بهم التالي » • ويقول : « نحن النمرقة الوسطى ، بها يلحق الغالي ، واليها يرجع

التالي » • ويفسر هذا التعبير بعض العلماء بأن آل البيت اشبه بالنمرقة ــ وهي الوسادة ــ للاستناد اليهم في امور الدين ، كما يستند الانسان الى الوسادة لراحة الظهر واطمئنان الاعضاء ، ووصفها بالوسطى لاتصال سائر النمارق بها ، فكأن الكل يعتمد عليها ، اما مباشرة او بواسطة ، وآل البيت الطاهرون يسيرون على الصراط الوسط العدل ، يلحق بهم من قصر ، ويرجع اليهم من غلا وتجاوز •



هذا ولقد وردت كلمات حكيمة لاعلام سبقوا ، تدعو الى التوسط والاعتدال ، مما يدل على ان « الوسطية » فضيلة اسلامية محمودة ، فقال مطرف لابنه : « يا بني ، الحسنة بين السيئتين ــ يعني بين الافراط والتفريط ــ وخير الامور اوساطها ، وشر السير الحقحقة » • والحقحقة هي أشد السير وأتعبه للظهر •

وقال أبو المعتمد السُلمي : « الناس ثلاثة اصناف : اغنياء ، وفقراء ، واوساط ، فالفقراء موتى الا من اغناه الله بعز القناعة ، والاغنياء سكارى ، الا من عصمه الله بتوقع الغير ــ بكسر الغين وفتح الياء ــ وأكثر الخير مع اكثر الاوساط ، واكثر الشر مع الفقراء والاغنياء، لسخف الفقر وبطر الغنى » •

والامام ابن القيم يتكلم عن « التوسط » فيرفع شأنه ، ويقرر مكانه ، فيرى ان « التوسط » احد اركان اربعة يقوم عليها حسن الاخلاق ، وهي الصبر ، والعفة ، والشجاعة ، والتوسط ، ويعبر عن معنى التوسط بلفظ « العدل » • ويقول ان العدل يحمل الانسان على اعتدال اخلاقه ، وتوسطه فيها بين طرفي الافراط والتفريط ، فيحمله على خُلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذلة والوقاحة ، وعلى

خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور ، وعلى خلق الحلم ، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة .

وانما كان للتوسط هذه المكانة الجليلة لان كل خلق محمود ـ كما يتحدث ابن القيم في توسع ـ مكتنف بخلقين ذميمين ، وهو وسط بينهما ، وطرفاه خلقان ذميمان ، كالجود الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير ، والتواضع الذي يكتنفه خلقا المهانة والكبر . فان النفس متى انحرفت عن « التوسط » انحرفت الى احد الخلقين الذميمين ، ولا بد ، فاذا انحرفت عن خلق « التواضع » انحرفت اما الى كبر واما الى ذلة . واذا انحرفت عن خلق « الحياء » انحرفت اما الى وقاحة واما الى خور ... وكذلك اذا انحرفت عن خلق « الصبر المحمود » انحرفت اما الى جزع ، واما الى غلظة .

واذا انحرفت النفس عن خلق « الحلم » انحرفت اما الى طيش واما الى عجز ، واذا انحرفت عن خلق « الرفق » انحرفت اما الى عنف ، واما الى اضاعة . واذا انحرفت عن خلق « العزة » التي وهبها الله للمؤمنين ، انحرفت اما الى كبر ، واما الى ذل . واذا انحرفت عن خلق « الشجاعة » انحرفت اما الى تهور ، واما الى جبن . واذا انحرفت عن خلق «القناعة» انحرفت اما الى الحرص ، واما الى الخسة . واذا انحرفت عن خلق « الرحمة » انحرفت اما الى القسوة ، واما الى ضعف القلب ... الخ .

ثم يقول الامام ابن القيم : « وصاحب الخلق الوسط مهيب محبوب ، عزيز جانبه ، حبيب لقاؤه . وفي صفة نبينا صلى الله عليه وسلم : من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه عشرة أحبه » .



وقد يظن ظان ان بلوغ فضيلة التوسط امر سهل ميسور ، مع ان الشوط اليها بعيد ، وقد تحدث حجة الاسلام الغزالي عن شدة الغموض

الذي يحيط بدرجة « الوسطية » ، فلا يستطيع أن يلمحها ويتحلى بها الا من أدام المجاهدة لنفسه ، والسعي نحو غايته ، فيقول : « ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض ، بل هو أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا ، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة ، وقلما ينفك العبد من ميل عن الصراط المستقيم ، اعني الوسط ، حتى لا يميل الى احد الجانبين ، فيكون قلبه متعلقا بالجانب الذي مال اليه .

ولذلك لا ينفك عن عذاب ما ، واجتياز على النار ، وان كان مثل البرق ، قال الله تعالى : (وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ، ثم ننجي الذين اتقوا) (١) اي الذين كان قربهم الى الصراط المستقيم اكثر من بعدهم عنه .

ولاجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد ان يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة ، في قوله : (اهدنا الصراط المستقيم) (٢) ، اذ وجبت قراءة الفاتحة في كل ركعة ، فقد روي ان بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال : قد قلت يا رسول الله : شيبتني هود ، فلم قلت ذلك ؟ فقال عليه السلام : لقوله تعالى : (فاستقم كما أمرت) (٣) .

فالاستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض ، ولكن ينبغي أن يجتهد الانسان في القرب من الاستقامة ، ان لم يقدر على حقيقتها » .

ويتفنن حجة الاسلام في تفصيل الحديث عن الوسيلة الى بلوغ

---

(١) سورة مريم ، الآيتان ٧١ و ٧٢ .
(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٦ .
(٣) سورة هود ، الآية ١١٢ .

مرتبة الوسط ، وعن طريق العلاج لتجنب الانسان التفريط والافراط ، فيقول فيما يقول عن علاج الاخـلاق السيئة : « فان أردت ان تعرف الوسط ، فانظر الى الفعل الذي يوجبه الخلق المحذور ، فان كان أسهل عليك واكثر من الذي يضاده ، فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل ان يكون امساك المال وجمعه الذ عندك وأيسر عليك مـن بذله لمستحقه ، فاعلم ان الغالب عليك خـُلق البخل ، فزد في المواظبة علـى البذل ، فان صار البذل على غير المستحق الذ عندك واخف عليك من الامساك بالحق ، فقد غلب عليك التبذير ، فارجـع الى المواظبة على الامساك •

فلا تزال تراقب نفسك ، وتستدل على خـُلقك بتيسير الافعـال وتعسيرها ، حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات الى المال ، فلا تميل الى بذله ، ولا الى امساكه ، بل يصير عندك كالماء ، فلا تطلب فيه الا امساكه لحاجة محتاج ، او بذله لحاجة محتاج ، ولا يترجح عندك البذل على الامساك ، فكل قلب صار كذلك فقد اتى الله سليما ••• »

وما اجمـل قول القائـل الحكيم الداعي الى فضيلـة التوسط والاعتدال :

لا تذهبن في الامور فرطا
لا تسألن ان سألت شططا
وكن من الناس جميعا وسطا

وفقني الله واياك الى ان نكون من الامة المؤمنة الوسط ، لننال رضى الله عز وجل •

المسابقة إلى الخيرات

يقال في لغة العرب — وهي لغة القرآن الكريم — : سبق يسبق سبقا ، اي تقدم في السير ، او في غيره من الحسيات والمعنويات ، والاستباق هو التسابق الذي يكون بين اكثر من واحد ، وكل منهم يبذل وسعه ليسبق غيره ، وسابقه : باراه في السير ، واستبقا : تباريا . ويستعار لفظ « السبق » لاحراز الفضل والتبريز ، وعلى ذلك جاء قوله تعالى : « والسابقون السابقون » (١) اي المتقدمون الى ثواب الله وجنته بالاعمال الصالحة .

وقد تدل مادة « السبق » على معنى فوات اللحوق ، فيقال : سبق الطريد ، اي فات وأفلت من الطلب ، وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى في سورة العنكبوت : « ام حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا ساء ما يحكمون » (٢) اي : احسبوا ان يفوتونا ويفلتوا من طلبنا . وكذلك قوله في السورة نفسها : « فاستكبروا في الارض وما كانوا سابقين » (٣) اي مفلتين من الطلب .

وهناك كلمات تستعمل في لغة القرآن بمعنى المسابقة ، ككلمة

---

(١) سورة الواقعة ، الآية ١٠ .
(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤ .
(٣) سورة العنكبوت ، الآية ٣٩ .

« المسارعة » ، لان السرعة ضد البطء ، ويقال : اسرع وسارع اي خف وبادر ، ومن ذلك قوله تعالى : « يسارعون في الخيرات» (١) أي يمضون نحوها مسرعين ويبادرون اليها ، ويقال : هؤلاء مساريع في الحرب ، اي جمع مسراع ، وهو الشديد الاسراع الى النضال . وكذلك كلمة « المبادرة » . يقال : بادر الانسان الشيء مبادرة وبدارا ، اي عاجله وأسرع اليه ، ويقرب من معنى « المسابقة » معنى « المنافسة » ، وقد عرفوا المنافسة بانها مجاهدة النفس للتشبه بالافاضل ، والاجتهاد في اللحوق بهم دون الحاق ضرر بالغير ، والقرآن المجيد يقول في سورة المطففين : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » (٢) ، أي فليرغب الراغبون ، وليتبادر المتبادرون .



وقد تحدث كتاب الله الحكيم في مواضع عن المسابقة الى الخيرات ، او المسارعة اليها ، فكان حديثه معطرا بنفحات التكريم والتمجيد ، حيث دعا دعوة قوية الى تحلي ابنائه بفضيلة المبادرة الى انتهاز الفرص في عمل الخير ، لان الحياة غير مأمونة ، والآجال غير معلومة ، وما يمكن اليوم قد لا يمكن غدا ، واليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل، كما قال الامام علي رضي اللهعنه وكرماللهوجهه.

ولو رجعنا الى سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام لوجدناها قد كررت عبارة : « بادروا بالاعمال » ، ومن ذلك الحديث الذي يقول : «بادروا بالاعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي

---

(١) سورة المطففين ، الآية ٢٦ .
(٢) سورة الانبياء ، الآية ٩٠.

كافرا ، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » •

وقد ضربت السنة امثلة لمواطن المسابقة والمبادرة ، فقال الحديث : « خير الاعمال الصلاة في أول وقتها » • وقال الحديث أيضا : « اول الوقت رضوان الله ، ووسط الوقت رحمة الله ، وآخر الوقت عفو الله » • وقد علق ابو بكر الصديق رضي الله عنه على ذلك بقوله : « رضوان الله أحب الينا من عفوه ، فان رضوانه للمحسنين ، وعفوه عن المقصرين » •

ودعا الحديث الى المبادرة بالتوبة ، فقال : « ان الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » • ودعا الى المبادرة بالصدقة ، فقال : « بادروا بالصدقة » • ودعا الى المبادرة في السعي ، فقال : « باكروا في طلب الرزق والحوائج ، فان الغدو بركة ونجاح » •

والانسان الذي يزدان بفضيلة المسابقة الى الخيرات يكون على الدوام عاملا من عوامل الصلاح والاصلاح ، فلسانه يسارع الى كلمة الحق والخير يقولها ، ويده تسارع الى المعونة الطيبة تقدمها ، وعينه تسارع الى صفحات العلم النافع تطالعها ، وقلبه يسارع الى مشاعر الخير ينفعل بها ، وهكذا •••



ونعود الى حديث القرآن عن فضيلة المسابقة في الخيرات • يقول الله تعالى في سورة البقرة آمرا بهذه الفضيلة : « ولكل وجهة هو

موليها فاستبقوا الخيرات » (١) اي تسابقوا الى الخيرات والاعمال الصالحة ، وهذا يتضمن الحث على المبادرة والاستعجال الى جميع الطاعات بالعموم. وقال ايضا في سورة المائدة: «فاستبقوا الخيرات» (٢).

والقرآن الكريم يحدثنا بان المسارعة الى الخيرات كانت فضيلة تذكر فتشكر للانبياء عليهم الصلاة والسلام . فيقول في سورة الانبياء : « وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وانت خير الوارثين ، فاستجبنا له ووهبنا له يحيى واصلحنا له زوجه ، انهم كانوا يسارعون في الخيرات، ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا عابدين » (٣) .

ونوه القرآن بصفة السبق عند الملائكة ، فقال في سورة النازعات: « فالسابقات سبقا » (٤) . فقد ذكر بعض المفسرين ان المراد هم الملائكة الذين سبقوا بني آدم بالخير والعمل الصالح .

وأمر الله تعالى عباده بالمسارعة الى ابواب الفلاح والنجاح ، فقال في سورة آل عمران : « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين » (٥) . والمراد بالمسارعة الى المغفرة والجنة هو الاسراع الى اسبابهما ، وما يعد الانسان لنيلهما ، من التوبة عن الاثم ، والاقبال على البر ، ان الحسنات يذهبن السيئات .

وكذلك يقول القرآن في سورة الحديد : « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض أكدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » (٦) . اي سابقوا ايها الناس الى اعمال توجب لكم المغفرة والجنة .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٨ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٤٨ .
(٣) سورة الانبياء ، الآية ٨٩ ، ٩٠ .
(٤) سورة النازعات ، الآية ٤ .
(٥) سورة آل عمران ، الآية ١٣٣ .
(٦) سورة الحديد ، الآية ٢١ .

وقد يقال : وما ذلك العمل الذي نسارع اليـه او نسابق لننال المغفرة والجنة ؟. وقد ذهب المفسرون مذاهب شتى في ذلك العمـل ، فذكر كل منهم عملا : ذكروا الهجرة ، والتكبيرة الاولى ، والاخلاص ، وترك الربا ، والجهاد ، والتوبة ، واداء الفرائض ، والصلوات ، وغير ذلك . والاقرب ان المطلوب هنا لكي نسرع اليه يشمل جميع الواجبات والقربات ، وذلك كما في قوله تعالى : « فاستبقوا الخيرات » .

والفرصة اذا لم ينتهزها صاحبها انقلبت غصة ، وقد تتهيأ الاسباب للعمل في وقت ولا تتهيأ في كل وقت . فالواجب هو الاسراع والمبادرة، وقد ذكر ابن القيم في كتابه « مدارج السالكين » ان السلف قالـوا : « العارف ابن وقته ، لا ماضي له ولا مستقبل » . وان بعضهم رأى ابا بكر الصديق رضي الله عنه في منامه ، فقال له : اوصني . فقال له ابو بكر : كن ابن وقتك .

ويقول ابو العباس الجماني :

ليس في كـل ساعـة وأوان
تتهيـا صنائـع الاحسـان
فاذا أمكنت فبـادر اليهـا
حذرا مـن تعـذر الاحسـان

وقال بعض الشعراء :

اذا هبت ريـاحك فاغتنمهـا
فان لكـل خافقـة سكـون
ولا تغفل عـن الاحسان فيهـا
فما تدري السكون متى يكون

اذا ظفرت يداك فلا تقصر
فان الدهر عادته يخون

ويقول بعض الصوفية :

السباق السباق قولا وفعلا
حذروا النفس حسرة المسبوق

ويقول شاعر آخر :

بادر بخير اذا ما كنت مقتدرا
فليس في كل وقت انت مقتدر

ويفسر هذا سري السقطي فيقول : « الاحسان أن تحسن وقت الاحسان ، فليس في كل وقت يمكنك الاحسان » .



ويصف القرآن المجيد طليعة المستجيبين لله ولرسوله في صدر الاسلام بانهم السابقون الاولون ، وبانهم أعلى شأنا من سواهم ، فيقول في سورة التوبة : « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار ، والذين اتبعوهم باحسان ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم»(١). فهذه الآية تشير الى ثلاث طوائف تعد صفوة هذه الامة التي وصفها ربها بانها خير امة اخرجت للناس بايمانها وعملها وتمسكها بدينها . وافضل هذه الطوائف هي الطائفة التي سابقت فسبقت ، وسارعت فبرزت ، وبادرت مستجيبة لربها فأفلحت ، وهي طائفة السابقين الاولين من

(١) سورة التوبة ، الآية ١٠٠ .

« المهاجرين » ، وهم كما قيل : اهل غزوة بدر ، او الذين صلوا الى القبلتين ، او الذين بايعوا بيعة الرضوان •

واختار « تفسير المنار » انهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية، فقد كان المشركون قبل ذلك يضطهدون المسلمين ، ويقاتلونهم في كل مكان ، ويمنعون المؤمنين ان يهاجروا ، فالذين هاجروا قبل الحديبية تعرضوا لالوان الاذى في الحواس والاموال ، وقد ضربوا الامثلة الرائعة في صدق الايمان ، ويتألق في طليعتهم الخلفاء الراشدون الاربعة، وبقية المبشرين بالجنة ، وما زالت السيرة العاطرة تنوه بان خديجة كانت اول من اسلم ، وتبعها علي ، وزيد بن حارثة وابو بكر ، رضوان الله تعالى عليهم •

ثم تأتي الطائفة الثانية ، وهي طائفة السابقين من « الانصار » الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الاولى ، ثم الذين بايعوا بيعة العقبة الثانية وحدها ، ثم الذين اسلموا من اهل المدينة قبل الهجرة ، ثم الذين اسلموا عقبها قبل استعلاء الاسلام واعتزاز دولة المسلمين •

ثم تأتي الطائفة الثالثة ، وهم الذين تابعوا هؤلاء السابقين الاولين من المهاجرين والانصار اتباعا باحسان • وهؤلاء جميعا قد اخبر القرآن الكريم بان الله قد رضي عنهم ، وانهم رضوا عنه ، وانهم من اهل الجنة، ولكن اولى هذه الطوائف — وهي التي سبقت وبادرت — تمتاز بفضيلة المسارعة الى الحق ، والاستباق نحو الخير •

ويقول تفسير المنار : « ولا شك في مشاركة سائر المؤمنين لاولئك الصحابة الكرام في رضاء الله وثوابه ، بقدر اتباعهم لهم في الهجرة ان وجدت اسبابها ، والجهاد بالاموال والانفس لنصرة الاسلام ، ومنها نصرته بالحجة والبرهان ، وفي سائر اعمال البر والاحسان • وان

الآيات تدل على ذلك في كل موضع ، لان الجزاء في حكم الله الحق وشرعة العدل على الاعمال •

وللسابقين في كل عمل فضيلة السبق والامامة في كل عصر ، ويمتاز عصر الرسول الذي وجد فيه الاسلام ، واقيم بنيانه ، ورفعت اركانه ، ونشرت في الخافقين اعلامه ، على كل عصر بعده ، وهم الاقلون المقربون ، كما قال تعالى : « والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، في جنات النعيم ، ثلة من الاولين ، وقليل من الآخرين » (١) •

وفي سورة الحشر نجد القرآن الكريم يتحدث عن السابقين من المهاجرين والانصار ، ثم يتحدث عمن جاءوا بعدهم ، فيصفهم بانهم يترحمون على الذين سبقوهم في الايمان ، فيقول : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم » (٢) •

يقول ابن ابي ليلى عند هذه الآية : « الناس على ثلاثة منازل : المهاجرون ، والذين تبوأوا الدار والايمان ، والذين جاءوا من بعدهم ، فاجهد ان لا تخرج من هذه المنازل » •

وقال بعضهم : « كن شمسا ، فان لم تستطع فكن قمرا ، فان لم تستطع فكن كوكبا مضيئا ، فان لم تستطع فكن كوكبا صغيرا ، ومن جهة النور لا تنقطع » • ومعنى هذا ــ كما ذكر القرطبي ــ : كن مهاجريا، فان قلت : لا أجد ، فكن أنصاريا ، فان لم تجد فاعمل كأعمالهم ، فان لم تستطع فأحبهم واستغفر لهم كما أمرك الله •

★ ★ ★

---

(١) سورة الواقعة ، الآيات ١٠ ــ ١٤ .
(٢) سورة الحشر ، الآية ١٠ .

والمسارعون الى الخيرات ، المسابقون الى الطاعات ، يصورهم القرآن المجيد لنا ، فاذا فيهم طائفة من الصفات تجعلهم أهلا للسبق من جهة ، وأهلا لمكانة السابقين العظيمة من جهة اخرى ، فهو يقول مثلا في سورة آل عمران : « ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويساعدون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين(١)» • فهم من صلاحهم واستقامتهم ، وطاعتهم وخشيتهم ، يبادرون الى فعل الخيرات خوف الفوات بالموت ، أو هم يعملون الاعمال الصالحة نشطين غير متثاقلين ، اعلمهم بجلال موقعها وحسن عاقبتها وقدر ثوابها ، وشأن المؤمن المخلص أنه لا يتباطأ عما يعن له من الخير ، وانما يتباطأ الذين في قلوبهم مرض ، كما قال الله تعالى في المنافقين : «ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا (٢) » •

ويعود القرآن المجيد في سورة «المؤمنون» فيذكرنا بأن المسابقين الى الخيرات تكون لهم مجموعة من الصفات والافعال والخلال الكريمة، فيقول : « ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ، والذين هم بربهم لا يشركون ، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون ، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون (٣) » • أي يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها ، أو يسارعون في الدنيا الى وجوه المنافع والاكرام ، فالله تعالى يهيئها لهم ،

---

(١) سورة آل عمران ، الآيات ١١٣ ـ ١١٥ •
(٢) سورة النساء ، الآية ١٤٢ •
(٣) سورة المؤمنون ، الآيات ٥٧ ـ ٦١ •

وهم يسارعون الى نيلها ، وهم لها سابقون ، أي فاعلون السبق لأجلها ، أو هم سابقون الناس لأجلها •

والقرآن يحدثنا في سورة فاطر بأن الامة المؤمنة قد تفوز وتنجو في عمومها ، وقد ينال أبناؤها حظوظهم من رحمة الله أو فضله ، ولكن السابقين بالخيرات يظلون فائزين دون سواهم بالحظ الاوفر والنعيم الاكبر ، فيقول : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير ، جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ، وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، ان ربنا لغفور شكور ، الذي أحلنا دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ، ولا يمسنا فيها لغوب (١) » •



ولقد طرق الصوفية شجونا كثيرة من فنون القول وهم يتحدثون على طريقتهم الخاصة عن هذه الآية، ليفسروا فيها الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات ، وحاول القرطبي والنيسابوري والقشيري أن يجمعوا شتات هذه الآراء ، وفيما يلي نستعرض مجموعة الكلمات التي قيلت في تبيان هذه الآية الكريمة ، التي نزلت في شأن أمة محمد عليه الصلاة والسلام كما يقرر بعض المفسرين ، كما يروى أنه لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أمتي ورب الكعبة » ثلاث مرات•

وهذه هي الاقوال الواردة في بيان الاصناف الثلاثة :

١ ــ الظالم من غلبت زلاته ، والمقتصد من استوت حالاته ، والسابق من زادت حسناته •

---

(١) سورة فاطر ، الآيات ٣٢ ــ ٣٥ .

٢ ـ الظالم من زهد في دنياه ، والمقتصد من رغب في عقباه ، والسابق من آثر على الدارين مولاه .

٣ ـ الظالم من طلبه ، والمقتصد من وجده ، والسابق من بقي معه .

٤ ـ الظالم من نجم كوكب عقله ، والمقتصد من طلع بدر علمه ، والسابق من ذرت شمس معرفته .

٥ ـ الظالم من ترك المعصية ، والمقتصد من ترك الغفلة ، والسابق من ترك العلاقة (بالدنيا) .

٦ ـ الظالم من جاد بماله ، والمقتصد من لم يبخل بنفسه ، والسابق من جاد بروحه .

٧ ـ الظالم من له علم اليقين ، والمقتصد من له حق اليقين .

٨ ـ الظالم صاحب المودة ، والمقتصد صاحب الخلة ، والسابق صاحب المحبة .

٩ ـ الظالم يترك الحرام ، والمقتصد يترك الشبهة ، والسابق الفضل . (ما زاد عن الحاجة) في الجملة .

١٠ ـ الظالم صاحب سخاء ، والمقتصد صاحب جود ، والسابق صاحب ايثار .

١١ ـ الظالم صاحب رجاء ، والمقتصد صاحب بسط ، والسابق صاحب أنس .

١٢ ـ الظالم صاحب خوف ، والمقتصد صاحب خشية ، والسابق صاحب هيبة .

١٣ ـ الظالم له المغفرة ، والمقتصد له الرحمة والرضوان ، والسابق له القربة والمحبة .

١٤ ـ الظالم صاحب الدنيا ، والمقتصد طالب العقبى ، والسابق طالب المولى .

١٥ ـ الظالم طالب النجاة ، والمقتصد طالب الدرجات ، والسابق صاحب المناجـاة .

١٦ ـ الظالم أمن من العقوبة ، والمقتصد فاز بالمثوبة ، والسابق متحقق بالقربـة .

١٧ ـ الظالم مضروب بسوط الحرص ، مقتول بسيف الرغبة ، مضطجع على باب الحسرة ، والمقتصد مضروب بسوط الندامة ، مقتول بسيف الاسف ، مضطجع على باب الجود ، والسابق مضروب بسوط التواجد ، مقتول بسيف المحبة ، مضطجع على بـاب الاشتياق .

١٨ ـ الظالم صاحب التوكل ، والمقتصد صاحب التسليم ، والسابق صاحب التفويض .

١٩ ـ الظـالم صـاحب تواجد ، والمقتصد صاحب وجـد ، والسابق صاحب وجود .

٢٠ ـ الظالم صاحب المحاضرة ، والمقتصد صاحب المكاشفة ، والسابق صاحب المشاهدة .

٢١ ـ الظالم يراه في الآخرة بمقدار أيام الدنيا في كـل جمعة مرة ، والمقتصد يراه في كل يوم مرة ، والسابق غير محجوب عنه البتة .

٢٢ ـ الظالم مجذوب الى فعله الذي هو فضله ، والمقتصد مكاشف بوصفه الذيهو عزه ، والسابق المستهلك في حقهالذي هو وجوده.

٢٣ ـ الظالم الراجح السيئات ، والمقتصد المتساوي الحسنات والسيئات، والسابق الراجح الحسنات .

٢٤ ـ الظالم من ظاهره خير من باطنه ، والمقتصد المتساوي ، والسابق من باطنه خير •

٢٥ ـ الظالم صاحب الكبيرة ، والمقتصد صاحب الصغيرة ، والسابق المعصــوم •

٢٦ ـ الظالم التالي للقرآن غير العالم به ولا العامل بموجبه ، والمقتصد التالي العالم غير العامل ، والسابق التالي العامل •

٢٧ ـ الظالم الجاهل ، والمقتصد المتعلم ، والسابق العالم •

٢٨ ـ الظالم من يحاسب فيدخل النار وهو أصحاب المشأمة ، والمقتصد من يحاسب فيدخل الجنة وهو أصحاب الميمنة ، والسابق من يدخل الجنة بغير حساب •

٢٩ ـ الظالم من خالف أوامر الله وارتكب مناهيه ، والمقتصد هو المجتهد في أداء التكاليف ، وان لم يوفق لذلك ، والسابق هو الذي لم يخالف تكاليف الله بتوفيقه •

٣٠ ـ الظالم من غلبته نفسه الامارة، وأمرته فأطاعها، والمقتصد من جاهد نفسه فغلبته تارة وغلب أخرى ، والسابق من قهر نفسه •



وهذا الفيض من الكلمات يمكن ان يكون موضوع بحث فسيح خاص لا يتسع له نطاق هذا المجال ، ولكن لا يفوتنا هنا أن نتذكر ان الصوفية لهم طريقتهم الخاصة بهم في الحديث عن المسابقة الى الخيرات، فالقشيري مثلا يقول : « الناس في المسارعة على أقسام : فالعابدون يسارعون بقدمهم في الطاعات ، والعارفون يسارعون بهممهم في القربات،

والعاصون يسارعون بندمهم بتجرع الحسرات ، فمن سارع بقدمه وجد مثوبته ، ومن سارع بهممه وجد قربته ، ومن سارع بندمه وجد رحمته» • ويعود ليحدثنا عن أنواع السابقين المسارعين ، فيقول : « مسارع بقدمه من حيث الطاعات ، ومسارع بهممه من حيث المواصلات ، ومسارع بندمه من حيث تجرع الحسرات ، والكل مصيب ، وللكل من اقباله ــ على ما يليق بحاله ــ نصيب » •



قد يقال : ألا تتعارض فضيلة المسارعة والمسابقة مع الحديث القائل: « العجلة من الشيطان » ؟• ويجيب النيسابوري بأن الامور متفاوتة ، فمنها ما يحمد فيه التأخير ، لكونه مما يحصل على مهل وتدريج ، فلو طلب منه خلاف وضعه فات الغرض وضاع السعي ، أو لكونه غير معلوم العاقبة ، فيحتاج الى مزيد تدبر وتأمل •

ومنها ما يحمد فيه التعجيل والسرعة ، فيجب أن تنتهز فيه الفرصة وتغتنم ، فان الفرص تمر مر السحاب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » •

واذا كانت مسابقة المؤمن مشروطة بأن تكون الى الخيرات وفي سبيل القربات ، فان اتباع الشيطان قد يتسابقون ويتنافسون ، ولكن في الآثام والكفران ، وهؤلاء لهم الويل والثبور عند الله جل جلاله ، والقرآن الكريم يقول في سورة آل عمران : « ولا يحزنك الذين

يسارعون في الكفر ، انهم لن يضروا الله شيئا ، يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم (١) » • ويقول في سورة المائدة : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا ، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من اللهشيئا ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم (٢) » • ويقول في السورة نفسها : « وترى كثيرا منهم يسارعون في الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون (٣) » •

بل لقد يشترك اثنان في استباق ، ويكون بين هدفيهما ما بين السماء والارض من افتراق ، وقد عرض علينا القرآن صورة لذلك حينما قال في سورة يوسف ، عن يوسف وامرأة العزيز : « واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر » (٤) ، فكل منهما قد سارع نحو الباب ، ولكنها سارعت اليه استمرارا منها في مراودتها ، وغلوا منها في اثمها واجرامها، وسارع هو الى الباب فرارا بدينه وفضيلته ، فالمرأة قد سابقت الى الشر، ويوسف قد سابق الى الخير ، ولكل وجهة هو موليها •

ولعل أشنع صورة من صور المسابقة الآثمة أن يسبق الانسان الى

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٧٦ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٤١ .
(٣) سورة المائدة ، الآية ٦٢ .
(٤) سورة يوسف ، الآية ٢٥ .

رذيلة لم يسبق اليها أحد قبله، ولذلك استبشع القرآن ذلك فقال في سورة الاعراف : « ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين» (١) • وحسب السابق الى الاثم جرما أنه سيسن سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها ، وحسب السابق الى الخير شرفا أنه سيسن سنة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها ، وعلى الله قصد السبيل :



---

(١) سورة الاعراف ، الآية ٨٠ .

التحنف

«الحنيف» في أصل اللغة هو : المائل الى الشيء ، وقيل : الحنيف هو المستقيم ، فالمادة اللغوية للكلمة من قبيل الاضداد ، ثم أطلقت كلمة «الحنيف» على المائل عن الاديان الباطلة الى الدين الحق ، وعلى الثابت على الدين المستقيم ، ويقال : تحنف الرجل ، أي تحرى طريق السلامة ، وسمت العرب كل من حج واختتن حنيفا ، تنبيها الى أنه على دين ابراهيم عليه السلام ، وبعض الناس يسمون البنت «حنيفة» راجين أن يكون ذلك بشارة بطهارتها واستقامتها .

و « الحنف » ـ بفتح الحاء والنون ـ هو الميل عن الضلال الى الهدى ، ويقابله «الجنف» ـ بفتح الجيم والنون ـ وهو الميل عن الهدى الى الضلال ، ومن ذلك قول الله تعالى : «فمن خاف من موص جنفا (١)» أي ميلا ظاهرا في الحكم من العدل الى الظلم ، وقوله تعالى : « غير متجانف لاثم » (٢) أي غير مائل اليه . وجاء في الحديث : « انا نرد من جنف الظالم ما نرد من جنف الموصي » .

واذا كان الاصل في «الحنيف» انه المائل الى الدين الصحيح المستقيم، فقد توسعوا في معناه، فأطلقوا الحنيف على الناسك، والمخلص،

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٢ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٣ .

والمتعبد ، والمتحرر من العيوب والمآثم • و «التحنف» هو أن يتحرى الانسان أقوم السبل وأعدل الطرق ليسلكها ويلتزمها •

ومن هذا المعنى يلوح المفهوم الاخلاقي الذي يجعلنا نحس بأن «التحنف» بمعناه العام يدخل ضمن الفضائل الاسلامية القرآنية المجيدة التي تستحق البحث والتنويه • لان المتحنف يصور لنا قيمة سامية من القيم الاخلاقية ، فهو الرجل الذي يرى الناس أو كثرتهم تسير على طريقة باطلة ومعتقد فاسد ، فلا يتابعهم ولا ينساق وراءهم ، بل يخالفهم جميعا ما دام على الحق المبين ، ويتنكب طريقتهم ، ويمضي على طريقته ، وقد يشير الى هذا المعنى قول الحق جل جلاله : «قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون (١)» •

والمتحنف هو الذي تدفعه مبادئه وقيمه الى الميل الى الحق عن الباطل : في القلب والنفس ، في الجهر والهمس ، في الافعال والاحوال والاقوال ، كما يشير القشيري في «لطائف الاشارات» • فليس التحنف مجرد مخالفة ، أو معارضة للتظاهر او التفاخر ، وانما هو ادراك للحق ، واعتزاز به ، واصرار عليه ، وان خالف المخالفون •

ولقد نوه القرآن الكريم بفضيلة التحنف ومكانة الحنيف حين قال في سورة يونس : «قل يا أيها الناس ان كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم، وأمرت أن أكون من المؤمنين ، وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ، ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فان فعلت فانك اذن من الظالمين (٢)» • وقوله : «أقم وجهك للدين حنيفا» أي

---

(١) سورة الانعام ، الآية ٩١ .
(٢) سورة يونس ، الآيات ١٠٤ ــ ١٠٦ .

اخلص نفسك وقلبك للدين ، وكن مائلا عن الزيغ والبدع ، داخلا في جملة من أخلص ، ولا تلتفت الى هؤلاء الضالين المنحرفين ، فانك على الحق المبين .

ويعود القرآن الكريم الى ذكر التحنف منوها بفضله ومكانته ، فيقول في سورة الحج : « فاجتنبوا الرجس من الاوثان ، واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوي به الريح في مكان سحيق (١) » . وقوله : « حنفاء لله » أي مخلصين له الطاعة والعبادة ، ثابتين على دينه وملته .

ويعود القرآن الكريم في موطن ثالث ليقول في سورة الروم : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون ، منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون (٢) » .

وقوله : « فأقم وجهك للدين حنيفا » أي اخلص نفسك للاسلام ولعقيدة التوحيد ، واستقم بدينك نحو الجهة التي وجهك الله اليها، مائلا عن كل ما عدا هذا الدين من دين او ملة ، ولا يكن في قلبك شيء آخر سواه ، فهذه هي فطرة الله التي فطر الناس عليها ، أي ما ركز فيهم من قوة على معرفة الايمان بالله جل جلاله .

ولقد روى البخاري ومسلم قول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « أحب الدين الى الله الحنيفية السمحة » . وفي رواية : « بعثت بالحنيفية السمحة السهلة » . والحنيفية هي الاخلاص لله وحده في

---

(١) سورة الحج ، الآية ٣٠ ، ٣١ .
(٢) سورة الروم ، الآيات ٣٠ ـ ٣٢ .

الاقرار بالربوبية والاذعان للعبودية ، ـ ي الاستقامة على دين ابراهيم عليه السلام الذي يقول فيه القرآن المجيد في سورة آل عمران : « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين (١) » .

وكأن التحنف هو ابقاء الانسان ذاته على فطرتها الاولى التي برأه الله عليها ، قبل أن تعلق بها علائق الشهوات والانحرافات ، فاذا طرأ عليها شيء من ذلك كان جهده الاخلاقي دائرا حول دفع هذا الطارىء ، والعودة الى حالة الطهارة والصفاء التي تزدان بها نفسه وتقوى ، والتي تجعل أمره سهلا لينا ، وسطا عادلا ، سمحا لطيفا ، لا افراط فيه ولا تفريط .

وفي الحديث القدسي يقول الله تبارك وتعالى : « خلقت عبادي حنفاء » أي طاهري الاعضاء من المعاصي ، وقيل : أراد أنه خلقهم حنفاء مؤمنين ، لما أخذ عليهم الميثاق وهم في عالم الذر ، فقال لهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . فلا يوجد أحد الا وهو معترف مقر بأن له ربا ، وان أشرك به فيما بعد ، والى هذا أشار القرآن الكريم حين قال في سورة الاعراف : « واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم :ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون (٢) » .

وجاء في السنة أحاديث كثيرة ، منها ما جاء في الصحيحين : « كل مولود يولد على الفطرة » ، وجاء في السنة أيضا ان الله تعالى أخذ على

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٧ .
(٢) سورة الاعراف ، الآيتان ١٧٢ و ١٧٣ .

بني آدم العهد والميثاق ، وأشهدهم على انفسهم : ألست ربكم ؟• قالوا : بلى • قال : فاني أشهد عليكم السموات السبع ، والارضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم ، أن تقولوا يوم القيامة : لم نعلم بهذا • اعلموا أنه لا اله غيري ، ولا تشركوا بي شيئا ، واني سأرسل لكم رسلا ، لينذروكم عهدي وميثاقي ، وانزل عليكم كتبي • قالوا : نشهد أنك ربنا والهنا ، لا رب لنا غيرك • فأقروا له يومئذ بالطاعة •••

والقرآن الكريم قد وصف خليل الرحمن وأبا الانبياء ابراهيم بأنه « حنيف » سبع مرات في القرآن الكريم ، وهي :

١ — في سورة البقرة : «وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » الآية ١٣٥

٢ — في سورة آل عمران : « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » الآية ٦٧

٣ — في سورة آل عمران ايضا : « قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » الآية ٩٥

٤ — في سورة النساء : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا ، واتخذ الله ابراهيم خليلا » • الآية ١٢٥ •

٥ — في سورة الانعام : « قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » • الآية ١٦١ •

٦ — في سورة النحل : « ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا وما كان من المشركين » • الآية ١٢٠ •

٧ — في سورة النحل ايضا : « ثم أوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » • الآية ١٢٣ •

وكذلك جاء على لسان ابراهيم في سورة الانعام قوله : « اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين» . الآيــة ٧٩ .

ولعل السر في تكرار القرآن الكريم نسبة «الحنيفية» الى ابراهيم عليه السلام ــ والله أعلم بمراده ــ هو أن ابراهيم ضرب مثلا كريما في مقاومة الاشراك بالله ، والاحتفاظ بنفسه صافية ، وبقلبه سليما ، ودعا ربه أن يطهره ويطهر أبناءه من الوثنية والضلال ، « واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنيّ ان نعبد الاصنام (١) » . وهو الذي قال لقومه : « وأعتزلكم ومــا تدعون من دون الله ، وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا (٢) » .

وجاء في القرآن الكريم على لسان ابراهيم ما يذكرنا بالفطرة ، وما يذكرنا بوجوب التحنف والميل عن الضلال الى الهدى ، وعن عبادة أي شيء الا عبادة الله الواحد القهار ، فجاء في سورة الانبياء وهي تتحدث عن ابراهيم : « قال بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين (٣) » . وجاء فيها : « قال : أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون (٤) » ؟ .

وعبر القرآن عن الفطرة السليمة والحنيفية الصافية والباطن الطاهر عند ابراهيم عليه السلام ، فقال عنه في سورة الصافات : « اذ جاء ربه بقلب سليم (٥) » . أي أعرض عن كل شاغل ، وأقبل على ربه ومولاه

---

(١) سورة ابراهيم ، الآية ٣٥ .
(٢) سورة مريم ، الآية ٤٨ .
(٣) سورة الانبياء ، الآية ٥٦ .
(٤) سورة الانبياء ، الآيتان ٦٦ و ٦٧ .
(٥) سورة الصافات ، الآية ٨٤ .

بقلب مخلص طاهر من آفات القلوب ومن علائق الشهوة ، فجعله خالصا لله وحده .

ولنلاحظ هنا أن كلمة « حنيفا » لا تكاد تذكر في القرآن حتى يرد معها نفي الشرك ، وكأن القرآن يريد ان يذكرنا مرة بعد مرة أن التحنف والاشراك لا يجتمعان ، ومن هنا نكرر كما رأينا قوله تعالى : « حنيفا وما كان من المشركين » في شأن ابراهيم جد نبينا عليهما الصلاة والسلام ، ولذلك لم يكن عجيبا أن يقول التنزيل المجيد : « قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » . لان معنى ذلك ـ كما يقول القشيري : اذا تجاذبتك الفرق والاهواء ، فأعرض عن هؤلاء ، وأقبل علينا ، وزد في توجهك الينا ، جاريا على منهاج الخليل ، الذي ترك قومه وأباه ، وأقبل على خالقه ومولاه ، غير معرج على شيء فيه نصيب للنفس ، فقد سلم ماله ونفسه وولده ، وما كان له جملة الى حكم الله وانتظار أمره .

وبمقتضى هذا المثل الاعلى الذي ضربه ابراهيم في التحنف والاستقامة والاخلاص في الطاعة رأينا القرآن الكريم يدعو عباده المؤمنين الى الاستمساك بمثل هذا الاخلاص ، لأنه لب الاسلام ، ولأن الاستقامة على الطاعة هي صبغة المسلمين المخلصين ، فقال القرآن الكريم في ختام سورة الحج : « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » (١) .

ومما يدل على ان « التحنف » وثيق الارتباط بالفطرة اننا نجد في

---

(١) سورة الحج ، الآيتان ٧٧ و ٧٨ .

ظلمات الجاهلية أفرادا تحنفوا وتطهروا ، واعتزلوا مسالك الانحراف ومواطن الاعتساف ، وتلمسوا الطريق الى الاستقامة والهداية على قدر طاقتهم ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل الذي ترك عبادة الاوثان قبيل اشراق الاسلام ، وحاول أن يكون حنيفا على طريقة ابراهيم عليه السلام ، وقد روي عن اسماء بنت ابي بكر رضي الله عنهما أنه كان مسندا ظهره الى الكعبة وهو يقول : « يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بيده ، ما أصبح أحد منكم على دين ابراهيم غيري » . ثم يقول : « اللهم اني لو أعلم أحب الوجوه اليك عبدتك به ، ولكني لا أعلم » . ويقول : « الهي اله ابراهيم ، وديني دين ابراهيم » .

وكان زيد يحيي الموءودة ، واجتمع مع نفر من عقلاء قومه ، وتباحثوا في أمر الاصنام فذكروا أن عبادتها ضلال ، « فخرجوا يطلبون ويسيرون في الارض ، يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم » . ولم يكن فيهم ــ كما يقول ابن كثير ــ أعدل أمرا وثباتا من زيد بن عمرو ، فقد اعتزل الاوثان ، وفارق الاديان من اليهود والنصارى والملل كلها ، الا دين ابراهيم دين الحنيفية ، يوحد الله ، ويخلع ما دونه ، ولا يأكل ذبائح قومه ، ولاقى في سبيل ذلك ألوانا من الايذاء .

وخرج زيد الى الشام يلتمس الهدى ، ويطلب في أهل الكتاب الاول دين ابراهيم ويسأل عنه ، فدله أحد الرهبان على أن نبيا قد آذن وقت ظهوره في مكة ، فعاد زيد مسرعا، ولكنه لقي مصرعه في الطريق. ويروي ابن كثير أنه حينما ذكروا زيدا وشأنه أمام النبي قال : « هو أمة وحده يوم القيامة » .

ورووا لزيد بن عمرو أشعارا تنسم بالحنيفية والتحنف والتطهر ، ومن ذلك قوله :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت
له الارض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلما استوت شدها
سواء ، وأرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت
له المزن تحمل عذبا زلالا
اذا هي سيقت الى بلدة
أطاعت فصبت عليها سجالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت
له الريح تصرف حالا فحالا

ومن ذلك قوله أيضا :

أربا واحدا أم ألف رب
أدين اذا تقسمت الامور

عزلت اللات والعزى جميعا
كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ، ولا ابنتيها
ولا صنمي بني عمرو أزور

ولكن أعبد الرحمن ربي
ليغفر ذنبي الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها
متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرار دارهم جنان
وللكفار حامية سعير

وخـزي فـي الحيـاة ، وان يموتـوا
يلاقوا مـا تضيـق بـه الصـدور



هذا ومما ينبغي أن تتذكره أن بعض الجاهلين زعـم أن كلمـة « الحنيفية » عند العرب قديما كانت تطلق على الشرك ، وقد تكفل بالرد على هذا الجهل الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، حين تعرض لتفسير قوله تعالى في سورة البقرة : «وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين (١) » فذكر أن الحنيف هـو المائل ، وأطلق على الخليل ابراهيم ، لأن الناس في عصره كانوا على طريقة واحدة وهي الكفر ، فخالفهم كلهم ، وتنكب طريقتهم . ثم قال :

« قال بعض المشتغلين بالعربية من الافرنج : ان الحنيفية هي ما كان عليه العرب من الشرك ، فاحتجوا على ذلك بقول بعض النصارى في زمن الجاهلية : (ان فعلت هذا أكون حنيفيا) . وانها لفلسفة جاءت من الجهل باللغة . وقد ناظرت بعض الافرنج في هذا ، فلم يجد ما يحتج به الا عبارة ذلك النصراني ، وهو الآن يجمع كل ما نقل عن العرب من هذه المادة ، لينظر كيف كانوا يستعملونها ، ولا دليل في كلمة النصراني العربي ، على أن الكلمة تدل لغة على الشرك ، وانما مراده بكلمته البراءة من ديـن العرب مطلقا ، ذلك ان بعض العرب كانوا يسمون أنفسهـم الحنفاء ، أيضـا .

والسبب في التسمية والدعوى أن سلفهم كانوا على ملة ابراهيم حقيقة ، ثم طرأت عليهم الوثنية ، فأخذتهم عن عقيدتهم ، وأنستهم أحكام

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٣٥ .

ملتهم وأعمالها • نسوا بعضها بالمرة ، وخرجوا ببعض آخر عن أصله ووصفه كالحج ، ونفي الشرك عن ابراهيم في آخر الآية احتراس من وهم الواهمين ، وتكذيب لدعوى المدعين ».•



أما بعد فيا أيها الانسان العاقل ، هذا طريق التحنف ، طريق التدبر والتطهر ، طريق الاستقامة والاخلاص ، طريق الميل عن كل ضلال وبهتان، وطريق الثبات على اليقين والاحسان ، فكن متحنفا مسلما ، حتى تصبح حنيفا مؤمنا ، فابراهيم جد نبيك عليهما الصلاة والسلام كان حنيفا مسلما، ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي يقول : « بعثت بالحنيفية السهلة السمحة » ، وربك جل جلاله هو الذي يقول : « وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين (١) » • واتخذ لك من القرآن في هذا المجال شعارا ، هو قول ربك تبارك وتعالى :

« قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين ، قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ، ولا تكسب كل نفس الا عليها ، ولا تزر وازرة وزر اخرى ، ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه مختلفون ، وهو الذي جعلكم خلائف الارض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب ، وانه لغفور رحيم (٢) » •

---

(١) سورة يونس ، الآية ١٠٥ .
(٢) سورة الانعام ، الآيات ١٦١ ــ ١٦٥ .

لوم النفس

اللوم ــ كما تقول اللغة ــ هو عذل الانسان على ما لا ينبغي ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة ابراهيم : «فلا تلوموني ولوموا أنفسكم (١)»، والملوم هو الشخص المعذول ، كما في قوله تعالى في سورة الاسراء : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا (٢) » . وقوله في السورة نفسها : « ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا (٣) » .

والتلاوم هو تبادل اللوم ، فيقال : تلاوم الرجلان ، اذا لام كل منهما الآخر ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة القلم : « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون (٤) » . واللومة هي اللوم ، كما في قوله في سورة المائدة : « يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم (٥) » . واللوام هو من يكثر اللوم ، أو من يشتد في لومه ، والنفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها لوما شديدا على ارتكاب الشر ، أو التقصير في عمل الخير . والمليم هو من يستحق أن يوجه الناس اليه اللوم ، كقوله تعالى في

---

(١) سورة ابراهيم ، الآية ٢٢ .
(٢) سورة الاسراء ، الآية ٢٩ .
(٣) سورة الاسراء ، الآية ٣٩ .
(٤) سورة القلم ، الآية ٣٠ .
(٥) سورة المائدة ، الآية ٥٤ .

سورتي المؤمنون والمعارج : « الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين (١) »• وقوله في سورة الذاريات : « فتول عنهم فما أنت بملوم (٢) » • أي ليس لأحد أن يوجه اليك اللوم ، واللائمة هي الامر الذي يلام عليه الانسان •

هذا بعض حديث اللغة عن « اللوم » • فما حديث الأخلاق ؟•



ان المراد بفضيلة لوم النفس في حديث القرآن الاخلاقي ، هو أن يتعود الانسان ملاحظة نفسه ، في أقوالها واعمالها ، وحركاتها وسكناتها، ليتابعها ويقوّم سعيها ، ويراجعها حين تنحرف ، أو تهم بشيء من الانحراف ، ليعيدها الى الصراط ، ويقيمها عليه ، ويلزمها به ، وكذلك يراجعها وهي تسعى وانية أو بطيئة في مجال الخير ، ليفجر فيها ينابيع النشاط والقوة والاجتهاد ، حتى تزداد من الخير ، وتجتهد في ميدان البر •

وكأن الانسان بهذه الفضيلة الاخلاقية القرآنية يقيم من نفسه على نفسه بنفسه ديدبانا أو حارسا يقظا حذرا ، يمنعها من السوء ، ويدفعها الى الطيب من العمل والقول والتفكير ، وكأن هذه المتابعة للنفس هي ما يسميه أهل عصرنا بسلطة « الضمير » •

وليست فضيلة اللوم للنفس غاية تطلب لذاتها ، بمعنى انه ينبغي أن يعاتب الانسان نفسه ، ويلومها لمجرد اللوم والمعاتبة ، وانما هي فضيلة مطلوبة عند وجود داعيها ومقتضيها ، فلو أن الانسان حافظ على

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٦ . وسورة المعارج ، الآية ٣٠ .
(٢) سورة الذاريات ، الآية ٥٤ .

استقامة سلوكه وتصرفه وتفكيره منذ بداية الطريق الى نهايته ــ وهذا أمر متعسر أو متعذر ــ لما كان هناك داع يدعو الى لوم النفس أو معاتبتها أو مؤاخذتها ، والا كان ذلك تصرفا لا مسوغ له ولا مبرر •

ولكن من أخطأ فألمّ بصغيرة أو غيرها هو الذي يحتاج الى فضيلة لوم النفس ، وليس معنى هذا أيضا أن يتعمد الانسان الخطأ ليوجد فرصة يلوم فيها نفسه ، فقد يكون ذلك عبثا يتنزه عنه العقلاء ، لأن من تجنب الخطأ ، والتزم الصواب ، وأحسن المسعى ، أفضل ممن تعمد الوقوع في الخطأ ، ثم شرع يندم عليه ويتوب منه ، ولذلك قال بعض السلف : « هب أن المسيء قد عفي عنه ، أليس قد فاته ثواب المحسنين » ؟•

وقد يخيل لبعض الناس أو لكثير منهم ان التحلي بفضيلة لوم النفس أمر سهل ميسور ، فما عليه ــ في توهمه أو زعمه ــ الا أن يكرر ارتكاب الخطأ ، ثم يكرر القيام بالمعاتبة واللوم للنفس ، وبذلك يكون قد تحلى بفضيلة من فضائل القرآن المجيد ••• كلا ، فان التحلي القويم بهذه الفضيلة يحتاج الى همة وعزيمة ، والى انتباه ويقظة ، والى جهد وتعب ، ولقد أحسن أبو حامد الغزالي في تصوير ذلك وتمثيله بصورة ملموسة بارزة ، فقال :

« اعلم أن مطلب المتعاملين في التجارات ، المشتركين في البضائع عند المحاسبة ، سلامة الربح • وكما أن التاجر يستعين بشريكه ، فيسلم اليه المال حتى يتجر ، ثم يحاسبه ، فكذلك العقل ، هو التاجر في طريق الآخرة ، وانما مطلبه وربحه تزكية النفس ، لأن بذلك فلاحها • قال الله تعالى : (قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسَّاها (١)) • وانما

---

(١) سورة الشمس ، الآيتان ٩ و ١٠ •

فلاحها بالاعمال الصالحة ، والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة ، اذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها ، كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله .

وكما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه في الربح ، فيحتاج الى أن يشارطه أولا ، ويراقبه ثانيا ، ويحاسبه ثالثا ، ويعاقبه أو يعاتبه رابعا ، فكذلك العقل يحتاج الى مشارطة النفس أولا ، فيوظف عليها الوظائف ، ويشرط عليها الشروط ، ويرشدها الى طرق الفلاح ، ويجزم عليها الامر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، فانه لو أهملها لم ير منها الا الخيانة وتضييع رأس المال ، كالعبد الخائن اذا خلا له الجو ، وانفرد بالمال .

ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فان هذه تجارة ربحها الفردوس الاعلى ، وبلوغ سدرة المنتهى مع الانبياء والشهداء . فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه في ارباح الدنيا ، مع أنها محتقرة بالاضافة الى نعيم العقبى ، ثم كيفما كانت فمصيرها الى التصرم والانقضاء ، ولا خير في خير لا يدوم ، بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ، لأن الشر الذي لا يدوم اذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائما ، وقد انقضى الشر ، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما ، وقد انقضى الخير ، ولذلك قيل :

أشد الغم عندي في سرور   تيقن عنه صاحبه انتقالا

فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتدقيق عليها في حركاتها وسكناتها ، وخطراتها وخطواتها ، فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها ، يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد ، فانقضاء

هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة الى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل •

فاذا أصبح العبد ، وفرغ من فريضة الصبح ، ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس ، كما أن التاجر عند تسليم البضاعة الى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته ، فيقول للنفس : مالي بضاعة الا العمر ، ومهما فني فقد فني رأس المال ، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح •

وهذا اليوم الجديد قد امهلني الله فيه ، وأنسأ في أجلي ، وأنعم علي به ، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني الى الدنيا يوما واحدا ، حتى أعمل فيه صالحا ، فاحسبي أنك قد توفيت ، ثم قد رددت ، فاياك ثم اياك أن تضيعي هذا اليوم ، فان كل نفس من الانفاس جوهرة لا قيمة لها » •



وهناك في القرآن الكريم آية تشير الى مكانة النفس اللوامة التي تواظب على لوم نفسها حتى تظل على الصواب ، وتتباعد عن الخطأ ، ولذلك جمع الله تعالى في القسم بين هذه النفس اللوامة ويوم القيامة، فقال عز من قائل : « لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة (١) » •

وفي « الاحياء » ان النفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الاحوال الذميمة ، لا عن عزم وتصميم ، وهذا أغلب أحوال التائبين ، لان الشر معجون بطينة الآدمي ، قلما ينفك عنه ، وانما هو يسعى ليغلب خيره شره ، حتى يثقل ميزانه بالطيبات ، فترجح كفة

---

(١) سورة القيامة ، الآيتان ١ و ٢ .

الحسنات ، وتقل السيئات شيئا فشيئا ، وهذا وأمثاله هم الذين تفضل الله عليهم فوعدهم وعدا حسنا ، كما قال في سورة النجم : « الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة » (١) .

ولقد ذهب أسلافنا — رضي الله عنهم — مذاهب في تبيان المراد بالنفس اللوامة، فذكر الاصفهاني أنها النفس التي اكتسبت بعض الفضيلة، فتلوم صاحبها اذا ارتكب مكروها ، فهي دون النفس المطمئنة . وقيل : بل هي النفس التي قد اطمأنت في ذاتها ، وترشحت لتأديب غيرها ، فهي فوق النفس المطمئنة .

وذكر القرطبي أنها هي نفس المؤمن الذي تراه دائما يلوم نفسه على الشر : لم فعلته ، وعلى الخير لم لا تستكثر منه ، وذكر بعض المفسرين أنه ليس من نفس محسنة ولا مسيئة الا وهي تلوم نفسها ، فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان ازداد احسانا ، والمسيء يلوم نفسه ألا يكون ارتدع عن اساءته .

ويأتي فخر الدين الرازي فينقل عن ابن عباس قوله ان كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة ، سواء كانت برة أو فاجرة ، أما البرة فلأجل أنها لم تزد على طاعتها ، وأما الفاجرة فلأجل أنها لم تشتغل بالتقوى، ثم ذكر أن بعضهم طعن في هذا بأن من يستحق الثواب لا يجوز ان يلوم نفسه على ترك الزيادة ، لانه لو جاز منه لوم على ذلك ، لجاز من غيره أن يلومها عليه ، وبأن الانسان انما يلوم نفسه عند الضجر وضيق القلب ، وذلك لا يليق بأهل الجنة حال كونهم في الجنة ، ولأن المكلف يعلم أنه لا مقدار من الطاعة الا ويمكن الاتيان بما هو أزيد منه ، فلو كان ذلك موجبا للوم لامتنع الانفكاك عنه ، وما كان كذلك لا يمكن تحقيقه ، والله لا يكلف الا بالممكن المستطاع .

---

(١) سورة النجم ، الآية ٣٢ .

وقد أجاب الرازي عن هذا الاعتراض بقوله : « والجواب عن الكل أن يحمل اللوم على تمني الزيادة ، وحينئذ تسقط هذه الاسئلة » .

وجاء بعد ذلك أقوال في المراد بالنفس اللوامة ، منها :

١ ـ هي نفس آدم عليه السلام ، لم تزل تلوم نفسها على فعلها الذي خرجت به من الجنة .

٢ ـ هي نفس الانسان الشقي حين يشاهد احوال القيامة وأهوالها ، فانها حينئذ تلوم نفسها على ما ارتكبت من المعاصي .

٣ ـ هي نفس الانسان الملول الذي يطلب الشيء ، فاذا وجده ملَّه وزهد فيه ، فيلوم نفسه على أنه طلبه ، واجتهد للحصول عليه .

٤ ـ هي النفس الشريفة المحاسبة التي لا تزال تلوم نفسها ، وتشعر بالتقصير وان اجتهدت في الطاعة ، وتتمنى مزيدا من البعد عن السوء ، مع مزيد من مضاعفة الخير . وهذا أجدر الآراء بالقبول .



ولقد أشار سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام الى معنى لوم النفس حين قال : « المؤمن كالسنبلة ، يفيء أحيانا ، ويميل أحيانا » . ومعنى هذا أنه اذا ألمَّ بخطيئة لم يوطّن نفسه عليها بالاصرار ، بل يسارع فيفيء ويعتدل بلوم النفس والاستغفار ، ولعل هذا هو بعض ما نفهمه من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

ومن بعد هدي النبوة الطهور نجد أسلافنا يعنون بالدعوة الى فضيلة لوم النفس ومعاتبتها . ومن أمثلة ذلك ما جاء في كتاب «اللمع» حيث أوصى أبو سعيد الخراز بعض أصحابه فقال له : « احفظ وصيتي

أيها المريد ، وارغب في ثواب الله تعالى ، وانما هو أن ترجع الى نفسك الخبيثة فتذيبها بالطاعة ، وتفارقها وتميتها بالمخالفة ، وتذبحها باليأس فيما سوى الله ، وتقتلها بالحياء من الله عز وجل ، ويكون حسبك • وتسارع في جميع الخيرات ، وتعمل في جميع المقامات ، وقلبك وجل أن لا يقبل منك ، فهنا حقائق القبول والاخلاص والصدق ، حتى تتخلص وتصير الى الله تعالى ، والله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد » •

وهؤلاء الاسلاف الاخيار الاطهار قد ضربوا نماذج رائعة في لوم النفس، حتى رسم بعض شعراء الاسلام صورة لواحد من هؤلاء اللوامين، فقال عنه :

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد
تراه بقمة أو بطن وادي
ينوح على معاص سابقات
يكدر ثقلها صفو الرقاد
فان هاجت مخاوفه وزادت
فدعوته : أغثني يا عمادي
فأنت بما ألاقيه عليم
كثير الصفح عن زلل العباد



وينبغي ان تتذكر أن من ثمرات لوم النفس أن الوصول الى مكانة الرضا والطمأنينة يكون عن طريق هذه الفضيلة ــ فضيلة لوم النفس ــ ولذلك يقول حجة الاسلام : « اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ، وقد خلقت أمارة بالسوء ، ميالة الى الشر ، فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر الى عبادة ربها وخالقها،

ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذاتها ، فان أهملتها جمحت وشردت ، ولم تظفر بها بعد ذلك .

وان لازمتها بالتوبيخ والمعاتبه والعذل والملامة ، كانت نفسك هي النفس اللوامة التي اقسم الله بها ، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة الى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية [1] ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولا بوعظ نفسك ، فقد أوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام : يا ابن مريم ، عظ نفسك ، فان اتعظت فعظ الناس ، والا فاستح مني [2] .

وينبغي أن نعرف أيضا أن لوم النفس يدفع الى حسن العاقبة ، ويفضي الى جميل الخاتمة ، وهذا عبدالله بن قيس يحدثنا بأنه شهد احدى الغزوات ، وقد بدأ القتال ، فاذا رجل يخاطب نفسه فيقول لها : أي نفسي ، ألم أشهد مشهد كذا وكذا ، فقلت لي : أهلك وعيالك ، فأطعتك ورجعت ؟

ألم أشهد كذا وكذا ، فقلت لي : أهلك وعيالك ، فأطعتك ورجعت؟ .

والله لأعرضنك اليوم على الله ، أخذك أو تركك ...

وعزم عبدالله بن قيس على متابعته ومراقبته ليرى ما يصنع ، فحمل هذا الرجل على العدو ، فكان في الطليعة ، دون أن يبالي بهجمات الأعداء القاسية الشديدة ، وظل يقاتل وهو ثابت ، وما زال كذلك حتى ذاق نعمة الشهادة ، بعد أن أصر على موقف الوفاء والفداء ، وأصر على الجهاد حتى الاستشهاد ، وأقبل عبدالله بن قيس على جثمان ذلك المجاهد

---

(١) يقصد بذلك قول الله تعالى في سورة الفجر : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي الى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » الآيات ٢٧ ــ ٣٠ .

(٢) انظر كتابي « أدب الأحاديث القدسية » ص ١٥٩ ــ ١٦٤ ففيه تفصيل الكلام عن هذا الحديث القدسي .

الشهيد ، وانحنى عليه في اكبار واعجاب ، فوجد بجسمه وجسم جواده أكثر من ستين طعنة ، رضوان الله عليه .



والمؤسف في دنيا الناس أننا نجد الكثيرين منهم يلومون غيرهم ، ويقسون في الحكم على سواهم ويحصون على من عداهم كل صغيرة وكبيرة ، ولا يفعلون مثل هذا ولا شيئا منه مع أنفسهم ، ولقد ينزلون أشد العقاب على من يخطئون ، ممن يشرفون عليهم ، أو يتصرفون في أمورهم ، ثم هم لا يفكرون في أن يردعوا أنفسهم بعقاب أو عتاب .

فليت الواحد منهم يستمع الى تعريض الغزالي بمثله حين يقول له : « والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك ، على ما يصدر منهم من سوء خلق ، وتقصير في أمر ، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار ، وبغوا عليك ، ثم تهمل نفسك ، وهي أعظم عدو لك ، وأشد طغيانا عليك ، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك ، فان غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة ، وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ، ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة ، فهي بالمعاقبة أولى من غيرها » .

نسأل الله جل جلاله أن يهبنا نعمة الانتصار على أهواء نفوسنا ، حتى نفوز برضى خالقنا ، وسعادتنا في الدنيا والآخرة .

الغزالي ولوم النفس

هذا نص أخلاقي أدبي رائع ، من كتاب « الاحياء » ، يعطينا فيه الامام الغزالي نموذجا مثيرا موسعا لمناجاة النفس باللوم والمعاتبة ، وقد رأيت أن أجعله ضميمة الى موضوع « لوم النفس » السابق وأعلق عليه، لعل في ذلك عظة وعبرة لمن أراد الاقتداء والاحتذاء :

« يا نفس ...

ما أعظم جهلك . تدعين الحكمة والذكاء والفطنة ، وأنت أشد الناس غباوة وحمقا .

أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار ، وأنك صائرة الى احداهما على القرب [1] ؟.

فما لك تفرحين وتضحكين ، وتشتغلين باللهو ، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ؟. وعساك اليوم تختطفين أو غدا . فأراك ترين الموت بعيدا ، ويراه الله قريبا .

أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن البعيد ما ليس بآت ؟. أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ، ومن غير مواعدة ومواطأة ، وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ، ولا في شتاء دون صيف ،

---

(١) يعني : عما قريب ، لان العمر مهما طال قصير .

ولا في صيف دون شتاء ، ولا في نهار دون ليل ، ولا في ليل دون نهار ، ولا يأتي في الصبا دون الشباب ، ولا في الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فان لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ، ثم يفضي الى الموت •

فمالك لا تستعدين للموت وهو أقرب اليك من كل قريب ؟• أما تتدبرين قوله تعالى : « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم » ؟••

ويحك يا نفس !• لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخ من اخوانك بما تكرهينه ، كيف كان غضبك عليه ، ومقتك له (١) ، فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه ، وشديد عقابه ؟• أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيهات هيهات • جربي نفسك ان ألهاك البطر عن أليم عذابه ، فاحتبسي ساعة في الشمس ، أو في بيت الحمّام ، أو قربي اصبعك من النار ، ليتبين لك قدر طاقتك •

أم تغترين بكرم الله وفضله ، واستغنائه عن طاعتك وعبادتك ، فما لك لا تعوّلين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك ؟• فاذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ، ولا تكلينه الى كرم الله تعالى ، واذا أرهقتك حاجة الى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي (٢) الا بالدينار والدرهم ، فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل ؟• فلم لا تعوّلين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز ، أو يسخر عبدا من عبيده ، فيحمل اليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ؟•

---

(١) مقته : أبغضه أشد البغض وكرهه لأمر قبيح ركبه .
(٢) لا ينقضي : أي لا يتحقق ولا يدركه مريده .

أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا ، وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها ، وأن رب الآخرة والدنيا واحد ، وأن ليس للانسان الا ما سعى •

ويحك يا نفس !• ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة ، فانك تدعين الايمان بلسانك ، وأثر النفاق ظاهر عليك • ألم يقل لك سيدك ومولاك : « وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها » ، وقال في أمر الآخرة : « وأن ليس للانسان الا ما سعى » • فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة ، وصرفك عن السعي فيها ، فكذبته بأفعالك ، وأصبحت تتكالبين [1] على طلبها تكالب المدهوش المستهتر [2] ، ووكل أمر الآخرة الى سعيك ، فأعرضت عنها اعراض المغرور المستحقر • ما هذا من علاقات الايمان • لو كان الايمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار ؟

ويحك يا نفس !• كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ، وتظنين أنك اذا مت انفلت وتخلصت • وهيهات [3] • أتحسبين أنك تتركين سدى [4] ؟• ألم تكوني نطفة من مني يمنى [5] ، ثم كنت علقة فخلق فسوى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟•

---

(١) تتكالبين : الكلب ـ بفتح الكاف واللام ـ : الحرص ، ورجل كلب ـ بفتح الكاف وكسر اللام ـ : شديد الحرص . فمعنى تتكالبين : تشتدين في الحرص على طلب الدنيا .

(٢) المستهتر : المولع بالشيء لا يبالي في سبيله بأي جهد . والمدهوش : الذي ذهب عقله من الوله .

(٣) هيهات : كلمة تستعمل للاخبار ببعد الشيء وتفسره ، وهي اسم فعل ، وفي القرآن الكريم : « هيهات هيهات لما توعدون » .

(٤) سدى : مهمل ، يستوي فيه المفرد وغيره ، وفي القرآن : « ايحسب الانسان أن يترك سدى » أي مهملا فلا يجازى .

(٥) يمنى : يقذف في الأرحام عند ثوران الشهوة .

فان كان هذا من اضمارك فما أكفرك وأجهلك . أما تتفكرين أنه مساذا خلقك ؟. من نطفة خلقك [1] فقدّرك ، ثم السبيل يسرك ، ثم أماتك فأقبرك . أفتكذبينه في قوله : ثم اذا شاء أنشرك ؟.

فان لم تكوني مكذّبة فما لك لا تأخذين حذرك ؟. ولو أن يهوديا أخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته ، وجاهدت نفسك فيه . أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة، أقل عندك تأثيرا من قول يهودي يخبرك عن حدس [2] وتخمين وظن ، مع نقصان عقل وقصور علم ؟!.

والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربا لرميت ثوبك في الحال ، من غير مطالبة له بدليل أو برهان ، أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ؟. أم صار حر جهنم ، وأغلالها وأنكالها [3] ، وزقومها ومقامعها ، وصديدها وسمومها، وأفاعيها وعقاربها، أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها الا يوما أو أقل منه ؟.

ما هذه أفعال العقلاء ، بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك، وسخروا من عقلك .

---

(١) النطفة : ماء التناسل من الرجل أو المرأة ، وفي العبارة اقتباس من قول القرآن : « من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم اذا شاء أنشره » .

(٢) الحدس : الظن والتخمين والتوهم في معاني الكلام والأمور .

(٣) أنكالها : الأنكال جمع النكل ــ بكسر النون ــ وهو القيد الشديد من أي شيء كان . وفي القرآن : « ان لدينا أنكالا وجحيما » .

فان كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك، وآمنت به، فمالك تسوفين[1] العمل والموت لك بالمرصاد ، ولعله يختطفك من غير مهلة . فبماذا أمنت استعجال الأجل ؟ وهبك أنت وعدت بالامهال مائة سنة ، أفتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة [2] يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟. ان ظننت ذلك فما أعظم جهلك .

أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متعطلا بطالا [3] ، يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه الى وطنه ، هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه ، اعتمادا على كرم الله سبحانه وتعالى !.

ثم هبي أن الجهد في آخر العمر نافع ، وأنه موصل الى الدرجات العلى ، فلعل اليوم آخر عمرك ، فلم لا تشتغلين فيه بذلك ، فان أوحي اليك بالامهال ، فما المانع من المبادرة ، وما الباعث لك على التسويف ؟.

هل لك سبب الا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة ؟.

أفتنتظرين يوما يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ؟. هذا يوم لم يخلقه الله قط ، ولا يخلقه ، فلا تكون الجنة قط الا محفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس ، وهذا محال وجوده .

أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين : غدا غدا ؟. فقد جاء الغد

---

(١) تسوفين : تؤجلين وتماطلين ، وفي المثل : « فلان يقتات السوف، أي يعيش بالأماني » .

(٢) العقبة : الطريق الوعر في الجبل .

(٣) متعطلا بطالا : المتعطل الذي لا عمل له، والبطال صاحب الباطل.

وصار يوما ، فكيف وجدته ؟ أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوما كان له حكم الأمس ؟ لا بل تعجزين عنه اليوم . فأنت غدا عنه اعجز وأعجز ، لان الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبّد العبد [1] بقلعها ، فاذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي ، فأخرها الى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ، ويزيد القاطع ضعفا ووهنا ، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب ، بل من العناء رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب ، والقضيب الرطب يقبل الانحناء ، فاذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك .

فاذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية ، وتركنين الى التسويف ، فما بالك تدعين الحكمة، وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟. ولعلك تقولين : ما يمنعني من الاستقامة الا حرصي على لذة الشهوات ، وقلة صبري على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتك ، وأقبح اعتذارك .

ان كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية من الكدورات الدائمة أبد الآباد [2] ، ولا مطمع في ذلك الا في الجنة ، فان كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها ، فرب أكلة تمنع أكلات .

وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ، ليصح ويهنأ بشربه طول عمره ، وأخبره أنه ان شرب ذلك مرض مرضا مزمنا ، وامتنع عليه شربه طوال العمر ، فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة : أيصبر ثلاثة ايام ليتنعم طول العمر ، أم يقضي شهوته في

---

(١) تعبد العبد بقلعها : أي طلب الله من عبده أن يعبده ويتقرب اليه باقتلاعها .

(٢) أبد الآباد : دهر الدهور ، وهذا يفيد الاستمرار الدائم طول الدهور .

الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام ، حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟.

وجميع عمرك بالاضافة الى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، أقل من ثلاثة أيام بالاضافة الى جميع العمر وان طالت مدته .

وليت شعري : ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مده ، أو ألم النار في دركات [1] جهنم ؟. فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ؟

ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك، الا لكفر خفي، أو لحمق جلي . أما الكفر الخفي فهو ضعف ايمانك بيوم الحساب ، وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب ، وأما الحمق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه ، من غير التفات الى مكره واستدراجه ، واستغنائه عن عبادتك ، مع انك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق بل تتوصلين الى غرضك في جميع ذلك بجميع الحيل .

وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » .

ويحك يا نفس !

لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ، ولا يغرنك بالله الغرور ، فانظري

---

(١) دركات : جمع دركة بمعنى الدرجة الى أسفل .
(٢) الكيس : العاقل . ودان نفسه : اتهمها .

لنفسك . فما أمرك بسهم لغيرك . ولا تضيعي أوقاتك ، فالأنفاس معدودة. فاذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك . فاغتنمي الصحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ، والغنى قبل الفقر . والشباب قبل الهرم . والحياة قبل الموت . واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها .

يا نفس . أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته ، فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب . ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه . حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك . فانه قادر على ذلك .

أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير [1] جهنم أخف بردا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا ؟ كلا أن يكون هذا كذلك . أو يكون هذا كذلك . أو يكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة .

أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي ؟. هيهات . كما لا يدفع برد الشتاء الا بالجبة والنار وسائر الأسباب ، فلا يندفع حر النار وبردها الا بحصن التوحيد وخندق الطاعات . وانما كرم الله تعالى في أن عرّفك طريق التحصن . ويسّر لك أسبابه ، لا في أن يدفع عنك العذاب دون حصنه .

كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار . وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر . حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك . وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك وانما تشترينه لنفسك ، اذ خلقه سببا لاستراحتك ، فطاعاتك ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها ، وانما هي طريقك الى نجاتك ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، والله غني عن العالمين .

---

(١) الزمهرير : شدة البرد .

ويحك يا نفس !•

انزعي عن جهلك ، وقيسي آخرتك بدنياك ، فما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ، وكما بدأنا أول خلق نعيده ، وكما بدأكم تعودون • وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا •

ويحك يا نفس !

ما أراك الا ألفت الدنيا ، وأنست بها ، فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكدين في نفسك مودتها ، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، أفما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك ؟•

أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر ، فمد بصره الى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر لا محالة الى مفارقته ، أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى ؟• أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك ، وما لك فيها الا مجاز [1] ، وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم : « ان روح القدس [2] نفث في روعي : أحبب من أحببت فانك مفارقه ، وأعمل ما شئت فانك مجزي به ، وعش ما شئت فانك ميت » •

ويحك يا نفس !•

أتعلمين أن كل من يلتفت الى ملاذ الدنيا ، ويأنس بها مع أن الموت من ورائه ، فانما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وانما يتزود من السم المهلك وهو لا يدري ؟•

---

(١) مجاز : معبر وطريق . ويقال : جاز فلان الطريق يحوزه جوزا : سلكه وقطعه .

(٢) روح القدس : جبريل عليه السلام . ونفث في روعي : ألقى وأوحى في نفسي وخلدي .

أو ما تنظرين الى الدين مضوا : كيف بنـوا وعلوا ، ثم ذهبـوا وخلوا ، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم ؟، أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون، ويبنون ما لا يسكنون، ويؤملون ما لا يدركون؟،

يبني كل واحد قصرا مرفوعا الى جهة السماء ، ومقره قبر محفـور تحت الأرض . فهل في الدنيا حمق وانتكاس [١] أعظم من هذا ؟ يعمـر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ، ويخرب آخرته وهو صائـر اليهـا قطعا . أما تستحين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ؟.

واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدي الى هذه الأمور ، وانمـا تميلين بالطبع الى التشبه والاقتداء ، فقيسي عقـل الأنبيـاء والعلمـاء والحكماء ، بعقل هؤلاء المكبين [٢] على الدنيا ، واقتدي من الفريقين بمن هو أعقل عندك ، ان كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء .

يا نفس ! ما أعجب أمرك ، وأشد جهلك ، وأظهر طغيانك ! عجبـا لك ، كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ؟.

ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه ، وأدهشك عن فهمها ، أو مـا تتفكرين أن الجاه لا معنى له الا ميل القلوب من بعض النـاس اليك ، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك ، وسيأتي زمـان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك ، كما أتى على الملوك الذين من قبلك : « هل تحس منهم من أحـد أو تسمـع لهم ركزا [٣] » ؟.

---

(١) انتكاس : انقلاب على الراس . وانتكس الرجل في أمره : خاب وخسر .

(٢) أكب الرجل على الشيء اذا لزمه ولم يفارقه .

(٣) ركزا : الركز الصوت الخفي .

فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة ان بقي ؟. هذا ان كنت ملكا من ملوك الأرض ، سلم لك الشرق والغرب ، حتى اذعنت لك الرقاب ، وانتظمت لك الأسباب . كيف ويأبى ادبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك [1] ، بل أمر دارك ، فضلا عن محلتك ؟.

فان كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك ، فما لك لا تتركينها ترفعا عن خسة شركائها ، وتنزها عن كثرة عنائها ، وتوقيا من سرعة فنائها ؟. أم ما لك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ؟. وما لك تفرحين بدنيا ان ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ، ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها ؟ فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء !.

فما أجهلك ، وأخس همتك ، وأسقط رأيك ، اذ رغبت عن أن تكوني في زمرة المقربين من النبيين والصديقين ، في جوار رب العالمين أبد الآبدين ، لتكوني في صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل، فيا حسرة عليك أن خسرت الدنيا والدين !.

فبادري ويحك يا نفس ، فقد أشرفت على الهلاك ، واقترب الموت، وورد النذير ، فمن ذا يصلي عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يرضي عنك ربك بعد الموت ؟.

ويحك يا نفس ، ما لك الا أيام معدودة هي بضاعتك ، ان اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف اذا ضيعت البقية ، وأصررت على عادتك ؟.

أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك ، والقبر بيتك ، والتراب

---

(١) المحلة : المنزل .

فراشك ، والدود أنيسك ، والفزع الأكبر [1] بين يديك ؟. أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك ، وقد آلوا على أنفسهم [2] كلهم بالأيمان المغلظة انهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ؟. أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة الى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم ، وأنت في أمنيتهم ، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه ، وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة ؟.

ويحك يا نفس !.

أما تستحيين ؟ تزينين ظاهرك للخلق ، وتبارزين [3] الله في السر بالعظائم ؟ أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟. ويحك . أهو أهون الناظرين عليك ؟. أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل ؟ تدعين الى الله وأنت عنه فارّة ، وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟. أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة [4] وأن العذرة لا تطهر غيرها ؟ فلم تطمعين في تطهير غيرك ، وأنت غير طيبة في نفسك ؟.

ويحك يا نفس . لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء الا بشؤمك .

ويحك يا نفس ، قد جعلت نفسك حمارا لابليس، يقودك الى حيث يريد ، ويسخر بك ، ومع هذا تعجبين بعملك ، وفيه من الآفات ما لو

---

(١) الفزع الأكبر : نفخة البعث .

(٢) الألوة والألية : الحلف . يقال آلى يؤلي أي أقسم .

(٣) تحاربين الله بارتكاب الكبائر من الذنوب .

(٤) العذرة : ما يخرج من دبر الانسان من البراز .

نجوت منه رأسا برأس [1] لكان الربح في يدك . وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك ، وقد لعن الله ابليس بخطيئة واحـدة ، بعد أن عبده مائتي الف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة ، مع كونه نبيه وصفيه .

ويحك يا نفس ، ما أغدرك . ويحك يا نفس ، ما أوقحك ، ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجـرأك على المعـاصي !. ويحـك كم تقصدين فتنقضين [2] ، ويحك ، كم تعهدين فتغدرين . ويحك يا نفس ، أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها ، أما تنظرين الـى أهل القبور كيف كانوا : جمعوا كثيرا ، وبنوا مشيدا [3] ، وأملوا بعيدا، فأصبح جمعهم بورا ، وبنيانهم قبورا ، وأملهم غرورا .

ويحك يا نفس ، أمالك بهم عبرة ؟ أمالك اليهم نظرة ؟ أتظنين أنهـم دعوا الى الآخرة وأنت من المخلدين ؟. هيهات هيهات ، ساء ما تتوهمين . ما أنت الا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك، فابني على وجه الأرض قصرك ، فان بطنها عن قليل يكون قبرك .

أما تخافين اذا بلغت النفس منك التراقي [4] أن تبدو رسل ربـك منحدرة اليك بسواد الألوان وكلح الوجوه ، وبشرى بالعذاب ؟. فهـل ينفعك حينئذ الندم ، أو يقبل منك الحزن ، أو يرحم منك البكاء ؟.

والعجب كل العجب منك يا نفس أنـك مع هذا تـدعين البصيرة

---

(١) أي لا عليك ولا لك .
(٢) أي تؤكدين العهد ثم تخونين فيه .
(٣) البناء المشيد : المطلي بالجص ، أو المرفوع المطول .
(٤) التراقي : جمع ترقوة ، وهي العظم المكتف ثغر النحر عن يمين وشمال . وفي القرآن : « كلا اذا بلغت التراقي » أي بلغت الـروح أعـالي الصـدر وحشرجت .

والفطنة ، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيـادة مالك ، ولا تحزنين بنقصان عمرك ، وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ؟ .

ويحك يا نفس ! تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك ، وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ، فكم من مستقبل يوما لا يستكمله ، وكم من مؤمل لغد لا يبلغه ، فأنت تشاهدين ذلك في اخوانك وأقاربك وجيرانك، فترين تحسرهم عند الموت ، ثم لا ترجعين عند جهالتك .

فاحذري أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيـه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه ، حتى يسأله عن عمله : دقيقه وجليله ، سره وعلانيته . فانظري يا نفس بأي بدن تقفين امـام الله ، وبأي لسان تجيبين . وأعدي للسؤال جوابا ، وللجواب صوابا ، واعملي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال ، وفي دار زوال لدار مقامـة ، وفي دار حـزن ونصب لدار نعيم وخلود .

اعملي قبل ان لا تعملي ، اخرجي من الدنيا اختيارا خروج الأحرار، قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فرب مسرور مغبون ، ورب مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكـل ويشرب ، وقـد حق له (١) في كتاب الله أنه من وفود النار .

فليكن نظرك يا نفس الى الدنيا اعتبارا (١) ، وسعيك لها اضطرارا، ورفضك لها اختيارا ، وطلبك للآخرة ابتدارا ، ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي ، ويبتغي الزيادة فيما بقي ، وينهى الناس ولا ينتهي .

---

(١) اعتبارا : للتفكر وأخذ العبرة . واضطرارا : أي بقدر الضرورة. واختيارا : بارادتك واختيارك ، وابتدارا : أي مسارعة ومسابقة .

واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض ، ولا للايمان بدل ، ولا للجد خلف ، ومن كانت مطيته الليل والنهار ، فانه يساربه وان لم يسر •

فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة ، واقبلي هذه النصيحة ، فان من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار ، وما أراك بها راضية ، ولا لهذه الموعظة واعية ، فان كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة ، فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام ، فان لم تزل فبالمواظبة على الصيام ، فان لم تزل فبقلة المخالطة والكلام ، فان لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام، فان لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطني نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا ، وخلق النار وخلق لها أهلا ، فكل ميسر لما خلق له •

فان لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك ، والقنوط كبيرة من الكبائر ، نعوذ بالله من ذلك ، فلا سبيل لك الى القنوط ، ولا سبيل لك الى الرجاء ، مع انسداد طرق الخير عليك ، فان ذلك اغترار وليس برجاء ، فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها ؟ وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك ؟

فان سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة [1] ، فقد بقي فيك موضع للرجاء ، فواظبي على النياحة والبكاء، واستغيثي بأرحم الراحمين، واشتكي الى أكرم الأكرمين ، وأدمني الاستغاثة، ولا تملي طول الشكاية، لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فان مصيبتك قد عظمت ، وبليتك قد تفاقمت ، وتماديك قد طال ، وقد انقطعت منك الحيل ، وراحت عنك العلل ، فلا مذنب ولا مطلب ، ولا مستغاث ولا مهرب ، ولا ملجأ ولا منجى الا الى مولاك •

---

(١) اي ان جريان الدمع دليل على الرحمة .

فافزعي اليه بالتضرع ، واخشعي في تضرعك على قــدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك ، لانه يرحم المتضرع الذليــل ، ويغيث الطــالب المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر ، وقد أصبحت اليه اليوم مضطرة ، والى رحمتــه محتاجة ، وقد ضاقت بك السبل ، وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، ولم تنجح فيك العظات ، ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منــه كريم ، والمسؤول جواد ، والمستغاث به بر رؤوف ، والرحمة واسعــة ، والكرم فائض ، والعفو شامل .

وقولي : يا أرحم الراحمين ، يا رحمن يا رحيم ، يا حليم يا عظيم يا كريم ، أنا المذنب المصر ، أنا الجريء الذي لا أقلع ، أنا المتمادي الذي لا أستحي ، هذا مقام المقطوع المسكين ، والبــائس الفقير ، والضعيف الحقير ، والهالك الغريق ، فعجل اغاثتي وفرجي ، وأرني آثار رحمتك ، وأذقني برد عفوك ومغفرتــك ، وارزقني قــوة عصمتــك ، يا أرحــم الراحمين » / هـ .



القنوت

كلمة « القنوت » لها معنى لغوي ، ومعنى شرعي ، ومعنى روحي أخلاقي . فما القنوت في لغة العرب ؟.

القنوت هو الطاعة ، يقال : قنتت الزوجة لزوجها ، أي أطاعته ولذلك تعرض المفسرون لقوله تعالى : « وقوموا لله قانتين [1] » فقالوا : ان المعنى قوموا لله مطيعين في كل شيء . وأورد شيخ المفسرين ابن جرير الطبري حديثا يقول : « كل حرف في القرآن فيه القنوت فانما هو الطاعة » . وقال الضحاك : « القنوت الذي ذكره الله في القرآن انما يعني به الطاعة » . ونص ابن زكريا في « معجم مقاييس اللغة » على أن الأصل في القنوت هو الطاعة ، ثم سميت كل استقامة في طريق الدين قنوتا .

والى جوار هذا ذكروا للقنوت معاني لا تبعد عن هذا الأصل ، فقالوا ان القنوت يفيد معنى القيام ، وذكروا في ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل : أي الصلاة أفضل ؟ فأجاب : طول القنوت . أي طول القيام . وتوسع الأصفهاني في مفهوم القنوت فذكر في « المفردات » أنه لزوم الطاعة مع الخضوع . ويذكر ابن قتيبة في كتابه « تأويل مشكل القرآن » أن القنوت قد يطلق على القيام ، أو الصلاة ، أو الدعاء ، أو

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٣٨ .

الامساك عن الكلام ، أو الاقرار بالعبودية ، أو الطاعة ، ثم قال : « ولا أرى هذا الحرف (أي اللفظ) الا الطاعة ، لان جميع هذه الخلال من الصلاة والقيام فيها والدعاء وغير ذلك يكون عنها » .

وقد أوصل العلماء معاني القنوت الى عشرة معان ، هي : الدعاء ، والخشوع ، والعبادة ، والطاعة ، واقامة الصلاة ، والاقرار بالعبودية ، والسكوت في الصلاة والقيام ، وطول القيام ، ودوام الطاعة ، ونظمها ابن العربي بقوله :

ولفظ القنوت اعدد معانيه تجد مزيدا على عشر معان مرضية
دعاء ، خشوع ، والعبادة ، طاعة اقامتها ، اقرارنا بالعبودية
سكوت صلاة ، والقيام ، وطوله كذاك دوام الطاعة الرابح النية



والقنوت في الشريعة أو في الفقه الاسلامي هو كل كلام تضمن ثناء على الله تعالى ودعاء ، وهذا القنوت يكون في صلاة الوتر عند الحنفية ، وفي صلاة الصبح عند الشافعية ، أو في النازلة التي تنزل بالمسلمين ، وأحكام هذا القنوت مفصلة في كتب الفقه ، والصفة المتكاملة المأثورة للقنوت هي :

« اللهم انا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ، ونؤمن بك ، ونتوكل عليك ، ونثني عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم اياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، واليك نسعى ونحفد[1] ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، ان عذابك الجد بالكفار ملحق .

اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، وقنا شر ما قضيت ، انك سبحانك تقضي ولا

---

(١) نسرع في العمل والعبادة .

يقضى عليك ، انه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تبـارَكت ربنا وتعاليت ، اللهم انا نعوذ برضاك من سخطك ، وبعفـوك من عقوبتك ، وبك منك ، لا نحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » •

وأما القنوت في عرف الأخلاقيين فاننا نلمح فيه معنى التزام الخشوع والضراعة والخشية ، واستشعار الهيبة من الله عز وجل ، ولذلك ذكـر « تفسير المنار » ان القنوت قد يكون عبـارة عن الانصراف عن شؤون الدنيا الى مناجاة الله تعالى ، والتوجه اليه لدعائه وذكره ، ولما كان هذا التوجه يستلزم تفرغا وانقطاعا عن شواغل الحيـاة ، جاء النهي عن كلام الناس في الصلاة لأنها محل قنوت وخشوع لله عز وجل ، ولذلك جاء في حديث ابن مسعود المتفق عليه قال : كنا نسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة فيرد علينا ، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه (وهو في الصلاة) فلم يرد علينا ، فقلنا (أي بعـد الصلاة) : يا رسول الله ، كنا نسلم عليك في الصلاة فترد علينا ؟• فقال : ان في الصلاة شغلا•

وتحقيق القنـوت ــ بمعنى الخشوع والانصراف الـى الله ــ في الصلاة هو الذي يجعلها تحقق ثمرتها التي أشار اليها القرآن الكريم في قوله : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكـر [1] » ، ويجعلها تبلـغ بصاحبها درجة الفوز والفلاح ، كما يقول الكتـاب العزيز : « قـد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون [2] » •

وقد لاحظ أسلافنا صلة القنوت بالفضائـل الأخلاقية والصفـات الزكية ، فقال مجاهد : من القنوت طول الركوع ، وغض البصر ، وخفض الجناح ، والخشوع من رهبة الله • ومن وراء التحلي بفضيلة القنـوت كان صاحبها من السلف اذا دخل الصلاة يهاب الرحمن أن يلتفت ، أو أن

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآيتان ١ و٢ .

يقلب الحصى، أو يعبث بشيء ، أو يحدث نفسه بشيء من أمور الدنيا الا ناسيا .

وهذا هو الصوفي حاتم الأصم يسأله سائل عن صلاته ، فيقول : اذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء ، وأتيت المكان الذي أريد الصلاة فيه ، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي ، ثم أقوم الى صلاتي ، وأجعل الكعبة بين حاجبي ، والصراط تحت قدمي ، والجنة عن يميني ، والنار عن شمالي ، وملك الموت ورائي ، أظنها آخر صلاتي ، ثم أقوم بين الرجاء والخوف ، وأكبر تكبيرا بتحقيق ، وأقرأ قراءة بترتيل ، وأركع ركوعا بتواضع ، وأسجد سجودا بتخشع ، وأقعد على الورك الأيسر ، وأفرش ظهر قدمها ، وأنصب القدم اليمنى على الابهام، وأتبعها الاخلاص، ثم لا أدري أقبلت مني أم لا !.



ونعود الى حديث القنوت في القرآن الكريم ...

لعل من جلال شأن هذه الفضيلة الأخلاقية السامية التي لا يتخلق بها على وجهها القويم الا كل مخلص كريم ، أن نجد كتاب الله العلي الكبير يحلي بهذه الفضيلة جيد خليل الرحمن وابي الأنبياء ابراهيم عليه السلام ، فيقول عنه في سورة النحل : « ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا لم يك من المشتركين [1] » . أي ان ابراهيم كان من كماله وسمو أخلاقه يجمع فضائل لا تكاد توجد الا متفرقة في أشخاص كثيرين، وكان مطيعا لربه قائما بأوامره في اخلاص واحسان ودوام على الطاعة ، وكان موقنا بألوهية الله سبحانه دون سواه ، وكان خاضعا له خاشعا يواظب على عبادته والتقرب اليه ، ولا عجب فقد كان ــ كما يقول بعض

---

(١) سورة النحل ، الآية ١٢٠ .

المفسرين ـ رئيس الموحدين وقدوة المحققين الذي جادل فرق المشركين ، وأبطل مذاهبهم الزائغة بالحجج الدامغة ، وكان حنيفا أي مستقيما على الحق مائلا عن الباطل •

ومن المثير للتأمل والتفكير أننا نجد القرآن الكريم يعنى بوصف طائفة من فضليات النساء بفضيلة القنوت ، وكأني أفهم أن المرأة أشد احتياجا الى القنوت من سواها ، لانها لب المجتمع ، ولانها أساس البيت، ولانها المعلمة الاولى في الحياة وكأني أفهم أيضا أن المرأة بفطرتها وطبيعتها أقرب الى التحلي بفضيلة القنوت والخشوع والطاعة ، متى سلمت من آفات الحياة ، ووجدت عامل التوجيه والتذكير منذ بداية الطريق •

ان القرآن المجيد يخاطب فيما يخاطب نساء النبي صلى الله عليه وسلم فيقول لهن : « ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما [1] » • أي ان من تخضع منكن للايمان بالله وطاعة رسوله ، وتلزم طاعتهما ، وتداوم على صلاحها وعبادتها ، وتعمل العمل الطيب الصالح ، يثيبها الله تبارك وتعالى مرتين ، يثيبها مرة على طاعتها، ومرة على طلبها رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بتحليها بالقناعة وحسن المعاشرة ومعاونة النبي في حياته ، وكذلك يجعل الله تعالى لها رزقا طيبا واسعا في الجنة زيادة على أجرها •

وحينما يأتي موقف عتاب من القرآن الكريم لنساء النبي يذكرهن بأن الله تعالى اذا اختار لرسوله صلى الله عليه وسلم نساء فانه يجعلهن متحليات بفضيلة القنوت مع بقية الفضائل ، فيقول في سورة التحريم : « عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات

---

(١) سورة الاحزاب ، الآية ٣١ .

قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا [1] » ومعنى قانتات أنهن مواظبات على الطاعة ، ملازمـات للعبادة ، مداومات للخشية والخشوع والخوف من الله عز وجل •

ويتحدث القرآن عن مريم البتول الطاهرة العذراء ، ومن حديثه نفهم أن الله تعالى يطلب الى مريم أن تحرص على فضيلـة القنوت التي تجعل المرأة على الدوام موصولة الأسباب بحمى رب الأرباب ، فلا يكون منها الا الطهر والعمـل الصالح • يقـول القرآن في سورة آل عمران : « واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين [2] » • أي اعبديه وأخلصي له في العبادة ، وأديمي له الطاعة ، وواظبي على التقرب اليه ، أو كما يقول القشيري في « لطائف الاشارات » : « لازمي بساط العبادة ، وداومي على الطاعة ، ولا تقصري في استدامة الخدمة ، فكما أفردك الحق بمقامك ، كوني في عبادته أوحد زمانك » •

ولقد استجابت مريم لتوجيه ربها ، واعتصمت بفضيلة قنوتهـا ، وحمد القرآن الكريم لها ذلك ، وخلد في آياته ذكرهـا ، فقال عنهـا في سورة التحريم وهو يضربها مثلا للايمـان : « ومريم ابنة عمـران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين [3] » • أي كانت من المواظبين على الطاعـة ، ولـم تقصر في طاعتها عن طاعة الرجال الكاملين ، ولذلك عدها القرآن من جملتهم •

ويتحدث القرآن عن النساء وموقفهن من الرجـال ، فيذكر فيمـا يذكر أن الزوجة الصالحة هي التي تتحلى بفضيلة القنوت وصدق الطاعة

---

(١) سورة التحريم ، الآية ٥ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ٤٢ و ٤٣ .
(٣) سورة التحريم ، الآية ١٢ .

والاخلاص ، فيقول في سورة النساء : « الرجـال قوامـون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحاتقانتات حافظـات للغيب بما حفظ اللـه [1] » • أي مطيعـات لله ولرسولـه ولأزواجهن ، قائمات بحقوق الزوجية أمينات عليهـا ، حافظات للعهـد والميثاق •

والقرآن الكريم يطالبنا بأن تتحلى بصفة القنوت ، فيقول في سورة البقرة : «حافظوا علىالصلوات والصلاة الوسطىوقوموا لله قانتين[2]» • أي خاضعين مطيعين خاشعين ، واذا كان بعض المفسرين قد قال ان المراد بالقنوت هنا هو الصلاة أو طول القيـام فيها ، فان المتدبر لا يستحسن هذا القول ، اذ ينبغي في هذه الآية الكريمة أن يكون القنوت غير الصلاة وغير القيام فيها ، والا وقع التكرار بلا موجب •

وأكاد أفهم أن القنوت بالمعنى الأخلاقي فيه معنى الطاعة الخاشعـة الراجية الصامتة ، التي تتسم بسمة الدوام والاستمرار ، وقد يؤيد هذا ما قيل من أن أصل القنوت في اللغة هو الدوام على الشيء ، ولذلك قال الطبرسي في « مجمع البيـان » ان الأصل في القنوت الـدوام على أمر واحد ، فالمداوم على الطاعة قانت ، والمداوم على صلاته قانت ، والمداوم على الدعاء قانت • ومن أطال القيام أو القراءة أو السكوت قانت •

وقد تعرض بعض المفسرين لمعنى قولـه تعـالى : « وقوموا للـه قانتين » فذكر أن في القنوت معنى المداومة على الضراعة والخشوع . أي قوموا ملتزمين لخشية الله تعالى ، واستشعار هيبته وعظمته ، ولا تكمل الصلاة وتكون حقيقية ينشأ عنها ما ذكر الله من فائدتهـا الا بهـذا ،

---

(١) سورة النساء ، الآية ٣٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٣٨ .

وهو يتوقف على التفرغ من كل فكر وعمل يشغل عن حضور القلب في الصلاة ، وخشوعه لما فيها من ذكر الله بقدر الطاقة .

والقرآن الكريم يتحدث عن المتقين الفائزين عند ربهم ، فيجعل القنوت ـ بمعنى الدوام على الطاعة والعبادة ، والقيام بالواجبات ـ صفة بارزة من صفاتهم ، وفضيلة كريمة من فضائلهم ، فيقول في سورة آل عمران : « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار [1] » .

وكأن القرآن يشير الى أن فضيلة القنوت تنشأ عن العلم السليم القويم ، لان من حصل العلم النقي الصافي ازداد لله خشية وتقوى، فنجد القرآن يقول في سورة الزمر : « أمّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الألباب [2] » .

ويعود القرآن الكريم ليتحدث عن القنوت ـ بمعنى الخضوع والخشوع ـ فيذكر أنه صيغة عامة لخلق الله جل جلاله ، فكل من في السموات والأرض خاضع لجلال ربه ، ولذلك يقول في القرآن في سورة البقرة : « وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون [3] » . ويقول في سورة الروم : « وله من في السموات والأرض كل له قانتون [4] » . أي مقرون بعبوديتهم له ،

---

(١) سورة آل عمران ، الآيات ١٥ و ١٧ .
(٢) سورة الزمر ، الآية ٩ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١١٦ .
(٤) سورة الروم ، الآية ٢٦ .

بلسان الحال أو لسان المقال ، وهم منقادون لفعله فيهم لا يمتنعون عليه ، خاضعون لارادته ، مقرون بألوهيته ، شاهدون عليها بألسنة أحوالهم وان لم تنطق بها ألسنة مقالهم •

ويقول القرطبي : كل موجود في السموات والأرض ملك لله بالايجاد والاختراع ، وكلهم مطيعون خاضعون . فالمخلوقات كلها تقنت لله ، أي تخضع وتطيع ، والجمادات قنوتها في ظهور الصنعة عليها وفيها ، وكل مخلوق من المخلوقات قائم بالشهادة أنه عبد لله ، فالخلق قانتون قائمون بالعبودية •

ويقول الطبري : ان أولى معاني القنوت في قوله تعالى : « كل له قانتون » هو الطاعة والاقرار لله عز وجل بالعبودية ، بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصنعة ، والدلالة على وحدانيته عز وجل ، وأن الله — تعالى ذكره — بارئها وخالقها ، وذلك أن الله جل ثناؤه أبطل زعم الذين زعموا أن لله ولدا بقوله : « بل له ما في السموات والأرض » ملكا وخلقا ، ثم أخبر عن جميع ما في السموات والأرض أنها مقرة بدلالتها على ربها وخالقها ، وأن الله تعالى بارئها وصانعها ، وان جحد ذلك بعضهم فألسنتهم مذعنة له بالطاعة ، بشهادتها له بآثار الصنعة التي فيها ذلك •

وهنا يقف الانسان المفكر المتدبر متعقلا ومتأملا : اذا كان كل من في الكون . وكل ما في الكون ، من مخلوقات ، مسخرا لأمر الله ، خاضعا لجلاله ، خاشعا بالقهر والتسخير لسلطانه ، فايهما أجدر بالانسان العاقل وأليق ؟ أن يساق على الرغم منه بالقهر والقوة الى ساحة الخضوع والخشوع ، أم يشكر نعمة الله وتكريمه ، ويستشعر هيبته وجلاله ، فيتحلى بفضيلة القنوت الذي هو خضوع وخشوع عن طريق الاقتناع والايمان ، فيقنت لربه في الليل والنهار ، مقرا بربوبيته ، مقبلا على طاعته ، متدثرا بثوب الاحسان والاتقان والاستقامة على التقرب اليه ؟

أيهما أفضل للانسان العاقل : أن يساق الى الخضوع سوق العبيد أم يستجيب للخشوع استجابة العابدين ؟• يستطيع أن يحسن الاجابةعلى هذا من يحسن تدبر قوله تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا [1] » •



(١) سورة الاسراء • الآية ٧٠ •

الاخلاص

كلمة « الاخلاص » تدل على الصفاء والنقاء ، والتنزه من الأخلاط والأوشاب . والشيء الخالص هو الصافي الذي ليس به شائبة مادية أو معنوية ، وذلك كما في قوله تعالى : « وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين [1] » . والخلاص ــ بكسر الخاء ــ ما أخلصته النار من الذهب وغيره . وكذلك الخلاصة بضم الخاء .

وفي الاخلاص أيضا معنى السلامة والنجاة ، لانه يقال : خلص فلان من كذا اذا سلم منه ونجا . وفيه أيضا معنى الصدق والطهارة ، يقال : أخلص فلان لفلان في وده ، اذا كان صادقا فيه طاهرا .

وأما معنى الاخلاص الديني الأخلاقي فهو تجريد قصد التقرب الى الله تبارك وتعالى عن جميع الشوائب والعلل ، والتبري من كل ما دون الله سبحانه ، ولذلك قيل عن سورة : « قل هو الله أحد » انها سورة الاخلاص لانها خالصة لصفة الله تعالى خاصة ، أو لان الناطق بها المؤمن بمعناها قد أخلص التوحيد لله عز وجل . ولقد صور الغزالي حقيقة الاخلاص بقوله :

« اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فاذا صفا عن شوبه

---

(١) سورة النحل ، الآية ٦٦ .

وخلص منه سمي خالصا ، ويسمى الفعل المصفي المخلص اخلاصا ، قال الله تعالى : (من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين) • فانما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ، ومن كل ما يمكن أن يمتزج به • والاخلاص يضاده الاشراك، فمن ليس مخلصا فهو مشرك، الا أن الشرك درجات ، فالاخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الالهية ، والشرك منه خفي ، ومنه جلي ، وكذا الاخلاص ، والاخلاص وضده يتواردان على القلب ، فمحله القلب » •



ولقد ذكر القرآن الكريم « اخلاص الدين لله » في مواطن كثيرة ، كقوله في سورة البينة : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة [١] » • الدين الخالص هو الدين السليم الطاهر ، الذي لا تشوبه شائبة من شرك أو رياء ، ويقال : أخلص الانسان دينه لله ، أي جعله كله ابتغاء وجه الله ، ووقفه عليه محضا خالصا من كل عيب أو دنس •

ويقول القرآن في سورة النساء : « ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ، الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما [٢] » • ويذكر تفسير المنار أن اخلاص الدين لله هو أن يتوجه الانسان بدينه الى ربه وحده ، لا يدعو من دونه أحدا ، ولا يدعو معه أحدا ، لا لكشف ضر ، ولا لجلب نفع ، ولا يتخذ من دونه أولياء يجعلهم وسطاء عنده ، بل يكون كل ما يتعلق بالدين والعبادة خالصا له وحده ،

(١) سورة البينة ، الآية ٥ .

(٢) سورة النساء ، الآيتان ١٤٥ و١٤٦ .

لا تتوجه فيه النفس الى غيره ، ولا يسأل اللسان سواه . ولا يستعان – فيما وراء الأسباب العامة – بمن عداه .

ويتعرض ابن جرير الطبري للآية فيقول فيما يقول : « وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التي يعملونها لله ، فأرادوه بها ، ولم يعملوها رئاء الناس ، ولا على شك منهم في دينهم ، وامتراء منهم في أن الله محص عليهم ما عملوا ، فيجازي المحسن باحسانه ، والمسيء باساءته ، ولكنهم عملوها على يقين منهم في ثواب المحسن على احسانه ، وجزاء المسيء على اساءته ، أو يتفضل عليهم ربهم فيعفو ، متقربين بها الى الله ، مريدين بها وجهه ، فذلك معنى اخلاصهم لله دينهم .

ثم قال جل ثناؤه : (فأولئك مع المؤمنين) . يقول : فهؤلاء الذين وصف صفتهم من المنافقين ، بعد توبتهم واصلاحهم ، واعتصامهم بالله ، واخلاصهم له ، مع المؤمنين في الجنة ، لا مع المنافقين الذين ماتوا على نفاقهم ، الذين أوعدهم الله الدرك الأسفل من النار . ثم قال : (وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما) يقول : وسوف يعطي الله هؤلاء الذين هذه صفتهم على توبتهم واصلاحهم ، واعتصامهم بالله ، واخلاصهم دينهم له ، على ايمانهم ثوابا عظيما ، وذلك درجات في الجنة » .



ويقول القرآن المجيد في سورة الأعراف : « قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون [1] » ويعلق تفسير المنار على هذا النص الكريم بقوله : « والمعنى : أعطوا توجهكم الى الله تعالى عند كل مسجد تعبدونه فيه

(١) سورة الاعراف ، الآية ٢٩ .

حقه من صحة النية وحضور القلب وصرف الشواغل ، سواء كانت العبادة طوافا أو صلاة أو ذكرا أو فكرا ، وادعوه وحده مخلصين له الدين ، بأن لا تشوبوا دعاءكم ولا غيره من عبادتكم له بأدنى شائبة من الشرك الأكبر، وهو التوجه الى غيره من عباده المكرمين ، كالملائكة والرسل والصالحين، ولا الى ما وضع للتذكير بهم ، من الأصنام والقبور وغيرها ، ولا من الشرك الأصغر ، وهو الرياء وحب اطلاع الناس على عبادتكم ، والثناء عليكم ، والتنويه بذكركم فيها ، وكانوا يتوجهون الى غيره زاعمين أن المذنب لا يليق به أن يقبل على الله وحده ويقيم وجهه له حنيفا ، بل لا بد له أن يتوسل اليه بأحد من عباده الطاهرين المكرمين، ليشفع لهم عنده، ويقربهم اليه زلفى ، وهذا من وسواس الشيطان » •

ويقول الله تعالى في سورة الزمر : « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ، ألا لله الدين الخالص [1] » • ويتحدث الفخر الرازي عن هذا النص الكريم ، فيقول ضمن ما يقول : « انه تعالى لما بيّن في قوله (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق) أن هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق والصواب ، أردف هنا بعض ما فيه من الصدق ، وهو أن يشتغل الانسان بعبادة الله تعالى على سبيل الاخلاص ، فهو المراد من قوله تعالى : (فاعبد الله مخلصا) وأما براءته من عبادة غير الله تعالى فهو المراد بقوله : (ألا لله الدين الخالص) لان قوله : ألا لله ، يفيد الحصر ، ومعنى الحصر أن يثبت الحكم في المذكور ، وينتفي عن غير المذكور » • ثم أضاف : « أما العبادة فهي فعل أو قول ، أو ترك فعل أو ترك قول يؤتى به لمجرد اعتقاد أن الأمر به عظيم يجب قبوله •

وأما الاخلاص فهو أن يكون الداعي له الى الاتيان بذلك الفعل أو الترك مجرد هذا الانقياد والامتثال ، فان حصل منه داع آخر فاما

---

(١) سورة الزمر ، الآيتان ٢ و٣ •

أن يكون جانب الداعي الى الطاعة راجحا على الجانب الآخر ، أو معادلا له ، أو مرجوحا . وأجمعوا على أن المعادل والمرجوح ساقط . وأما اذا كان الداعي الى طاعة الله راجحا على الجانب الآخر ، فقد اختلفوا في أنه: هل يفيد أم لا . وقد ذكرنا هذه المسألة مرارا ، ولفظ القرآن يدل على وجوب الاتيان به على سبيل الخلوص ، لان قوله (فاعبد الله مخلصا) صريح في أنه يجب الاتيان بالعبادة على سبيل الخلوص ، وتأكد هذا بقوله تعالى : (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) .

وأما بيان الوجوه المنافية للاخلاص فهي الوجوه الداعية للشريك ، وهي أقسام : أحدها أن يكون للرياء والسمعة فيه مدخل . وثانيها أن يكون مقصوده من الاتيان بالطاعة الفوز بالجنة والخلاص من النار . وثالثها أن يأتي بها ويعتقد أن لها تأثيرا في ايجاب الثواب أو دفع العقاب. ورابعها وهو أن يخلص تلك الطاعات عن الكبائر حتى تصير مقبولة ، وهذا انما يعتبر على قول المعتزلة » .

ويعود الذكر الحكيم ليؤكد الحث على فضيلة الاخلاص لله والدعوة اليها ، فيقول : « قل اني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ، وأمرت لان أكون أول المسلمين ، قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، قل الله أعبد مخلصا له ديني ، فاعبدوا ما شئتم من دونه [1] » . ونلاحظ هنا أن السورة قد بدأت بالأمر باخلاص الدين ، ثم جاءت هذه الآيات تأمر الرسول صلى الله عليه وسلم — ومن ورائه أتباعه — أن يعبد الله مخلصا له الدين ، وأن يقول : الله أعبد مخلصا له ديني ، وقد يظن ظان أن هذا تكرار لا مسوغ له ، ولكن الرازي ينفي هذا الظن بأنه لا تكرار ، لان الأول اخبار بأنه مأمور من جهة الله تعالى بالاتيان بالعبادة، والثاني اخبار بأنه أمر بأن لا يعبد أحدا غير الله ، وذلك لان قوله :

(١) سورة الزمر ، الآيات ١١ و ١٥ .

« أمرت أن أعبد الله » لا يفيد الحصر ، وقوله تعالى : « قل الله أعبد » يفيد الحصر ، يعني : الله أعبد ولا أعبد أحدا سواه .



ومن عظيم شأن الاخلاص أننا نجد القرآن المجيد ينسبه الى أنبياء الله ورسله ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فيقول في سورة مريم : « واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا [1] » . وكلمة « مخلصا » فيها قراءتان ، الأولى بفتح اللام عند حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ، ومعناه : أخلصه الله وجعله مختارا خالصا من الدنس . والقراءة الثانية بكسر اللام ، عند ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر والمفضل عن عاصم ، ومعناه : الذي وحد الله ، وجعل نفسه خالصة في طاعة الله غير دنسة .

وقال الله تعالى في سورة يوسف عن يوسف : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين [2] » . وفي كلمة « المخلصين » قراءتان أيضا .

وفي سورة ص : « واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ، انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار [3] » . وأخلصناهم : أي اخترناهم واصطفيناهم ، والخالصة هي الخلة والصفة ، أي اصطفيناهم بسبب خلة خاصة فيهم ، هي تذكيرهم بالدار الآخرة ، وذلك شأن الأنبياء .

ولجلال فضيلة الاخلاص لا يستطيع الشيطان أن يسيطر على

---

(١) سورة مريم ، الآية ٥١.
(٢) سورة يوسف ، الآية ٢٤ .
(٣)سورة ص ، الآيات ٤٥ ــ ٤٧ .

المخلصين من عباد الله تبارك وتعالى ، ولذلك يقول القرآن الكريم في سورة الحجر عن الشيطان : « قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين [1] » . ثم قال الله تعالى بعد قليل يخاطب ابليس : « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين » . وفي سورة (ص) يقول القرآن عن الشيطان : « قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين [2] » .

ولقد تكرر قول الله تعالى في سورة الصافات عدة مرات ، وفي هذه المرات استثنى الله هؤلاء المخلصين ، ليكونوا بمنجاة من مواقف الاثم ومواطن السوء ، وليفوزوا بالخير والنعيم في الدنيا والآخرة .

يقول الله تعالى في سورة الصافات : « انكم لذائقو العذاب الأليم ، وما تجزون الا ما كنتم تعملون ، الا عباد الله المخلصين ، أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون ، في جنات النعيم على سرر متقابلين ، يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين ، لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ، وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون [3] » .
ويا له من ثواب جليل ونعيم عظيم .

ويقول في السورة نفسها : « فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ، الا عباد الله المخلصين [4] » . ثم يقول فيها أيضا : « فكذبوه فانهم لمحضرون ، الا عباد الله المخلصين [5] » . ثم يقول كذلك : «سبحان الله عما يصفون ،

---

(١) سورة الحجر ، الآيتان ٣٩ و ٤٠ .
(٢) سورة ص ، الآية ٨٣ .
(٣) سورة الصافات ، الآيات ٣٨ ــ ٤٩ .
(٤) سورة الصافات ، الآيتان ٧٣ و٧٤ .
(٥) سورة الصافات ، الآيتان ١٢٧ و١٢٨ .

الا عباد الله المخلصين [1] » . ثم يقول أخيرا : « وان كانوا ليقولــون : لو أن عندنا ذكراً من الأولين ، لكنا عباد الله المخلصين [2] » .



والطريق الى الاخلاص هو محاربة أهواء النفس ، ومقاومة الطمع في الدنيا ، والتجرد للاقبال على الآخرة ، واحيـاء خشية الله في القلب ، وهذا الاخلاص اذا صدق استلزم صواب العمل وطهارته ، ولقـد سمع الفضيل بن عياض قول الله تبارك وتعالى : « الذي خلق الموت والحيـاة ليبلوكم أيكم أحسن عملا [3] » فقال : أحسن العمل هو أخلصه وأصوبه . فقالوا له : ما أخلصه وأصوبه ؟ . فأجاب : ان العمل اذا كان خالصا ولـم يكن صوابا لم يقبل ، واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبـل ، حتى يكون خالصا وصوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنّة . ثم تلا قول الله تبـارك وتعالى : « فمن كان يرجو لقـاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا [4] » .

وللاخلاص ثمرات كثيرة جليلة منها ما يلي :

أولا : محبة الله تعالى لمن أخلص له ، فقد جـاء في الأثر أن الله تبارك وتعالى يعطي الاخلاص لمن يحبه كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه ابن ماجد « من فارق الدنيا على الاخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، فارقها والله عنه راض » .

ثانيا : قبول الله تعالى من المخلص ، لان الحديث يقـول : « ان الله لا يقبل من العمل الا ما كان خالصا وابتغي به وجهه » .

---

(1) سورة الصافات ، الآيتان ١٥٩ و١٦٠ .
(2) سورة الصافات ، الآيات ١٦٧ ـ ١٦٩
(3) سورة الملك ، الآية ٢ .
(4) سورة الكهف ، الآية ١١٠ .

ثالثا : انقطاع الوسواس عن الانسان ، ولذلك يقول أبو سليمان الداراني الصوفي : « اذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوسواس والرياء » •

رابعا : صرف السوء والفحشاء عن الشخص المخلص ، ولعل هذا بعض ما نفهمه من قول الله تعالى عن يوسف عليه السلام : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين [1] » •

خامسا : تفجر الحكمة من المخلص ، فقد قال مكحول : « ما أخلص عبد قط أربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » •

سادسا : نصر الله للمخلص ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه النسائي : « انما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم واخلاصهم » •

سابعا : زيادة مضاعفة الحسنات ، فاذا كان الله تبارك وتعالى قد وعد ـ وهو الكريم وصاحب الفضل العظيم ـ بان يثيب الحسنات بأضعافها ، وقال : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها [2] » ، ووعد بأكثر من العشرة الى سبعمائة ضعف ، بل الى ما فوق السبعمائة ، فان هذه الزيادة في الأضعاف تنمو بحسب تمكن الاخلاص من نفس المؤمن، فكلما زادت مكانته في الاخلاص علوا ، زادت مثوبته على الحسنات أضعافا مضاعفة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم •

ولهذا قال معاذ بن جبل : « لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن قلت له : يا رسول الله ، أوصني • فقال : « أخلص

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٢٤ .
(٢) سورة الانعام ، الآية ١٦٠ .

دينك يكفك القليل من العمل » . أي اجعل ايمانك خالصا مما يشوبه من شهوات النفس ، واجعل طاعتك كلها لوجه الله ، يصبح القليل من عملك كثيرا مباركا .

ولقد عني الحديث القدسي بأمر الاخلاص والتحذير من ضده ، فجاء فيه : « أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به ، وأنا منه بريء [1] » . ويقول الله تعالى في الحديث القدسي أيضا : «الاخلاص سر من سري ، استودعته قلب من أحببت من عبادي » .

وعني الحديث النبوي كذلك بأمر الاخلاص ، فجاء فيه : « ثلاث لا يغلّ عليهن قلب مسلم : اخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، فان دعوتهم تحيط من ورائهم » . ومعنى : « لا يغل عليهن » هو كما قال ابن القيم : لا يبقى في قلب المؤمن غل مع وجود هذه الأمور الثلاثة. وروى مسلم قول النبي صلى الله عليه وسلم: « ان الله لا ينظر الى أجسامكم ، ولا الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم » .



وللاخلاص ارتباط وثيق بالنية ، ولو قلنا ان الاخلاص هو تطهير النية وتجريدها لله عند العمل والسعي، لما بعدنا عن الحقيقة، ولذلك جاء في الحديث المتفق عليه : « انما الاعمال بالنيات » [2] . وكتب عمر الى ابي موسى الاشعري يقول له : « من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس » .

---

(١) انظر كتابي « أدب الاحاديث القدسية » ص ٥١ و ٢٢٣ .
(٢) انظر كتابي « من أدب النبوة » ص ٩ — ١٣ .

وأعدى أعداء الاخلاص هو الرياء ، فلو ان الانسان راءى بعمله ، ولم يقصد به وجه الله اطلاقا فسد عمله ، ولعل هذا هو المراد من الحديث القائل : « أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة : رجل آتاه الله العلم ، فيقول الله تعالى : ما صنعت فيما علمت ؟ • فيقول : يا رب ، كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار • فيقول الله تعالى : كذبت • وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت ان يقال : فلان عالم ، ألا فقد قيل ذلك •

ورجل آتاه الله مالا ، فيقول الله تعالى : لقد أنعمت عليك فماذا صنعت ؟ • فيقول : يا رب ، كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار • فيقول الله تعالى : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت ان يقال : فلان جواد ، ألا فقد قيل ذلك •

ورجل قتل في سبيل الله تعالى ، فيقول الله تعالى : ماذا صنعت ؟ • فيقول : يا رب ، أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت • فيقول الله : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت ان يقال : فلان شجاع ، ألا فقد قيل ذلك •



ورجال التصوف عنوا كثيرا بأمر الاخلاص ، وأثرت عنهم أفانين من الكلمات والعبارات فيه ، ومنها ما يلي :

قال سهل : الاخلاص ان يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة •

وقال ابراهيم بن أدهم : الاخلاص صدق النية مع الله تعالى •

وقال رويم : الاخلاص في العمل هو ان لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين •

وقال أبو عثمان : الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر الى الخالق فقط .

وقال المحاسبي : الاخلاص هو اخراج الخلق عن معاملة الرب .

وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والاخلاص أن يعافيك الله منهما . وكان معروف الكرخي يقول لنفسه : أخلصي تتخلصي .

وقال الجنيد : ان لله عبادا عقلوا ، فلما عقلوا عملوا ، فلما عملوا أخلصوا ، فاستدعاهم الاخلاص الى باب البر أجمع .

وقال حاتم الأصم : يعرف الاخلاص بالاستقامة ، والاستقامة بالرجاء ، والرجاء بالارادة ، والارادة بالمعرفة .

وقال أحمد بن عاصم : اذا عملت عملا صالحا ، فلم تحب أن تذكر به وتعظم من أجل عملك ، ولم تطلب ثواب عملك من سواه ، فذلك اخلاص عملك .

وقال عبدالله الأنطاكي : اخلاص العمل أشد من العمل ، والعمل يعجز عنه الرجال .

وقال محمد بن علي الترمذي : ليس الفوز هناك بكثرة الأعمال انما الفوز هناك باخلاص الأعمال وتحسينها .

وقال خير النساج : الاخلاص هو الذي لا يقبل عمل عامل الا به ... الخ .



وهناك نوع من الاخلاص قد نستطيع أن نسميه بالاخلاص الموقوت أو المتقطع ، ويمكن أن نلحظه حين نجد القرآن الكريم يقول في سورة

يونس : « هو الـذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجـاهم اذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ! يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ، ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون »[1] .

ويقول في سورة العنكبوت : « فاذا ركبـوا في الفلك دعـوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركـون ، ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون [2] » .

ويقول في سورة لقمـان : « واذا غشيهم موج كالظلل دعـوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور [3] » .

ومعنى دعائهم هنا ـ كما يقول الآلوسي ـ هو أنهم دعوا الله من غير اشراك سواه في الرجاء ، لرجوعهم من شدة الخوف الى الفطـرة التي جبل عليها كل أحد من التوحيد ، وأنه لا متصرف الا اللـه سبحانـه ، وهذا شيء مركوز في طبائع الناس يظهر عند الشدائد .

ولقد روي أن عكرمة بن أبي جهل ركب البحر يوم فتح مكة هاربا، فأصابتهم ريح عاصف ، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : أخلصوا ، فان آلهتكم لا تغني عنكم شيئا .

فقال عكرمة : لئن لم ينجني في البحر الا الاخلاص ، ما ينجيني في

(١) سورة يونس ، الآيتان ٢٢ و٢٣ .
(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٦٥ .
(٣) سورة لقمان ، الآية ٣٢ .

البر غيره ، اللهم ان لك عهدا ان أنت عافيتني مما أنا فيه ، أن آتي محمدا حتى أضع يدي في يده ، فلأجدنه عفوا كريما .

ثم جاء عكرمة الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأعلن اسلامه .

وفي رواية أن عكرمة لما ركب السفينة ، وأخذتهم الريح ، وجعلوا يدعون الله تعالى ويوحدونه ، قال :ما هذا ؟.

فقالوا : هذا مكان لا ينفع فيه الا الله تعالى .

قال : فهذا اله محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي يدعونا اليه ، فارجعوا بنا .

ورجع فأسلم !!..



وفضيلة الاخلاص نعمة يمن بها الله تبارك وتعالى على من يشاء من عباده ، واذا أبغض الله عبدا فاسقا أو مرائيا ، حرمه هذه الفضيلة ، ولذلك قال بعض السلف : « اذا أبغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ، ومنعه ثلاثا: أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم ، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الاخلاص فيها ، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها » .

وما أصدق قول القائل : العلم بذر، والعمل زرع، وماؤهالاخلاص.



ومن آفات الاخلاص عجب الانسان بعمله ، ورؤيته له ، ويقول ابن القيم لعلاج هذه الآفة :

« فالذي يخلصه من رؤية عمله مشاهدته لمنة الله عليه ، وفضله وتوفيقه له ، وأنه بالله لا بنفسه ، وأنه انما أوجب عمله مشيئة الله لا

مشيئتــه هو ، كمــا قال تعــالى : « وما تشاؤون الا ان يشاء الله رب العالمين [1] » .

فهنا ينفعه شهود الجبر ، وأنه آلة محضة ، وأن فعلــه كحركــات الأشجار وهبوب الرياح وأن المحرك له غيره ، والفاعل فيه سواه . وأنه ميت ، والميت لا يفعل شيئا ، وأنه لو خلي ونفسه لم يكن من فعله الصالح شيء ألبتة ، فان النفس جاهلة ظالمة ، طبعها الكسل وايثــار الشهــوات والبطالة ، وهي منبع كل شر ، ومأوى كل سوء، وما كان هكذا لم يصدر منه خير ، ولا هو من شأنه .

فالخير الذي يصدر منها انما هو من الله وبه ، لا من العبد ولا به ، كما قال تعالى : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ، ولكن الله يزكي من يشاء [2] » . وقال أهل الجنة : « الحمد لله الذي هدانا لهذا » . وقال تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا [3] » . وقال تعالى : « ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم [4] » الآية .

فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته ، واحسانه ونعمتــه ، وهو المحمود عليه ، فرؤية العبد لأعمالــه في الحقيقة كرؤيته لصفاتــه الخلقية : من سمعه وبصره ، وادراكه ، وقوته ، بل من صحته وسلامــة أعضائه ، ونحو ذلك ، فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله .

فالذي يخلص العبد من هذه الآفة معرفــة ربه ، ومعرفــة نفسه . والذي يخلصه من طلب العوض على العمل علمه بأنه عبد محض ، والعبد

---

(١) سورة التكوير ، الآية ٢٩ .
(٢) سورة النور ، الآية ٢١ .
(٣) سورة الاسراء ، الآية ٧٤ .
(٤) سورة الحجرات ، الآية ٧ .

لا يستحق على خدمته لسيده عوضا ولا أجرة ، اذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته ، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه ، واحسان اليه ، وانعام عليه ، لا معاوضته ، اذ الأجرة انما يستحقها الحر ، أو عبد الغير ، فأما عبد نفسه فلا .

والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه اليه أمران : أحدهما مطالعة عيوبه وآفاته ، وتقصيره فيه ، وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان ، فقلّ عمل من الأعمال الا وللشيطان فيه نصيب وان قل ، وللنفس فيه حظ .

سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن التفات الرجل في صلاته ، فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » .

فاذا كان هذا التفات طرفة أو لحظة ، فكيف التفات قلبه الى ما سوى الله ؟. هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية .

وقال ابن مسعود : « لا يجعل أحدكم للشيطان حظا من صلاته ، يرى أن حقا عليه : ان لا ينصرف الا عن يمينه » . فجعل هذا القدر اليسير النزر حظا ونصيبا للشيطان من صلاة العبد ، فما الظن بما فوقه ؟.

أما حظ النفس من العمل : فلا يعرفه الا أهل البصائر الصادقون .

الثاني : علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها ، وأن العبد أضعف وأعجز ، وأقل من أن يوفيها حقا ، وأن يرضى بها لربه ، فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربه ، ولا يرضى نفسه لله طرفة ، ويستحي من مقابلة الله بعمله .

فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها ، وكراهته لأنفاسه وصعودها الى الله يحول بينه وبين الرضى بعمله والرضى عن نفسه » .



وقد يسأل سائل فيقول : وما حكم العمل المشوب بحظ من حظوظ الدنيا ؟ وما مكانه من الرضى والقبول عند الله عز وجل ؟

ويجيب الغزالي عن ذلك بأن العمل اذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى ، بل اختلط به شوب من الرياء أو حظوظ النفس ، فقد اختلفوا : أيقتضي ثوابا ، أم يقتضي عقابا ، أم لا يقتضي شيئا أصلا ، فلا يكون له ولا عليه •

وأما العمل الذي يكون كله رياء فانه يكون محسوبا على صاحبه ، ويكون سبب المقت والعقاب له ، وأما العمل الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب ، وانما النظر في العمل المشوب، فظاهر الأخبار الواردة تدل على أنه لا ثواب له ، ولكن الأخبار هنا لا تخلو من تعارض ، والظاهر لنا ــ والعلم عند الله ــ أن ننظر الى قدر قوة الباعث على العمل ، فان كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا ، وصار العمل لا له ولا عليه ، وان كان باعث الرياء أغلب وأقوى ، فهو ليس بنافع ، وهو مع ذلك يضر صاحبه ويفضي به الى العقاب ، وان كان عقابه أقل من عقاب العمل الذي لا شيء فيه سوى الرياء •

وان كان قصد التقرب الى الله تعالى أغلب بالاضافة الى الباعث الآخر ، فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني ، لأن الله تعالى يقول : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرايره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرايره [1] » • ويقول : « ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها [2] » •

فلا ينبغي ان يضيع قصد الخير في العمل ، بل ان كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت الزيادة ، وان كان قصد

---

(١) سورة الزلزلة ، الآيتان ٧ و٨ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٤٠ .

الخير مغلوبا سقط بسببه جانب من العقوبة التي ستكون بسبب تغلب الرياء .

والحافظ العراقي يذكر أن الأخبار الواردة بشأن أن العمل المشوب لا أجر له ، لا تخلو من تعارض، وذكر حديثا فيه أن رجلا قال : يا رسول الله ، رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله ، وهو يبتغي عرضا من أعراض الدنيا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا أجر له » . ثم ذكر حديثا آخر رواه أبو هريرة ، وفيه أن الرسول سئل عن الرجل يعمل العمل فيسره ، فاذا اطلع عليه أعجبه . فقال : له أجران ، أجر السر ، وأجر العلانية » .

والمرجو من فضل الله ورحمته أن يتجاوز بعفوه عما يعرض للانسان في اثناء عمله من حظوظ النفس أو أهواء الذات ، فان استكمال حقيقة الاخلاص ، وتجريد النفس من هواها ، طريق شاق عسير ، ونستطيع ان نتبين ذلك في اشفاق وخوف من حديث الغزالي حين يضرب أمثلة للمرائين الذين يخلطون التقرب الى الله بغرض آخر من أغراض الدنيا ، قل أو كثر ، فيقول :

« ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب ، أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤونته، وسوء خلقه، أو يحج ليصبح مزاجه بحركة السفر ، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده ، أو ليهرب من عدو له في منزله ، أو يتبرم بأهله وولده ، أو بشغل هو فيه ، فأراد أن يستريح منه أياما ، أو يغزو ليمارس الحرب ، ويتعلم أسبابه ، ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها .

أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ، ليراقب أهله أو رحله ، أو يتعلم العمل ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال ، أو ليكون

عزيزا بين العشيرة ، أو ليكون عقاره أو ماله محروسا بعز العلم عن الأطماع •

أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص من كرب الصمت ، ويفترج بلذة الحديث ، أو تكفل بخدمة العلماء أو الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس ، أو لينال به رفقا [1] في الدنيا ، أو كتب مصحفا ليجدد بالمواظبة على الكتابة خطه ، أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء ، أو توضأ ليتنظف أو يتبرد ، أو اغتسل لتطيب رائحته •

أو روى الحديث ليعرف بعلو الاسناد ، أو اعتكف في المسجد ليخفف كراء المسكن ، أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام ، أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها ، أو تصدق على السائل ليقطع ابرامه في السؤال عن نفسه ، أو يعود مريضا ليعاد اذا مرض ، أو يشيع جنازة لتشيع جنائز أهله ، أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به ، وينظر اليه بعين الصلاح والوقار •

فمهما كان باعثه هو التقرب الى الله تعالى ، ولكن انضاف اليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور ، فقد خرج عمله عن حد الاخلاص ، وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى ، وتطرق اليه الشرك •• » !•

حسبك يا « حجة الاسلام » حسبك !•• لقد شققت على كثير من الناس يسعون في الطريق بأقل من همتك وعزيمتك ، ودون ما طمحت اليه وأدرت البيان عليه ، وهم يطمعون في عفو الله وفضله ، والله هو صاحب الفضل العظيم ••

ان الانسان لا يخلو تماما من جميع الكدورات والشوائب ، ولا

---

(١) أي لينال به لينا ورفاهة في المعيشة .

يصفو على الدوام من جميع العلل، والاخلاص يكون لقلب العبد المخلص بالتجرد من الشرك والغل والتهم ، وأما الصفاء الكامل الذي لا تصحبه علة ، أو الطهارة من جميع أوصاف البشرية على الدوام ، فليس ذلك من شأن الانسان ، وجل المنزه عن النقص والعيب •

وهناك فرقة من الفرق الصوفيةقد ضلت الطريق كما ضلت التحقيق حين زعمت أن الاخلاص لا يصح لعبد الا اذا خرج عن رؤية الخلق ، ولم يوافقهم في جميع ما يريدأن يعمله ، سواء أكان ذلك حقا أم باطلا • وقد رد أبو النصر الطوسي في كتابه « اللمع » على ضلال هذه الفرقة فقال :

« وانما ضلت هذه الفرقة لان جماعة من أهل الفهم والمعرفة تكلموا في حقيقة الاخلاص : أن لا يصفو لهم ذلك حتى لا يبقى على العبد بقية من رؤية الخلق والكون وكل شيء غير الله تعالى •

فظنت هذه الفرقة وطمعت أن ذلك يصح لهم بالدعوى والتقليد والتكلف ، قبل سلوك مناهجها ، والتأدب بآدابها ، والابتداء ببداياتها ، حتى يؤديه ذلك الى نهاياتها ، حالا بعد حال ، ومقاما بعد مقام ، فأداهم الدعوى والطمع الكاذب الى قلة المبالاة وترك الأدب ، ومجاوزة الحدود فأسرهم الشيطان ، وغلبتهم النفس والهوى ، بما خيل اليهم أنهم برسم المخلصين في الاخلاص ، وهم في عين الضلالة والانتقاص ، وأنَّى لهم من ذلك الخلاص ؟•

وقد خفي عليهم — لشقاوتهم — أن العبد المطلوب بدرجة الاخلاص هو العبد المهذب المؤدب ، الذي هجر السيئات ، وجرد الطاعات ، وعمل في الارادات ، ونازل الأحوال والمقامات ، حتى أداه ذلك الى صفاء الاخلاص •

فأما من هو أسير هواه ، ورهين نفسه وشيطانه ، وهو « في ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها » فهو محجوب عن حال أهل البدايات ، فكيف يصل الى ما بعد ذلك ؟•

فمثل هؤلاء كمثل من سمع بالجوهرة النفيسة أنها تكون صافية مدورة ، فوقع في يده خرزة من الزجاج فأعجبته تلك ، لأنها مدورة صافية ، فلما احتاج اليها حملها الى من يعرف الجواهر ، فقال له : هي زجاجة لا قيمة لها ، فلم يدعه الجهل والطمع الكاذب أن يرمي بها من قلة معرفته بالزجاج والجوهر .



وفضيلة الاخلاص هي التي تحرك في نفس الانسان كريم البواعث ونبيل الحوافز ، فلا يتحرك الى العمل لهوى خسيس ، أو غل دنيء ، أو رياء موبق ، بل يتحرك طلبا لرضا الله سبحانه ، وحبا في عمل الخير ، ورغبة في التعاون مع كرام الناس ، وتطلعا الى سيادة الحق والعدل والبر ، وهذا لا يمنع الانسان أن يتمتع بالطيبات وزينة الله في هذه الحياة .

والاخلاص بعد هذا تتعدد جهاته ونواحيه ومقاصده في الحياة ، فاذا كنا نرى في القمة اخلاص العبد لربه، وهو افراده بالعبادة والتقديس، ففي ظلال هذه القمة تبدو ألوان أخرى من الاخلاص ، فهناك اخلاص الانسان لوطنه ، بان يحبه ويدافع عنه ، ويضحي في سبيله بالنفس والنفيس ، وهناك اخلاص المرء لأهله وأصدقائه ومواطنيه ، وهناك اخلاص المرء لبني الانسان . وهم اخوته في الانسانية ، بأن يريد لهم الخير ، ويعمل لذلك ما استطاع اليه سبيلا .

وما شاع الاخلاص بين قوم في شؤون الدين والدنيا الا عمهم الخير والحق ، وزهق بينهم الشر والباطل ، وكانوا في الأولى والآخرة من السعداء .

الوفـــاء

ان مادة « وفى » تدل على الاكمال والاتمام ، وجاءت من المادة كلمة « الوفاء » بمعنى اتمام العهد واكمال الشرط . وأقول : أوفيتك الشيء اذا قضيتك اياه وافيا . وأقول : استوفيتك حقي ، أو توفيتك حقي ، أي أخذته كاملا . وفي الحديث : « أوفى الله ذمتك » أي أتمها ، وكل شيء بلغ تمام الكمال فقد وفي وتم ، والوفيّ — بوزن الغني — هو الذي يعطي الحق ، وسُمّي الموت وفاة لاستيفاء الميت مدته التي وُفّيت له ، ومنه قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها (١) » أي يستوفي مدد آجالهم ، أو يستوفي تمام عددهم الى يوم القيامة .

هذا بعض حديث اللغة عن مادة «الوفاء» . واما حديث الاخلاق فاننا نجد فيه تعريفهم الوفاء بقولهم : الوفاء هو ملازمة طريق المواساة ، والمحافظة على عهود الخلطاء ، ونجد الغزالي يصف وفاء الأخ لأخيه بأنه الثبات على حبه حتى الموت ، وبعد الموت مع اولاده واصدقائه .

ولقد تحدث القرآن الكريم عن فضيلة الوفاء في مواطن كثيرة ، ولعل أشرف مكانة للوفاء هي أن يصف الله تبارك وتعالى ذاته القدسية بالوفاء ، فيقول عز من قائل في سورة التوبة : « ان الله اشترى من

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٤٢ .

المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويُقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم [1] » • ومعنى قوله : « ومن أوفى بعهده من الله » أنه لا أحد أوفى بعهده ، ولا أصدق في انجاز وعده ، من الله جل جلاله ، فهو القادر المتمكن من الوفاء ، وهو أصدق الواعدين ، وأوفى المعاهدين •

وهناك آيات قرآنية كثيرة تذكر اتصاف الله تعالى بالوفاء ، ففي سورة آل عمران : « وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ، والله لا يحب الظالمين [2] » • وفي سورة فاطر : « ان الذين يتلون كتاب اللهوأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ، ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله انه غفور شكور [3] » ••

والله جل جلاله يوفي كل انسان حقه ، سواء أكان مستقيما أم منحرفا ، صالحا كان أم طالحا ، فكل واحد منهم وما يستحقه ويليق به ، يقول جل جلاله في سورتي البقرة وآل عمران : « ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون [4] » • ويقول في آل عمران : « كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور [5] • ويقول في سور الزمر :

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١١١ •
(٢) سورة آل عمران ، الآية ٥٧ •
(٣) سورة فاطر ، الآيتان ٢٩ و٣٠ •
(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٨١ وآل عمران ، الاية ١٦١ •
(٥) سورة آل عمران ، الآية ١٨٥ •

« ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون [1] » • ويقول في سورة الاحقاف : « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون [2] » • ويقول في سورة النجم : « وان ليس للانسان الا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى [3] » •

ونوه القرآن المجيد بسمو فضيلة الوفاء حين جعلها صفة للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فقال في سورة النجم : « وابراهيم الذي وفّى [4] » • وذلك لان ابراهيم بذل غاية جهده في كل ما طولب به من ربه ، فبذل ماله في طاعة الله ، وقدم ولده اسماعيل قربانا لله ، حتى فداه الله ، ووفى بكلمات الله المشار اليها في قوله تعالى : « واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن [5] » ، وقاوم الوثنية والاشراك ، وفضل حق ربه على حق أبيه ، واحتمل ابتلاء الاحراق بالنار في سبيل الله ، الى غير ذلك من ألوان الوفاء •

وقال القرآن في سورة مريم : « واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا [6] » • وانما خصه بذكر صفة الوفاء له هنا ، وصدقه في الوعد ، لأنه كان مشهورا بذلك ، وكانت له في هذا الباب أشياء لم تعهد من غيره ، وحسبنا أنه وعد بالصبر على الذبح ، وقال لأبيه : « افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين » ووفى بعهده، وصدق في وعده ، فكان من المخلصين •

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٧٠ .
(٢) سورة الاحقاف ، الآية ١٩ .
(٣) سورة النجم ، الآيتان ٤١ و٤٢ .
(٤) سورة النجم ، الآية ٣٧ .
(٥) سورة البقرة ، الآية ١٢٤ .
(٦) سورة مريم ، الآية ٥٤ .

وحدثنا القرآن بأن الوفاء صفة المؤمنين الاخيار الابرار ، فقال في سورة آل عمران : « بلـى مـن أوفـى بعهـده واتقى فان الله يحب المتقين [1] » . وقال في سورة الرعد : « انما يتذكر أولو الالباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثـاق [2] » . وقال في سورة الفتح : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عـاهد عليـه الله فسيؤتيه أجراً عظيما [3] » . والوفاء بالعهد في أمثال هذه الآيات الكريمة يشمل الوفاء بمختلف أنواع العهد بين الناس ، سواء أكان عهداً ماديا أو معنويا ، حالاً أو مؤجلا ، ويشمل كذلك الوفاء بعهد الله تبارك وتعالى ، ولذلك جاء في « تفسير المنار » هذه العبارة : « العهد ما تلتزم الوفاء به لغيرك ، فاذا اتفق اثنان على أن يقوم كل منهما للآخر بشيء مقابلة ومجازاة يقال انهما تعاهدا ، ويقال : عاهد فلانا فلان عهـدا ، فيدخل فيـه العقود المؤجلة والامانات ، فمن ائتمنك على شيء ، أو أقرضك مالا الى أجل ، أو باعك بثمن مؤجل ، وجب عليك الوفاء بالعهد ، وأداء حقه اليه في وقته ، من غير أن تلجئه الى التقاضي والالحاح في الطلب ، بذلك تقضي الفطرة وتحتمه الشريعة ، وهذا مثال العهد مع الناس » . ثم قال : « ويدخل في الاطلاق عهد الله تعالى ، وهو ما يلتزم المؤمن الوفاء له به ، من اتباع دينه ، والعمل بما شرعه على لسان رسوله ، وعهد للناس العمل به » .

والقرآن يخبرنا أن الوفاء ألوان وأنواع ، فهناك الوفاء بالعهد الذي يقول عنه : « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا » . وهناك الوفاء بالوعد الذي

---

(1) سورة آل عمران ، الاية ٧٦ .
(2) سورة الرعد ، الآية ٢٠ .
(3) سورة الفتح ، الآية ١٠ .

يشير اليه بقوله : « انه كان صادق الوعد » . وهناك الوفاء بالنذر الذي يشير اليه بقوله : « يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا » ، وهناك الوفاء بالكيل الذي يشير اليه في قوله : «أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين » . وهناك الوفاء بالعقود الذي يشير اليه بقوله : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ... الخ.

ولكن أعلى هذه العقود واجدرها بالرعاية والعناية هو عهد الله جل جلاله الذي أشار اليه القرآن في قوله : « الذين يعرفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » وقوله : « وبعهد الله اوفوا » . وقوله : « ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ، ان ما عند الله هو خير لكم ان كنتم تعلمون » . وقد أشار الله جل جلاله الى جانب من مضمون هذا العهد الالهي حين قال في سورة يس : « ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم [1] » .

وهذا العهد الذي أمرنا الله تعالى بالوفاء به قيل هو العهد الفطري الذي ذكره الله في سورة الأعراف بقوله : « واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون [2] » . وحينما تعرض تفسير « مجمع البيان » لمعنى قوله تعالى : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم » ذكر ان عهد الله قد رووا فيه عدة وجوه :

أولها : أن هذا العهد هو أن الله تبارك وتعالى عهد اليهم في التوراة

---

(١) سورة يس ، الآيتان ٦٠ و٦١

(٢) سورة الاعراف ، الآيتان ١٧١ و١٧٢ .

أنه باعث نبيا يقال له : محمد ، فمن تبعه كان له أجران اثنان : أجر باتباعه موسى وايمانه بالتوراة المبشرة بمحمد، وأجر باتباعه محمدا وايمانه بالقرآن ، ومن كفر به تكاملت أوزاره ، وكانت النار جزاءه ، والمعنى : أوفوا بعهدي في محمد، أوف بعهدكم وهو ادخالكم الجنة •

ثانيها : أنه العهد الذي عاهدهم عليه ، حيث قال لهم : «خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه » أي أطيعوا بجد واجتهاد ، وتذكروا ما في الكتاب من نواه وأوامر •

ثالثها : أنه ما عهده اليهم في سورة المائدة حيث قال : «ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل ، وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا ، وقال الله اني معكم ، لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم ، وأقرضتم الله قرضا حسنا ، لأكفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل، فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم ، الا قليلا منهم ، فأعف عنهم واصفح ، ان الله يحب المحسنين » •

رابعها : أنه أراد جميع الأوامر والنواهي •

خامسها : أنه جعل تعريفهم نعمة الله عهدا عليهم وميثاقا، لأنه يلزمهم القيام بما يأمرهم به من شكر هذه النعم ، كما يلزمهم الوفاء بالعهد والميثاق الذي يؤخذ عليهم •

وفي تفسير المنار : أن عهد الله تبارك وتعالى المطلوب الوفاء به ، هو العهد الاكبر الذي أخذه الله على جميع البشر بمقتضى الفطرة ، وهو التدبر والتفكر ، ووزن كل شيء بميزان العقل والنظر الصحيح، لا بميزان

الهوى والغرور • ويقول التفسير : « العهد الذي تقتضيه فطرة الله التي فطر الناس عليها ، هو عهد منه يطالب الناس به ، ويحاسبهم عليه ، ومنه الحنيفية ، وأصلها الميل عن جانب الباطل والشر ، الى جانب الحق والخير ، فقد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسلطان غيبي فوق جميع قوى العالم ، وعلى ايثار ما تراه حسنا واجتناب غيره ، وعلى حب الكمال وكراهة النقص • ولكنهم يخطئون في تحديد هذه المعاني ، ويحتاجون الى بيانها لوحي من الله تعالى ، وهو عهد الله المفصَّل الذي يرسل بـه رسله ، لمساعدة الفطرة على تزكية النفس ، وازالة ما يطرأ عليها من الفساد بالجهل وسوء الاختيار » •



وقد أمر الله عز شأنه عباده بأن يتخذوا من فضيلة الوفاء درعـا وحصنا وزينة لنفوسهم وأخلاقهم ، فقال في سورة الحج : « وليوفوا نذورهم » ، وقال في سورة النحل : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم » • وقال في سورة الاسراء : « وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم » • وقال في سورة الانعام : «وأوفوا الكيل والميزان بالقسط» •

ومن سمو مكانة الوفاء في حديث القرآن الكريم أن الله جل جلاله جعل الوفاء جزاء لمكارم الاعمال والخصال ، فقال في سورة البقرة : «وما تنفقوا من خير يوفَّ اليكم » • وقال في سورة الانفال : « وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم » • وقال في سورة الزمر : « انمـا يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » •

واذا انتقلنا الى روضة السنة المطهرة المفسرة لكتاب الله سبحانه ،

وجدنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمجد فضيلة الوفاء ويرفع قدرها ، فهو يقول : « المسلمون عند شروطهم » . وهذا تعبير وجيز بليغ، يصوّر ارتباط المسلمين بعهودهم ، ووقوفهم عند كلمتهم ، ووفائهم بما يشترطونه على أنفسهم . ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « عدة المؤمن دين » والعدة هي الوعد . ويقول : « عدة المؤمن كالأخذ باليد » .

والرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي ضرب المثل الرائع في الوفاء ، حينما حفظ عهد زوجته خديجة رضي الله عنها ، حفظه في حياتها وبعد مماتها ، ولم يشغله عن ذكراها شاغل ، فكان يكثر من الحديث عنها والثناء عليها ، وحينما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها مشيرة الى خديجة بمقتضى الغيرة : هل كانت الا عجوزا أبدلك الله خيراً منها ؟. انكر عليها ذلك وأجابها غاضبا : لا والله ما أبدلني الله خيرا منها ، آمنت بي اذ كفر الناس ، وصدقتني ، اذ كذبني الناس ، وواستني بمالها اذ حرص الناس ، وكانت وكانت ، وكان لي منها ولد .

ويضرب الرسول مثلا رائعا آخر في الوفاء بالوعد ، فقد روى عبدالله ابو الحمساء رضي الله عنه قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يُبعث ، وبقيت له بقية (أي من ثمن المبيع) فوعدته أن آتيه بها في مكانه ، فنسيت،ثم ذكرت بعد ثلاث ، فجئت فاذا هو في مكانه ، فقال : يا فتى ، لقد شققت عليّ ، أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك !.

ولقد روى الامام مسلم في صحيحه أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه كان في مكة عقب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، ثم أراد حذيفة ان يهاجر مع أبيه الى المدينة ، فقبض عليهما المشركون وقالوا لهما : انكما تريدان محمدا . فقالا : ما نريد الا المدينة . ثم أخذ

المشركون عليهما العهود والمواثيق حتى لا يقاتلا مع النبي ، وأعطى حذيفة ووالده على ذلك عهد الله وميثاقه ، ثم هاجرا . وجاءت غزوة بدر ، فأرادا أن يشاركا فيها ، وأخبرا النبي بما أعطياه المشركين من عهد وميثاق ، فقال النبي لهما : « انصرفا ، نفي لهم بعهدهم . ونستعين الله عليهم » !.

وكذلك جاء في كتابي « الفداء في الاسلام » أن المسلمين اضطروا أمام ظروف قاهرة ، واستجابة لنظرة عميقة بعيدة ، أن يقبلوا عهد الحديبية بينهم وبين المسلمين . وكان من شروطه أنه ان جاء أحد من مكة فاراً الى المدينة ردّه المسلمون الى مكة ، واشتد هذا الشرط على المسلمين ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام ، قال لأصحابه : « انه من ذهب منا اليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه ، فسيجعل الله له فرجا ومخرجا ».

وبعد كتابة عهد الحديبية . ورجوع النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة جاءه أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي . جاءه هاربا من مكة بعد أن أسلم . وجاء وراءه رجلان من أهل مكة يطلبان ردّه اليهم فأبى وفاء النبي الا أن ينفذ الشرط ، ولما تألم أبو بصير من ذلك ، قال له النبي عليه الصلاة والسلام : «يا أبا بصير ، انا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت (من العهد) ، ولا يصلح في ديننا الغدر . وان الله جاعل لك ومن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا » . وقد حقق الله تعالى ظن رسوله ورجاءه بعد قليل (١) .

وهناك موقف مشابه لموقف أبي بصير السالف الذكر ، وهذا الموقف المشابه يتعلق بأبي جندل بن سهيل بن عمرو ، فقد كان والده ممثلا للمشركين في عهد الحديبية ، ولكن ابنه أبا جندل أسلم وهرب واتجه الى

---

(١) انظر كتابي « الفداء في الاسلام » ص ٧١ ـ ٧٥ . الطبعة الاولى .

المدينة مهاجرا ، وعلم أبوه بذلك ، فأخذ يطالب الرسول برد ابنه ، فلم يملك الرسول الا الوفاء بالشرط ، ولما تألم أبو جندل من ذلك قال له الرسول : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، انا قد عقدنا بيننا وبين القوم عهدا ، وأعطيناهم على ذلك ، وانا لا نغدر بهم [1] .

وتحدثنا السيرة العطرة بأن الوفاء كان زينة الشخصيات المؤمنة التي تألقت على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي صدر الاسلام ، حتى قال التنزيل المجيد : «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » .

ولقد روي في سبب نزول هذه الآية الكريمة أن الصحابي الجليل أنس بن النضر لم يستطع أن يشهد غزوة بدر ، فحزن لذلك ، وقال للنبي : يا رسول الله ، غبتُ عن أول قتال قاتلت فيه المشركين ، لئن أشهدني الله مع النبي قتال المشركين ليرينّ ما أصنع .

وجاء يوم الوفاء ... جاء يوم أحد ، وانكسر المسلمون في القتال، وثبت أنس ، وهتف يقول : اللهم اني أعتذر اليك مما صنع هؤلاء (يعني أصحابه) وأبرأ اليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين) . ثم انطلق يدافع ويجاهد . وقابله سعد بن معاذ ، فقال له أنس محرضا على الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد : يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب النضر ، اني لأجد ريحها من دون أحد !.

ولم يستطع سعد ــ كما اعترف ــ أن يجاري أنسا في صنع ما صنع ، حيث انطلق أنس يكافح ويجاهد ، ويؤدي واجب الوفاء والفداء

---

(١) انظر كتابي « الفداء في الاسلام » ص ٧٦ ــ ٨٤ . الطبعة الاولى .

حتى نال الشهادة في سبيل الله بلا تردد ولا تقهقر ، بعد أن أصابه بضعة وثمانون جرحا ، ما بين ضربة بالسيف ، أو طعنة بالرمح ، أو رمية بالسهم، ومثّل بجثته المشركون الطغاة ، حتى خفيت معرفته على قومه ، فلم تعرفه الا أخته بعلامة كانت فيه ، عليه رضوان الله تبارك وتعالى .

وكذلك ضرب « الانصار » أروع الامثال في الوفاء :

عن أنس بن مالك قال : لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم ، بذراريهم ونعمهم . ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ عشرة آلاف ، ومعه الطلقاء ، فأدبروا عنه حتى بقي وحده .

فنادى يومئذ نداءين لم يخلط بينهما شيئا . التفت عن يمينه فقال : يا معشر الأنصار . فقالوا : لبيك يا رسول الله ، نحن معك ، أبشر .

ثم التفت عن يساره فقال : يا معشر الأنصار . فقالوا : لبيك يا رسول الله ، أبشر ، نحن معك . وهو على بغلة بيضاء ، فنزل وقال : أنا عبد الله ورسوله .

فانهزم المشركون ، وأصاب النبيّ غنائم كثيرة ، فقسمها بين المهاجرين والطلقاء ، ولم يعط الأنصار منها شيئا فقالوا (أي بعضهم) : اذا كانت الشدة نُدعى ، ويعطى الغنائم غيرنا ، فبلغه ذلك فجمعهم وقال : يا معشر الأنصار ، ما شيء بلغني عنكم ؟! فسكتوا ، فقال : يا معشر الأنصار ، أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا ، وتذهبون بمحمد صلى الله عليه وسلم ، تحوزونه الى بيوتكم ؟!

قالوا : بلى يا رسول الله ، رضينا !.

فقال رسول الله : لو سلك الناس واديا ، وسلكت الأنصار شِعباً لسلكت شِعبَ الأنصار !.

وهكذا يكون الوفاء عند أهل الصدق والفداء .



وان للوفاء لشأنا وخبراً عند أعلام هذه الأمة المحمدية المؤمنة، فهذا أمير المؤمنين الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكرم الله وجهه ، يقول : « ان الوفاء توأم الصدق (١) ، ولا أعلم جُنَّة (٢) أوفى منه ، ولا يغدر من علم كيف المرجع (٣) • ولقد أصبحنا في زمـان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيسا (٤) ونسبهم أهل الجهل الى حسن الحيلة • مالهم قاتلهم الله ؟• قد يرى الحُوَّل القُلَّب (٥) وجه الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة (٦) له في الدين » •

وكأن الامام يريد أن يقول : ان أهل ذلك الزمان يعدون الغدر من العقل وحسن الحيلة ، سفها منهم وجهلا، ويقول : مالهم قاتلهم الله يزعمون ذلك ، مع أن الانسان البصير بتحويل الامور وتقليبها قد يرى وجه الحيلة في بلوغ مراده ، ولكنه يجد دون الاخذ بالحيلة مانعا من أمر الله ونهيه، فيدع الحيلة وهو قادر عليها ، مبصر لها بعينيه ، خوفا من الله تعالى ، ووقوفا عند حدوده (٧) •

وللاستاذ الامام محمد عبده كلمة يصور بها أثر الوفـاء في عظمة الشعوب والأمم ، يقول فيها :

---

(١) التوأم الذي يولد مع الآخر ، والمعنى أن الصدق والوفاء قرينان .
(٢) الجنة ــ بضم الجيم ــ : الوقاية .
(٣) من علم أن رجوعه الى الله لا يقبل الغدر ولا يفعل الخيانة .
(٤) أي يعدونه من باب التعقل وحسن الحيلة .
(٥) الحول القلب : البصير بتحويل الامور وتقليبها . أي انه قد يعرف الحيلة ولكنه لا يفعلها خشية لله تعالى .
(٦) الحريجة : التحرج ، أي تجنب الآثام خشية من الله سبحانه .
(٧ انظر نهج البلاغة ، ج ١ ص ٨٨ .

« ان الايفاء بالعهود والعقود من أهم الفرائض التي فرضها الله تعالى لنظام المعيشة والعمران ، وانما الصلاة والزكاة من وسائله [1] ، والزكاة فرع منه في وجه آخر ، فان الله تعالى فرض علينا الصلاة وهو غني عن العالمين ، لنؤدب بها نفوسنا ، فنعيش في الدنيا عيشة راضية، ونستحق بذلك عيشة الآخرة المرضية ، اذ المصلي أجدر الناس بالقيام بحقوق عباد الله الذين هم عيال الله ، بما يستولي على قلبه فيها من الشعور بسلطان الله تعالى وقدرته ، وفضله واحسانه ، وعموم هذا السلطان والاحسان له وللناس كافة .

والاخلاف من الذنوب الهادمة للنظـام ، المفسدة للعمران ، المفنية للأمم ، وما فقدت أمة الوفاء الذي هو ركن الأمانة وقوام الصدق الا وحلّ بها العقاب الالهي ، ولا يعجل الله الانتقام من الأمم لذنب من الذنوب يفشو فيها ، كذنب الاخلال بالعهد والاخلاف بالوعد .

وانظر حال أمة استهانت بالايفاء بالعهود ، ولم تبال بالتزام العقود، كيف حلّ بها عذاب الله تعالى بالاذلال وفقد الاستقلال ، وضياع الثقة بينها حتى في الاهل والعيال ، فهم يعيشون عيشة الأفراد لا عيشة الأمم : صور متحركة ، ووحوش مفترسة ، ينتظر كل واحد منهم وثبة الآخر عليه، اذا أمكن ليده أن تصل اليه ، ولذلك يضطر كل واحد اذا عاقد أي انسان من أمته أن يستوثق منه بكل ما يقدر ، ويحترس من غدره بكل ما يمكن، فلا تعاون ولا تناصر ، ولا تعاضد ولا تآزر ، بل استبدلوا بهذه المزايـا التحاسد والتباغض ، والتعادي والتعارض (بأسهم بينهم شديد) ، ولكنهم أذلاء للعبيد » .



---

(1) قال الامام هذه الكلمة عند تعرضه لتفسير قوله تعالى : « وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا » .

ويرى حجة الاسلام الغزالي أن الوفاء يلزمه عدة أشياء ، منها :

١ ــ يقتضي وفاؤك لأخيك في الله تعالى أن تراعي جميع اصدقائه واقاربه والمتعلقين به .

٢ ــ من الوفاء أن لا يتغير حال الانسان في التواضع مع أخيه وان ارتفع شأنه ، أو عظم جاهه ، والشاعر يقول :

ان الكرام اذا ما أيسروا ذكروا   من كان يألفهم في المنزل الخشن

٣ ــ من لوازم الوفاء أن يجزع الانسان لفراق أخيه .

٤ ــ من لوازم الوفاء أن لا يسمع الانسان وشاية في أخيه .

٥ ــ من لوازم الوفاء ألاّ يصادق الانسان عدوّ أخيه ...

واذا كانت الآية الكريمة تقول : « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا » فان من أجل انواع العهد عهد الحياة الزوجية الذي يقول عنه القرآن الكريم مخاطبا الأزواج : « وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » . ولذلك يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « ان أحق ما وفيتم به من الشروط ما استحللتم به الفروج » . ويحذر الرسول أن يخون الزوج هنا في قليل أو كثير ، فيقول : « أيما رجل تزوج أمرأة ــ على ما قل من المهر او كثر ــ ليس في نفسه أن يؤدي اليها حقها ، وخدعها ، فمات ولم يؤد اليها حقها ، لقي الله يوم القيامة وهو زان ، وأيما رجل استدان ديناً لا يريد أن يؤدي الى صاحبه حقه، خدعه حتى أخذ ماله ، فمات ولم يؤد اليه دينه ، لقي الله وهو سارق » .

ويشترط في الوفاء بالعهد ألا يكون في معصية ، واذا كان القرآن المجيد يطلب منا الوفاء بالعهود فانما يلزم هذا الوفاء ما لم يكن الأمر المتعاقد عليه مخالفا لأمر الله ورسوله عليه الصلاة والسلام . ولذلك

يقول الغزالي : « ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر من الدين ، بل من الوفاء المخالفة » .

واذا كان الانسان في نيته أن يفي ثم عجز لسبب خارج عن ارادته أو عن طاقته لم يكن عليه اثم ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اذا وعد الرجل أخاه ، ومن نيته أن يفي فلم يف (أي لعذر) ولم يجيء للميعاد، فلا اثم عليه » .

وينبغي للانسان أن يحتاط لأمره ، فلا يفي الا بما يقدر عليه ، ولقد تحدث الغزالي عن آفات اللسان ، فعدّ منها أن يكون اللسان سباقا الى اعطاء الوعد ، ثم لا تقدر النفس على الوفاء ، أو لا تسمح به ، فيكون ذلك خلفاً للوعد ، وذلك من أمارات النفاق ، والأولى بالانسان أن يقول عند اعطاء الوعد : ان شاءالله ، وأن ينوي الوفاء به في عزم ، ومن عَزم على الوفاء ، ثم عرض له مانع من الوفاء لم يكن منافقا .

ولعل أجمع الآيات القرآنية لأنواع الوفاء قول الله تبارك وتعالى في فاتحة سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ، ولذلك قال السيد رشيد رضا ان أساس العقود الثابت فيالاسلام هو هذه الجملة البليغة المختصرة المفيدة : « أوفوا بالعقود » ، لانها تفيد أنه يجب على كل مسلم أن يفي بما عقده وارتبط به ، فكل قول أو فعل يعده الناس عقدا فهو عقد يجب أن يوفوا به كما أمر الله تعالى ، ما لم يتضمن تحريم حلال أو تحليل حرام .

ويروى عن ابن عباس أن المراد بالعقود عهود الله التي عهد الى عباده : «ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حدّ في القرآن كله : لا

تغدروا ولا تنكثوا ». وعن الراغب أن العقود ـ باعتبار المعقود والعاقد ـ ثلاثة أضرب : عقد بين الله تعالى والعبد ، وعقد بين العبد ونفسه ، وعقد بينه وبين غيره من البشر ، وكل واحد منها باعتبار الموجب له ضربان : ضرب اوجبه العقل ، وهو ما ركز الله تعالى معرفته في الانسان ، فيتوصل اليه اما ببديهة العقل ، واما بأدنى نظر ، وهو ما دل عليه قوله تعالى : « واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ... » الآية ، وضرب أوجبه الشرع ، وهو ما دلنا عليه كتاب الله تبارك وتعالى ، وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، فهذه ستة أضرب .

وكل واحد منها اما ان يلزم ابتداء ، أو يلزم بالتزام الانسان اياه ، والثاني أربعة أضرب ، فالأول واجب الوفاء . كالنذور المتعلقة بالقربات ، مثل ان يقول الانسان : عليّ لله أن أصوم كذا ان عافاني الله تعالى ، والثاني يستحب الوفاء به، ويجوز تركه، كمن حلف على ترك فعل مباح، فان له أن يكفر عن يمينه ويفعل ذلك المباح، والثالث يستحب ترك الوفاء به ، وهو ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : « اذا حلف أحدكم على شيء ، فرأى غيره خيراً منه ، فليأت الذي هو خير ، وليكفر عن يمينه » . والرابع يجب ترك الوفاء به ، نحو أن يقول : عليّ أن أقتل فلانا المسلم . ويحصل من هذه التفريعات أربعة وعشرون ضربا من ضروب العقود .



وللصوفية مذهبهم في تصوير الوفاء ، فمعروف الكرخي يقول : « حقيقة الوفاء اقامة السر عن رقدة الغفلات ، وفراغ الهمم من فضول الآفات » . ويقول أبو بكر الشبلي : « الوفاء هو الاخلاص بالنطق ، واستغراق السرائر بالصدق » . والقشيري في « لطائف الاشارات »

يتعرض لتفسير قوله تعالى : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم واياي فارهبون » . فيفتن في تصوير معناها بقوله :

« عهده سبحانه حفظ المعرفة ، وعهدنا اتصال المغفرة . عهده حفظ محابه ، وعهدنا لطف ثوابه ، عهده حضور الباب ، وعهدنا جزيل المآب أوفوا بعهدي بحفظ السر أوف بعهدكم بجميل البر .

أوفوا بعهدي الذي قبلتم يوم الميثاق ، أوف بعهدكم الذي ضمنت لكم يوم التلاق .

أوفوا بعهدي ألا تؤثروا علي غيري، أوف بعهدكم في ألا أمنع عنكم لطفي وخيري .

أوفوا بعهدي برعاية ما أثبت فيكم من الودائع ، أوف بعهدكم بما اديم لكم من شوارق اللوامع وزواهر الطوالع .

أوفوا بعهدي بحفظ أسراري ، أوف بعهدكم بجميل مبارّي .

أوفوا بعهدي باستدامة عرفاني ، أوف بعهدكم في ادامة احساني .

أوفوا بعهدي في القيام بخدمتي ، أوف بعهدكم في المنة عليكم بقبولها منكم .

أوفوا بعهدي في القيام بحسن المجاهدة والمعاملة ، أوف بعهدكم بدوام المواصلة والمشاهدة .

أوفوا بعهدي بالتبري عن الحول والمُنة(1) ، أوف بعهدكم بالاكرام بالطول والمِنة .

أوفوا بعهدي بالتفضيل والتوكل، أوف بعهدكم بالكفالة والتفضل.

أوفوا بعهدي بصدق المحبة ، أوف بعهدكم بكمال القربة .

---

(1) المنة – بضم الميم – : القوة .

أوفوا بعهدي • اكتفوا مني لي ، أوف بعهدكم بكم عنكم •

أوفوا بعهدي في دار الغيبة على بساط الخدمة بشد نطاق الطاعة وبذل الوسع والاستطاعة ، أوف بعهدكم في دار القربة على بساط الوصلة بادامة الانس والرؤية وسماع الخطاب وتمام الزلفة •

أوفوا بعهدي في المطالبات بترك الشهوات ، أوف بعهدكم بكفايتكم تلك المطالبات •

أوفوا بعهدي بأن تقولوا[1] أبدا : ربي ربي ، أوف بعهدكم بأن أقول لكم ، عبدي عبدي • [2]

واياي فارهبون : أن أفردوني بالخشية ، لانفرادي بالقدرة على الايجاد ، فلا تصح الخشية ممن ليس له ذرة ولا منة » [3] •

هذا ويقول ابن أبي الحديد في « شرح نهج البلاغة » : « الوفي محفوظ من الله ، مشكور بين الناس » •



واذا كان القران الكريم والسنة المطهرة قد مجدا فضيلة الوفاء كل هذا التمجيد ، فانهما قد حملا حملة رادعة على الخيانة والغدر ، فقال القرآن : « ان الله لا يحب الخائنين » • وقال : « وان الله لا يهدي كيد الخائنين » • وقال : « ان الله لا يحب كل خوان كفور » • وقال : « ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما »• وقال : «ولا تكن للخائنين خصيما»• وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وأنتم تعلمون » •

---

(١) أي يقول كل منكم : ربي ربي .

(٢) أي : أقول لكل منكم : عبدي عبدي .

(٣) لطائف الإشارات ، ج ١ ص ٩٦ .

وحارب الاسلام الخيانة حتى مع غير الأولياء ، فقال القرآن : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » .

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « أيما رجل أمَّن رجلا على دمه ، ثم قتله ، فأنا من القاتل بريء ، وان كان المقتول كافرا » . وقال : « لا دين لمن لا عهد له » ونظر أبي الحديد الى هذا النص الكريم فقال : « الغدر يحبط الايمان [1] » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ويل لمن وعد ثم أخلف » قالها ثلاثا . وأخبرنا أن التنكر لفضيلة الوفاء من شيم المنافقين فقال : « أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا اؤتمن خان ، واذا حدّث كذب ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر » . وفي رواية قال : « ثلاث من كنّ فيه فهو منافق ، وان صام وصلى وزعم أنه مسلم : اذا حدّث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن خان » . ويقول الرسول أيضا : « لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة » . وكان النبي يدعو ربه قائلا : « أعوذ بك من الخيانة ، فانها بئس البطانة » !. واهتدى الامام علي بهديه فقال : « كل غدرة فجرة ، ولكل فجرة كفرة ، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة » .

والقرآن المجيد يقبح في أنظارنا وأفكارنا صور الخائنين الغادرين المتنكرين لفضيلة الوفاء ، فيقول في سورة البقرة : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ، أولئك هم الخاسرون » أي ينقضون عهد الله الموثق المؤكد ، بتعطيل الملكات والطاقات عن استخدامها استخداما سليما ، وبعدم السمع والطاعة والانابة .

---

(١) شرح نهج البلاغة ، ج ١ ص ٤٩٢ .

ويقول التنزيل الحكيم في سورة الأعراف عن الكافرين : « وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وان وجدنا أكثرهم لفاسقين » . وذلك لأنهم كانوا يعاهدون اللهجل جلاله عند الشدة والضيق، بان يشكروه ويوحدوه ويطيعوه ان نجاهم وأنقذهم ، فلما أنجاهم لم يفوا بوعودهم . وتنكروا لعهودهم ، وكانوا من الفاسقين .

ويقول القرآن المجيد مصورا غدر بعض الناس الذين أخذوا على أنفسهم أغلظ العهود والمواثيق بالطاعة والشكر ان أعطاهم ربهم ما أرادوا ، فلما حقق لهم ما طمعوا فيه كانوا من الجاحدين الغادرين : «ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ، ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب » ؟!

ونحن نجد في ثنايا تراثنا الاخلاقي كثيرا من الكلمات الحكيمة التي تحذرنا الخيانة والغدر ، ومنها هذه الكلمات :

« كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينا للخونة » .

« من نقض عهده ، ومنع رفده ، فلا خير عنده » .

« العذر يصلح في كثير من المواطن ، ولا عذر لغادر ولا خائن » .

« الغدر من صغر القدر » !.

ألا ان الوفاء من صفات الكرام الأحرار ، وان الغدر من صفات اللئام الفجّار ، فلينظر كل امرىء أين يكون !.

التوكل

يقال : وكل فلان الأمر الى غيره ، أي اعتمد عليـه ، ووثق به أن ينجزه ، والوكيل هو الذي يوكل اليه الأمر ، وقد تطلق كلمة «الوكيل» بمعنى الحفيظ ، لأنه الذي يرعـى الأمر ويعنى به ، وقد تطلـق بمعنى الرقيب المطلع ، لان من شأن الوكيل أن يراقب ما يوكل اليه ، وقد تطلق بمعنى الناصر ، لان الوكيل يركن اليه من يكل أمره اليه .

والتوكل في اللغة يقـال على وجهين : الأول توكلت لفلان بمعنى توليت له ، ويقال وكلته فتوكل لي ، وتوكلت عليـه بمعنى اعتمدتـه . والتوكيل أن تجعل غيرك نائبا عنك وتعتمد عليه .

والتوكل في الدين هو أن يفوض الانسان أمره الى ربه ، ويكتفي به فيه ، ولذلك كان معنى التوكل بلفظ التفـويض في قول القـرآن في سورة غافر : « فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد » . أي أرد أمري كله الى الله . ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول : « اللهم اني أسلمت نفسي اليك، وفوضت أمري اليك » .

والتوكل فضيلة اسلامية مفروضة ، اذ بها يتحقق معنى الايـمـان ، حتى قيل : من لا توكل له لا ايمان له ، وكأنهم استمدوا ذلك من قـول الله تبارك وتعالى : «وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » ، وقد تكرر

قوله سبحانه : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ست مرات في سور : آل عمران (مرتين) والمائدة والتوبة والمجادلة والتغابن .

ويقول العلماء ان التوكل نصف الدين، والنصف الآخر هو الانابة، لان الدين استعانة وعبادة ، فالتوكل هو الاستعانة ، والانابة هي العبادة، كما أن التوكل الحقيقي الصادق يكون طريقا للفوز والنصر ، وهذا هو « تفسير المنار » يتحدث عن قول الله تعالى في سورة الأنفال : « ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم » فيقول هذه العبارة :

« ومن يتوكل على الله : أي يكل اليه أمره مؤمنا ايمان اذعان واطمئنان بانه هو حسبه وكافيه ، وناصره ومعينه ، وأنه قادر لا يعجزه شيء ، عزيز لا يغلبه ولا يمتنع عليه شيء أراده ، فان الله عزيز حكيم : أي فهو تعالى — بمقتضى عزته وحكمته ، عند ايمانهم به ، وتوكلهم عليه — يكفيهم ما أهمهم ، وينصرهم على أعدائهم ، وان كثر عددهم ، وعظم استعدادهم ، لانه عزيز غالب على أمره ، حكيم يضع كل أمر في موضعه ، على ما جرى عليه النظام والتقدير في سننه ، ومنه نصر الحق على الباطل.

بل كثيرا ما تدخل عنايته بالمتوكلين عليه في باب الآيات وخوارق العادات ، كما حصل في غزوة بدر ، وآيات الله لا نهاية لها ، وان أجمع المحققون على أن التوكل لا يقتضي ترك الأسباب من العبد ، ولا الخروج عن السنن العامة في أفعال الرب » .

كما أن التوكل الحقيقي الصادق يفتح أمام صاحبه طريقا الى الجنة بغير حساب ، فقد جاء في الحديث المتفق عليه أن سبعين ألفا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يدخلون الجنة بغير حساب : « هم الذين لا يسترْقون (من الرقية) ، ولا يتطيرون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون » . ولا عجب فالتوكل كل رجوع بصير كامل الى رحاب الله عز وجل ، وهذا يورث الرضا الالهي ، وهو الفوز الأكبر ، ومن هنا يقول أبو عثمان

الجيري : « التفويض رد ما جهلت علمه الى عالمـه ، والتفويض مقدمـة الرضا ، والرضا باب الله الأعظم » ، ومن توكل على الله ورضي به ربـا وهاديا ، رضي الله عنه، والتنزيل المجيد يقول : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضي الله عنهم ورضوا عنـه ، ذلك لمن خشي ربه » .

والتوكل الحقيقي الصادق يجعل كل ما يسوقه الله الى عبده طيبـا وطاهرا وكريما ، ولذلك يقول ابن سالم البصري : « التوكل على اللـه فريضة ، لقوله تعالى (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) ، والحركـة في طلب الرزق مباح لمن عجز عن التوكل ، فان الله تعالى يقول (كلوا من طيبات ما كسبتم) ، مما يفتح بالطلب والكسب منه طيب وخبيث ، ومـا يفتح بالتوكل لا يكون الا طيبا ، لان ذلك من معدن طيب » .

والله جل جلاله هو خير من يعتمد عليه ، ويوكل اليه ، ويستمـد منه ، ويستعان به ، وكذلك ورد قول القـرآن : « وكفى بالله وكيلا » ثلاث مرات في سورة النساء ، كمـا ورد في سورة آل عمران : « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل »، وجـاء في سورة الاسراء : « وكفى بربـك وكيلا » .

والتوكل الحقيقي الصادق هو أسطع برهـان على تحقيق عقيـدة التوحيد في قلب المتوكل وعقله ، ولذلـك كان التوكـل ــ كما يصور رشيد رضا ــ أعلى مقامات التوحيد ، فالمؤمن الموحد الكامل لا يتوكـل على مخلوق مربوب لخالقه مثله ، بل مشهده في المخلوقات أنها أسبـاب سخر الله تعالى بعضها لبعض في نظام التقدير العام ، الذي أقام الله بـه أمور العالم المختار منها وغير المختار ، فكلها سواء في الخضوع لسننه في الأسباب والمسببات ، وهي فيما وراء تسخيره اياها متساوية في عجزها عن

النفع والضر ، فشأن المؤمن المتوكل في دائرة الأسباب ، أن يطلب كل شيء عن طريق سببه ، خضوعا لسنن الله تعالى في نظام خلقه، وهو بذلك يطلبها من حيث أمره الله أن يطلبها أمرا تكوينيا قدريا، وتشريعا تكليفيا، فاذا جهل الأسباب ، أو عجز عنها ، وكل أمره فيها الى ربه تبارك وتعالى، داعيا اياه أن يعلمه ما جهل ، بما سنه من وسائل العلم ، ومنها الالهام في بعض الأحيان ، وأن يسخر له ما عجز عنه من جماد أو حيوان أو انسان.

ومن هنا نستطيع أن ندرك أن التوكل في جوهره عمل من أعمال القلب ، وليس قولا باللسان أو عملا بالجوارح فحسب ، فبداية التوكل هي الايمان ، وعماده هو اليقين ، ولذلك جعل القرآن الكريم فضيلة التوكل صفة أساسية للمؤمنين ، فقال في سورة الأنفال : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ، وعلى ربهم يتوكلون » . وقال في سورة النحل عن الشيطان : « انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » . وقال في سورة العنكبوت : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » . وقال في سورة الشورى : « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » .



ومن جلال المكانة لفضيلة التوكل أن نرى الحق جل جلاله يأمر بها خاتم رسله صلى الله عليه وعليهم وسلم ، ويكرر هذا الأمر ويؤكده في مواضع كثيرة من كتابه المجيد ، فيقول له في سورة النساء : « فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » . ويقول في سورة هود : « ولله غيب السموات والأرض واليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه

وما ربك بغافل عما تعملون » • ويقول في سورة التوبة : « فاذا تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » • ويقول في سورة الرعد : « كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم، لتتلوا عليهم الذي أوحينا اليك ، وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت واليه مآب »• ويقول في سورة الفرقان : «وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا » ••• الخ •

ولقد أراد الله جل جلاله ــ وهو أعلم بمراده ــ أن يعلّم نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبدأ بأخذ الحيطة والأهبة والاعداد والاستعداد، في المواطن التي تحتاج الى هذا ، وأن يستعين بآراء من حوله من أهل العلم والخبرة والبصر بالأمور ، فاذا انتهى الى رأي أو خطة ، أقدم على التطبيق والتنفيذ ، في همة وعزيمة ومضاء ، متوكلا على الله ، مستمدا من نصره وهداه ، واثقا بأنه مولاه ولا مولى له سواه ، فذلك حيث يقول له : « وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » ، ومعنى هذا ــ كما يبين تفسير المنار ــ أنك اذا عزمت بعد المشاورة في الأمر ، على امضاء ما ترجحه الشورى ، وأعددت له عدته ، فتوكل على الله في امضائه ، وكن واثقا بمعونته ، وتأييده لك فيه، ولا تتكل على حولك وقوتك ، بل اعلم أن وراء ما أتيته وما أوتيته قوة أعلى وأكمل هي قوة الله جل جلاله ، ويجب أن تكون بها الثقة ، وعليها المعول ، واليها الملجأ ، اذا تقطعت الأسباب ، وأغلقت الابواب •

وان العزم على الفعل ، وان أتى بعد التفكير والمشاورة واحكام الرأي واعداد العدة ، لا يكفي للنجاح الا بمعونة الله وتوفيقه ، لان الموانع الخارجية للنجاح والعوائق دونه ، لا يحيط بها الا الله تعالى ، فلا بد للمؤمنين من الاتكال عليه ، والاعتماد على حوله وقوته • والله

جل جلاله يحب المتوكلين على حوله وقوته ، مع العمل في الأسباب بسننه ، ومن أحبه الله عصمه من الاغترار باستعداده ، والركون الى عدته وعتاده ، والبطر الذي يصرفه عن النظر فيما يعرض له بعد ذلك حتى لا يقدره قدره ، ولا يحكم فيه أمره ، فبدلا من أن يكون نظره في الأمور بعين العجب والغرور ، واستماعه لأنبائها بأذن الغفلة والازدراء ، ومباشرته لها بيد التهاون ، يلقي السمع وهو شهيد ، وينظر بعين العبرة فبصره حينئذ حديد ، ويبطش بيد الحق فبطشه قوي شديد ، ذلك بأنه يسمع ويبصر ويعمل للحق لا للباطل الذي يزينه الهوى ويدلي به الغرور، فيكون مصداقا للحديث القدسي : « فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها » .

والرسول صلى الله عليه وسلم يرشدنا الى ما في التوكل من ايجابية ونزعة عملية حين يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » . فقد أعطانا في هذا الحديث صورة حية لحركة الطيور التي تترك أعشاشها عند الصباح ، وتخرج باحثة عن الطعام والقوت ، وهي خالية البطون ، وما تزال هكذا في سعيها وحركتها ، حتى تعود آخر النهار وهي ممتلئة البطون .

وهذا أحد الصحابة يسأل رسول الله عليه الصلاة والسلام قائلا : يا رسول الله ، ناقتي أتركها وأتوكل ؟ فأجابه : « اعقلها وتوكل » وفي هذا توجيه للأبصار والبصائر الى الاحتياط والحذر وبذل الطاقة والمجهود .

ولو راجعنا سير الأنبياء والمرسلين — عن طريق القرآن الكريم — لوجدنا فضيلة التوكل كالقسط المشترك بين هؤلاء الأكرمين ، فابراهيم عليه السلام هو القائل كما حكت سورة المتحنة : « ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير » . وروت السيرة أن ابراهيم قال عند القاء

الكافرين له في النـار : « حسبنا الله ونعم الوكيـل » ، ولذلك يقـول عبدالله بن عباس : « حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها ابراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقي في النار ، وقالها محمد صلى الله عليـه وسلم حين قالوا له : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهـم ، فزادهم ايمانا وقالـوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وهذا هو يعقوب عليه السلام يأمر أولاده بأخـذ الحيطة واتبـاع الحذر ، واخفاء أمرهم عن غيرهم قدر استطاعتهم ، ثم يتوكل على ربه ، كما جاء في سورة يوسف : « وقال يا بني لا تدخلوا من بـاب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغني عنكم من الله من شيء ، ان الحكم الا لله ، عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون » .

وهذا هو موسى عليه السلام يحكي عنه القرآن في سورة يونس فيقول : « وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين ، فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين » . أي ان كنتم آمنتم بالله حق الايمان ، فعليه وحده فتوكلوا ، وثقوا بوعـده دون سواه ، ان كنتم مذعنين لربكم بالفعل ، فامتثلوا الأمر ، ونطقـوا بكلمة التوكل ، لأن التوكل هو أكبر مقامات الايمان ، وأعلى درجـات اليقين ، ولا يكمل الا بالصبر على الشدائد ، وهو يستلزم مقارنة اتخاذ الأسباب ، وحقيقته أن يبذل الانسان كل ما يستطيع ، ثم يرجو من ربه أن يسخر له ما لا يستطيع .

وهذا هو شعيب عليه السلام يقـول القرآن الكريم على لسانه في سورة الأعراف : « قد افترينا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم بعـد اذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء اللهربنا، وسعربنا كل شيء علما، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين » .

وهذا هو نوح عليه السلام ، يقول عنه القرآن المجيد في سورة يونس : « واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه : يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت » . أي ان كانت قد كبرت عليكم دعوتي وتذكيري لكم بربكم، وأردتم الاعتداء عليّ ، أو معارضتي، فانني قد فوضت أمري الى الله جل جلاله ، فهو الذي بعثني اليكم ، وكلفني دعوتكم ، وأنا أعتمد عليه وحده ، بعد أن بذلت جهدي في نصحكم ودعوتكم .

وهذا هو « هود » عليه السلام ، يقول كما جاء في سورة هود : « اني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم » .

وهذا هو صالح عليه السلام يقول كما جاء في سورة هود : « ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » .

وهذه هي طائفة من الرسل يتحدث عنها القرآن المجيد في سورة ابراهيم فيقول : « قالت لهم رسلهم : ان نحن الا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا، ولنصبرن على ما آذيتمونا، وعلى الله فليتوكل المتوكلون».

ان هذا الاستعراض العاجل السريع يؤكد لنا أن فضيلة التوكل احدى الفضائل المشتركة التي ازدان بها رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولا عجب فالله جل جلاله هو ناصر المتوكلين ومؤيدهم ، وهو سبحانه القائل في سورة الطلاق : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا » . ويقول في سورة الأنفال :

« ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم » • أي عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يهون من لاذ بجنابه ، والتجأ الى حماه ، وهو حكيم لا يعجز عن تدبير من توكل على تدبيره •



ويقرر ابن القيم في « مدارج السالكين » أن العباد درجات في التوكل ومنازله ، فأولياء الله وخاصته يتوكلون عليه في الايمان ، ونصرة دينه ، واعلاء كلمته ، وجهاد أعدائه ، وفي محابّه وتنفيذ أوامره ، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه ، وحفظ حاله مع الله فارغا عن الناس ، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه ، من رزق أو عافية ، أو نصر على عدو ، أو زوجة أو ولد ، ونحو ذلك ••• الخ •

ولكي يتم التوكل وتكمل درجاته يحتاج الى لوازم هي :

١ ــ معرفة الرب وصفاته، وان الأشياء صادرة عن مشيئته وقدرته•

٢ ــ اثبات الأشياء والمسببات ، والأخذ بالاسباب •

٣ ــ اخلاص القلب في توحيده لله بلا شريك •

٤ ــ اعتماد القلب على الله ، واستناده اليه •

٥ ــ حسن الظن بالله عز وجل •

٦ ــ استسلام القلب لله ، وانجذاب دواعيه اليه •

٧ ــ التفويض ، والقاء الأمور كلها الى الله تبارك وتعالى •

وهذا كله يثمر الرضى بما يقضي به الله سبحانه ، ولذلك سئل يحيى بن معاذ : متى يكون الانسان متوكلا ؟• فأجاب : اذا رضي بالله وكيلا •

وينبغي أن نقرر ونكرر ونؤكد أن التوكل لا يعارض السعي ولا يناقضه ، بل انه يدعو اليه ويستوعبه ، والله جل جلاله هو الذي يتحدث

الى عباده في سورة الملك : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » ، ويقول في سورة الجمعة : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » . ويقول في سورة النجم : « وأن ليس للانسان الا ما سعى » .

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقني ، وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » . ولقد سأل عبد الله ابن الامام أحمد بن حنبل أباه فقال له : « يا أبي ، هؤلاء المتوكلون يقولون : نقعد وأرزاقنا على الله عز وجل » . فأجابه أبوه : « هذا قول رديء خبيث ، يقول الله عز وجل : (اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله) .

وسأله أيضا عن قوم يقولون : نتكل على الله ولا نكتسب . فأجابه بقوله : « ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله ، ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب ، هذا قول انسان أحمق » .

وسأله ابنه صالح عن التوكل فأجابه : « التوكل حسن ، ولكن ينبغي للرجل أن لا يكون عيالا على الناس ،ينبغي أن يعمل حتى يُغني أهله وعياله ، ولا يترك العمل » .

ويقول ابن القيم في حديثه عن التوكل : « فترك الأسباب المأمور بها قادح في التوكل ، وقد تولى الحق ايصال العبد بها ، وأما ترك الأسباب المباحة فان تركها لما هو أرجح منها مصلحة فممدوح والا فهو مذموم » . ويقول أيضا : « فاعلم أن نُفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة » . ويقول عن بصراء الصوفية : « وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب ، فلا يصح التوكل الا مع القيام بها ، والا فهو بطالة وتوكل فاسد . قال سهل بن عبدالله : من طعن في الحركة

(العمل) فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الايمان، فالتوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم ، والكسب سنته ، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته » .

والعبد يتوكل على الله أن يقيمه في سبب يوصله الى مطلوبه ، فاذا قام به توكل على الله في حال مباشرته ، فاذا أتمه توكل على الله فيحصول ثمراته ، فكأن التوكل سيصاحب المؤمن في مراحل سعيه وعمله . ولقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام أصدق المتوكلين ، ومع ذلك كان يحمل معه الزاد في السفر ، ولبس درعين حينما قاتل في غزوة أُحد، وكان يدخر لأهله قوت سنة : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » !.

وما أجمل العبارة التي ذكرها صاحب المنار ، وفيها يقول : « ان هناك أمورا تخفى علينا أسبابها ، ويعمى علينا طريق طلابها ، فيجب علينا بأرشاد الدين والفطرة أن نلجأ فيها الى ذي القوة الغيبية ، ونطلبها من مسبب الأسباب ، لعله بعنايته ورحمته ـ يهدينا الى طريقها ، أو يبدلنا خيرا منها . ويجب مع هذا بذل الجهد والطاقة من العمل بما نستطيع من الأسباب ، حتى لا يبقى في الامكان شيء ، مع اعتقادنا بأن الأسباب كلها من فضل الله تعالى علينا ورحمته بنا ، اذ هو الذي جعلها طرقا للمقاصد ، وهدانا اليها بما وهبنا من العقل والمشاعر .

لا يسمح الدين للناس بأن يتركوا الحرث والزرع ، ويدعوا الله تعالى أن يُخرج لهم الحب من الأرض بغير عمل منهم ، أخذا بظاهر قوله : (أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) ، وانما يهديهم الى القيام بجميع الأعمال الممكنة لانجاح الزراعة ، من الحرث والتسميد ، والبذر والسقي ، وغير ذلك ، وأن يتكلوا على الله تعالى بعد ذلك فيما ليس بأيديهم ، ولم يهدهم لسببه بكسبهم ، كانزال الأمطار ، وافاضة الأنهار ، ودفع الحوائج .

فان استطاعوا شيئا من ذلك فعليهم أن يطلبوه بعملهم، لا بألسنتهم وقلوبهم ، مع شكر الله تعالى على هدايتهم اليه ، واقدارهم عليه .

كذلك يحظر الدين عليهم أن ينفروا الى الحرب والمدافعة عن الملة والبلاد عزلا ، أو حاملي سلاح دون سلاح العدو المعتدي عليهم ، اتكالا على الله تعالى ، واعتمادا على أن النصر بيده ، بل يأمرهم بأن يعدوا للأعداء ما استطاعوا من قوة، ويتكلوا بعد ذلك ـ في الهجوم والاقدام ـ على عناية الله تعالى ، بتثبيت القلوب والأقدام ، وغير ذلك من ضروب التوفيق والالهام ، فمن قصَّر في اتخاذ الأسباب اعتماداً على الله فهو جاهل بالله » .



ثم يأتي حديث الصوفية عن التوكل بأسلوبهم وعلى طريقتهم ، وهم قد فسحوا المجال لهذا الحديث في كتبهم وكلماتهم ، وتناثرت لهم عبارات تكشف عن مفهوم هذه الفضيلة الروحية الأخلاقية، ومنها هذه الكلمات :

١ ـ معروف الكرخي : توكل على الله ، حتى يكون هو معلمك ، ومؤنسك ، وموضع شكواك ، فان الناس لا ينفعونك ولا يضرونك .

٢ ـ عمرو بن عثمان المكي : المعرفة صحة التوكل على الله .

٣ ـ ابن مسروق الطوسي : التوكل اشتغالك عمالك بما عليك ، وخروجك مما عليك لمن ذلك له واليه .

٤ ـ محفوظ بن محمود النيسابوري : التوكل أن تأكل بلا طمع ولا شره .

٥ ـ شقيق البلخي : التوكل أن يطمئن قلبك بموعود الله تعالى .

٦ ـ أبو تراب النخشبي : التوكل طمأنينة القلب الى الله عز وجل .

٧ ـ ابراهيم القصار : التوكل السكون الى مضمون الحق .

٨ ــ محمد بن خفيف : التوكل هو الاكتفاء بضمانه ، واسقاط التهمة عن قضائه •

٩ ــ اسماعيل بن نجيد : أدنى التوكل حسن الظن بالله عز وجل •

١٠ ــ منصور بن عمار : قلوب المتوكلين أوعية الرضا •

١١ ــ أبو الحسين النيسابوري : التوكل استواء الحال عند العدم والوجود ، وسكون النفس عند مجاري المقدور •

١٢ ــ ذو النون المصري : علامة التوكل انقطاع المطامع •

١٣ ممشاذ الدينوري : التوكل حسم الطمع عن كل ما يسيل اليه قلبك ونفسك •

١٤ ــ سري السقطي : التوكل الانخلاع من الحول والقوة •

١٥ ــ رويم البغدادي : التوكل اسقاط رؤية الوسائط ، والتعلق بأعلى العلائق •

١٦ ــ ابراهيم بن شيبان : التوكل سر بين الله والعبد ، فلا ينبغي أن يطلع على هذا السر أحد •

١٧ ــ ابن منازل الصوفي : التفويض مع الكسب خير من خلوه عنه •

١٨ ــ التوكل ألا تعجز عن حكم وقتك ، والمعرفة ألا تضيّع حكم وقتك •

١٩ ــ ابن سالم البصري : من توكل على الله أسكن الله قلبه نور الحكمة ، وكفاه كل هم ، وأوصله الى كل محبوب ، فانه عز وجل يقول : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي هو القائم بكل كفاية •

١٠ ــ ابن الجلاء : التوكل الايواء الى الله وحده في جميع الأحوال •



ويتحدث الطوسي في كتابه « اللمع » عن درجات التوكل عند الصوفية ، فيجعلها ثلاث درجات :

الدرجة الاولى : توكل العامة ، وهو توكل المؤمنين الذي يشير اليه قول الله تبارك وتعالى : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . ويصوره أبو تراب النخشبي بقوله : « التوكل طرح البدن في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة الى الكفاية ، فان أُعطي شكر ، وان مُنع صبر ، راضيا موافقا للقدر » .

الدرجة الثانية : توكل أهل الخصوص ، وهو توكل المتوكلين ، وهو كما يصوره ابن عطاء : « من توكل على الله لغير الله لم يتوكل على الله في توكله ، حتى يتوكل على الله بالله لله ، ويكون متوكلا على الله في توكله ، لا لسبب آخر » . ويصوره أبو يعقوب النهرجوري بقوله : « التوكل موت النفس عندذهابحظوظها من أسباب الدنيا والآخرة » .

الدرجة الثالثة : توكل خصوص الخصوص ، وهو كما يصوره الشبلي بقوله : « التوكل أن تكون لله كما لم تكن ، ويكون الله تعالى لك كما لم يزل » . ويصوره ابن الجلاء بقوله : « التوكل الايواء الى الله وحده في جميع الأحوال » .

ويرى أبو علي الدقاق أن التوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ، فالمتوكل يسكن الى وعده ، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه ، فالتوكل بداية ، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية ، فالتوكل صفة المؤمنين ، والتسليم صفة الأولياء ، والتفويض صفة الموحدين . التوكل صفة العامة ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خواص الخواص . التوكل صفة الأنبياء ، والتسليم صفة ابراهيم الخليل ، والتفويض صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين .

ربنا عليك توكلنا ، واليك أنبنا ، واليك المصير .

الرجاء

الرجاء هو الأمل وعدم اليأس • وقيل انه التوقع لما فيه خير ونفع ، أو تعلق القلب بحصول محبوب مرغوب مستقبلا ، والانسان بلا أمـل أو رجاء يضيق في وجهه كل واسع ، ويبعـد كل قريب ، ويعسر كل ميسور ، ولذلك قال القائل الحكيم :

أعلل النفس بالآمال أرقبها   ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

بل توسع مصطفى كامل في تصوير جلال النكبة حينما يفقد الانسان الرجاء . ويستولي عليه اليأس ، فقال : « لا حياة مع اليأس ، ولا يأس مع الحياة » •

ولقد تحدث القرآن الكريم عن الرجاء في مواطن منه ، وجعله سمـة من سمات المؤمنين ، وصفة من صفات المؤمنين ، فقـال في سورة البقرة : « ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » • وقال في سورة الاسراء : « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محـذورا » • وأشار الى استحسان التعلق برحمـة الله والرجاء لفضله : فقال : « واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا » •

وجعل القرآن المجيد خير أنواع الرجاء هو الرجاء في الله ، وفي ثوابه

عند لقائه في الدار الآخرة ، فقال في سورة الكهف : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » • وقال في سورة العنكبوت : « من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم » • وقال فيها أيضا : « والى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين » • وضمن للمتقين تحقيق حسن الرجاء ، فقال في سورة فاطر : « ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور» •

بل جعل القرآن الحكيم صدق الرجاء عاملا من عوامل النصر والغلبة على الأعداء ، فقال سبحانه في سورة النساء : « ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليما حكيما » • وكأنه بهذا يقول لهم ــ كما يذكر تفسير المنار ــ انكم ترجون من الله ما لا يرجون ، لأنكم تعلمون من الله تعالى ما لا يعلمون ، وتخصونه سبحانه بالعبادة والاستعانة ، وهم مشركون ، وقد وعدكم الله احدى الحسنيين ــ النصر أو الجنة بالشهادة ــ اذا كنتم للحق تنصرون ، وعن الحقيقة تدافعون • فهذا التوحيد في الايمان ، وهذا الوعد من الرحمن ، هما مدعاة الأمل والرجاء ، ومنفاة اليأس والقنوط ، والرجاء يبعث القوة ، ويضاعف العزيمة ، فيثابر صاحبه على العمل بالصبر والثبات• واليأس يميت العزيمة ويضعف الهمة ، فيغلب على صاحبه الفتور والجزع •

والقرآن الكريم يفتح أبواب الرجاء والأمل أمام عباد الله المؤمنين، ليدخلوها فيتمتعوا بخير هذه الفضيلة الأخلاقية الجليلة : فضيلة الرجاء والأمل وحسن الظن ، فيقول عن المؤمنين في سورة آل عمران : « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم، الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » •

ويشير الحق جل جلاله الى المواطن الشديـدة التي ينبغي ان يتحلى فيها المؤمن بحسن الرجاء في الله ، لأنه المنقذ منها . فيقول في سورة النحل: « أمَّن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفـاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟قليلا ما تذكرون • أمَّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الريـاح بشرى بين يدي رحمته أإله مع الله ؟ تعـالى الله عمـا يشركون » •

وورد في الحديث القدسي ما يدعـو الى التحلي بالرجـاء في الله ، والحث على حسن الظن به ، فقال : « أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي مـا يشاء » •وقال : « يا ابن آدم ، انك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي » • وأكد الحديث النبوي هذا المعنى الجميل النبيـل فقال : « لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بربه » •

ويرى الامام ابن القيم أن منزلة الرجاء منزلة كريمـة سامية ، لأنهـا تكشف عن فضيلة جليلة عالية ، وهو يبسط هذا المعنى بعبارته التي تذكر أن الرجاء هو « هو عبودية ، وتعلق بالله من حيث اسمه « المحسن البر » ، فذلك التعلق والتعبد بهذا الاسم والمعرفة لله ، هو الذي أوجب للعبـد الرجاء ، من حيث يدري ومن حيث لا يدري ، فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ، وغلبة رحمته غضبه ، ولولا روح الرجـاء لعُطِّلت عبودية القلب والجوارح ، وهـدمت صوامع وبيـع وصلـوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة ، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الارادات » •

ثم يسوق أبياتا من الشعر يقول فيها :

لولا التعلق بالرجاء تقطعت	نفس المحب تحسرا وتمزقـا
وكذاك لولا برده بحرارة الأ	كباد ذابت بالحجاب تحرقا
أيكون قط حليف حب لا يرى	برجائه لحبيبـه متعلقـا ؟

أم كلما قويت محبته له قوي الرجاء فزاد فيه تشوقا
لولا الرجا يحدو المطيّ لما سرت بحمولها لديارهم ترجو اللقا

ثم يردف ذلك بقوله : « وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء ، فكل محب راج خائف بالضرورة ، فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون اليه . وكذلك خوفه ، فانه يخاف سقوطه من عينه ، وطرد محبوبه له وابعاده واحتجابه عنه . فخوفه أشد خوف ، ورجاؤه ذاتي للمحبة ، فانه يرجوه قبل لقائه والوصول اليه ، فاذا لقيه ووصل اليه اشتد الرجاء له . لما يحصل له به من حياة روحه ، ونعيم قلبه من الطاف محبوبه ، وبره واقباله عليه ، ونظره اليه بعين الرضى، وتأهيله في محبته. وغير ذلك مما لا حياة للمحب ولا نعيم ولا فوز الا بوصوله اليه من محبوبه ، فرجاؤه أعظم رجاء وأجله وأتمه .

فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة ، فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء ، وعلى قدر تسكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه ، لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة ، بخلاف خوف المسيء ، ورجاء المحب لا تصحبه علة ، بخلاف رجاء الأخير » .

وينبغي أن نفهم أن الرجاء يستعمل بمعنى الخوف في لغة القرآن . وذلك لان الراجي يخاف ألا يحقق أمله ، ومن قبيل استعماله مادة الرجاء بمعنى الخوف قول الله تعالى : « ما لكم لا ترجون لله وقارا » . أي ما لكم لا تخافون لله عظيمة ؟ .

والرجاء والخوف في مفهوم مهذبي الأخلاق ومؤدبي الأرواح يتلازمان ، لان التطلع الى المرغوب يصحبه توقع لحدوث المكروه ، فيظل الانسان راجيا وهو خائف ، ويظل خائفا وهو راج ، وبذلك يكون على الصراط . بمفهوم قول الله تعالى عن عباده الطيبين : « يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم

أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ». وقد أعطى أبو علي الروذباري تصويرا جميلا لهذا التلازم بين الرجاء والخوف ، فصورهما بصورة جناحي الطائر ، اذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، واذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، واذا ذهب الجناحان صار الطائر في حد الموت !

ولقد روت السنة المطهرة أن سيدنا رسول الله عليه صلوات الله وسلامه دخل على رجل وهو في النزع ، فسأله : كيف تجدك ؟. فقال الرجل : أجدني أخاف ذنوبي ، وأرجو رحمة ربي . فقال النبي : « ما اجتمعا فيقلب عبد في هذا الموطن الا أعطاه الله ما رجا، وأمنه مما يخاف» .

ونجد أبا حامد الغزالي أيضا يستحسن أن يصور الرجاء والخوف عند المؤمنين بأنهما جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود، فانه لا يقود الىحمى الرحمن وساحة الجنان ، مع أن هذا الطريق بعيد الأرجاء ، ثقيل الأعباء ، محفوف بمكاره القلوب ومشاق الارواح والاعضاء ، الا أسباب الرجاء ، ولا يصون عن نار الجحيم والعذاب الأليم ــ مع كون طريقها محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات ــ الا سياط التخويف .

ويأتي حاتم الأصم فيجعل أصل الطاعة ثلاثة أشياء هي : الرجاء والخوف والحب ، فيضيف اليهما الحب كما ترى ، ويؤكد أبو علي الجوزجاني هذا حين يجعل الخوف والرجاء والمحبة من أسس التوحيد ، لان زيادة الرجاء تأتي من اكتساب الخير لرؤية الوعد ، وزيادة الخوف تأتي من كثرة الذنوب لرؤية الوعيد ، وزيادة المحبة تأتي من كثرة الذكر لرؤية المنّة ، فالراجي لا يستريح من الطلب، والخائف لا يستريح من الهرب، والمحب لا يستريح من ذكر المحبوب ، فالرجاء نور منوّر ، والخوف نار منوّرة ، والمحبة نور الأنوار .

وهكذا يربط هذا البيان الروحي بين الرجاء والخوف من جهة ،

والمحبة من جهة أخرى ، فيعطى الرجاء ولازمه الخوف ارتباطا بمحبة الله ، فتجعلهما نعمة وضياء ، فيأنس العبد بربه ، ويعكف على حبه ، حتى يحق لسري السقطي أن يقرر أن هناك أشياء لا يسكن معها في القلب غيرها ، هي الخوف من الله وحده ، والرجاء لله وحده ، والحب لله وحده ، والأنس بالله وحده : « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » .



ولقد يشتبه الرجاء بالتمني ، مع أن بينهما فرقا ينبغي أن يلحظ ، فالرجاء انما يكون حسن ظن مصحوب بالعمل والطاعة ، وحسن التوكل ، والراجي كمن يشق أرضه ، ويفلحها ، ويصلحها ، ويستثمرها ، ويرجو الحصاد من الرب ، ولكن « التمني » يكون مع الكسل وعدم العمل وانقطاع الطاعة ، وهو لذلك آفة تصدع الكيان الأخلاقي للانسان ، ومن هنا قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « الأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني » .

والتمني كما يقول الراغب هو تقدير شيء في النفس ، وتصويره فيها ، وذلك قد يكون عن تخمين وظن ، ويكون عن روية وبناء على أصل ، ولكن لما كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملك ، فأكثر التمني تصور ما لا حقيقة له ، ولذلك صاروا يعبرون عن الكذب بالتمني .

ولذلك قالوا ان الرجاء ذو شعب ثلاث هي : العلم والمال والعمل ، فالعلم يثمر المال ، والمال يقتضي العمل ، وعنوا كثيرا بالتأكيد على تلازم الرجاء والعمل ، حتى لا يكون تمنيا كاذبا ، ومما يشير الى اقتران الرجاء بالعمل قول الله جل جلاله : « ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » . وكذلك قوله : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا » .

واذا كان الرجاء بلا عمل صار غرورا . ويصور الغزالي الفـرق بين الرجاء والغرور ـ أو التمني ـ بالصورة الحسية الموضحة المجسمة التي يقول فيها : « فكل من طلب أرضا طيبة . وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس . ثم أمده بما يحتاج اليه . وهو سوق الماء في أوقاته ، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثـم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة . الى أن يتم الزرع ويبلغ غايته . سمي انتظاره رجاء .

وان بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة ، لا ينصب اليها الماء . ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ، ثم انتظر الحصاد منه ، سمي انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء . وان بث البذر في أرض طيبة ، لكن لا ماء لها ، وأخـذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضا ، سمي انتظـاره تمنيا لا رجاء ... » .

واذا تعرفنا الى درجات الرجاء وجدنا أولاهـا وأعلاها هي رجـاء المؤمن الذي يعمل لطاعة الله ، على نور من الله . وهـو يرجو ثوابـه . وأقل منها درجة هي رجاء من أذنب ذنوبا ثم تاب منها، فهو يرجو عفو الله وغفرانه واحسانه . وأحط الدرجات رجاء من يتمادى في الخطأ والاهمال، ثم يرجو رحمة ربه بلا عمل . وهذا رجاء كاذب ، لان الرجـاء لا يصدق الا مع العمل .



ولا يليق بالعاقل أن يتوسع في الرجاء فيخرج به عن حد الفضيلـة الى أن يكون لهوا صارفا عن الايمان بالله والاستجابة له ، فان الحـق جل جلاله يقـول في شأن الكافرين : « ذرهم يأكلوا ويتمتعـوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » أي اترك هؤلاء الكافرين ، لا يهمهم الا أن يأكلوا

ويتمتعوا بشهواتهم ، ويشغلهم الأمل الواسع عن الاتجاه الى الايمان بالله وطاعته ، فسوف يعلمون العاقبة الوخيمة لذلك ، يوم يلقون الله فيعاقبهم على كفرهم ، وحينئذ يعلمون علم اليقين أنهم كانوا في باطل وضلال •

ورذيلة الكافرين التي لا بعدها رذيلة أنهم محرومون من الرجاء في الله وحسن الظن به والأمل في رحمته ، ولذلك حمل القرآن المجيد حملة صارمة على أولئك اليائسين من لقاء الله لقاء رحمة وثواب ، فيقول في سورة يونس : « ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عنآياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » • أي لا يتوقعون لقاء الله في الآخرة أبداً لانهم منكرون للبعث ، أو لا يؤملون لقاء الله الخاص بالمتقين في دار الكرامة •

ويقول في سورة يونس أيضا : « ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون » • ويقول كذلك : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان أتبع الا ما يوحى الي" اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم » • ويقول في سورة الفرقان : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا • لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا » ••• الخ •

واذا كان الرجاء فضيلة كبرى في ميدان مكارم الاخلاق، فان ضده وهو القنوط أو اليأس رذيلة مردية من رذائل المنحرفين عن الصراط ، ولذلك نهى القرآن عن اليأس أو القنوط فقال في سورة الحجر : « قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ، قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » • وقال فى سورة الزمر : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على

أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم » . وقال في سورة يوسف : « ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

وحمل القرآن على الانسان الجاحد الضال بسبب يأسه وقنوطه ، فقال في سورة هود : « ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤوس كفور » . أي انه في هذه الحالة شديد اليأس من الرحمة، قطوع الرجاء من عودة تلك النعمة . كثير الكفران لغيرها من النعم التي لا يزال يتمتع بها ، فضلا عما سلف منها ، فهو يجمع بين اليأس مما نزع منه ، والكفر بما بقي له ، لحرمانه من فضيلتي الصبر والشكر .

ويقول في سورة الاسراء : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشركان يؤوسا » . أي اذا أنعمنا عليه تكبر وتباعد عن القيام بحقوق الله ، واذا ابتلاه الله بشدة من فقر أو مرض يئس وقنط ، لانه لا يثق بفضل الله تعالى ، ولا يحسن الظن به . ويقول في سورة العنكبوت : « والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي، وأولئك لهم عذاب أليم » ... الخ .

وأما المؤمن الذي هداه الرحمن ورباه القرآن ، فانه يعتصم بحبل الله القوي المتين ، ويستضيء بهدي ربه المبين ، فيظل متمسكا بعروة الأمل والرجاء ، ان نالته نعمة شكر ، وان ابتلاه الله احتمل وصبر ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .



ويأتي حديث الرجاء عند الصوفية ...

ان الصوفية يعرّفون الرجاء بعدة تعريفات . فالرجاء هو الثقة بجود الله تعالى ، وهو الارتياح لمطالعة كرم الله سبحانه ، وهو الاستبشار

بجود الرب وفضله تبارك وتعالى ، وهو النظر الى سعة رحمة الله عز وجل ، الى غير ذلك من التعريفات .

ويذهب فريق من أهل التصفية الروحية واللطائف الأخلاقية الى أن رجاء المخطىء التائب ، قد يكون أقوى أو أكمل من رجاء المحسن الذي ينظر الى عمله ، ولذلك كان يحيى بن معاذ يقول في مناجاته لربه :

« يكاد رجائي مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الاعمال ، لانـي أجدني أعتمد في الأعمال على الاخلاص ، وكيف أصفي الأعمال وأحرزها وأنا بالآفات معروف ؟ وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك ، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف ؟.

الهي ، أحلى العطايا في قلبي رجاؤك ، وأعـذب الكلام على لساني ثناؤك ، وأحب الساعات اليّ ساعة يكون فيها لقاؤك » !.

وهذا رجاء رحيب الأرجاء ، يذكرنا بقول الشاعر في هذا الباب :

واني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظن ما الله صانع !



واذا كان الرجاء فضيلة أخلاقية اسلامية مطلوبة محبوبة ، فلا بـد ان يكون لها حكمة وفائدة وثمرة ، وابن القيـم يتوسع في الحديث عن فوائد الرجاء ، ومنها هذه الفوائد :

١ ـ اظهار العبودية والافتقار الى الله ، والحاجة الى ما يرجوه من ربه ، ويتطلع اليه من احسانه ، وأنه لا يستغني عن فضله واحسانه طرفـة عين .

٢ ـ ان الله سبحانه يحب من عبـاده أن يرجوه ويسألـوه من

فضله ، لانه الملك الواسع الجود والعطاء ، وهو أجود من سئل ، وأوسع من أعطى، وأحب شيء الى الجواد أن يسأله السائلون ويرجوه الراجون، حتى ورد في الحديث : « من لم يسأل الله يغضب عليه » •

٣ ـ الرجاء حاد يحدو الراجي في مسيرته الى ربه ، ويحثه عليها ، فلولا الرجاء ما سار أحد ، فان الخوف وحده لا يحرك العبد ، وانما يحركه الحب ، ويزعجه الخوف ، ويحدوه الرجاء •

٤ ـ ان الرجاء يضع صاحبه على عتبة الحب ، ويدخله ساحته ، فكلما اشتد رجاء العبد ، وحصل له ما يرجوه ، ازداد حبا لله تعالى ، ورضى عنه ، وشكرا له •

٥ ـ ان الرجاء هو الذي يبلغ بصاحبه المقام الأعلى : مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية ، فاذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره •

٦ ـ الرجاء يوجب لصاحبه المزيد من معرفة صفات الله وأسمائه الحسنى ، فيتعلق بها ويدعوه بها ، كما قال الحق جل جلاله : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » • وهذه الأسماء هي أعظم ما يدعو بها الداعي •

٧ ـ ان الله تبارك وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته ، من الذل والانكسار ، والتوكل والاستعانة ، والخوف والرجاء ، والصبر والشكر ، والرضى والانابة ، وغيرها ، فالرجاء عنصر من عناصر التكملة لهذه العبودية •

٨ ـ في الرجاء انتظار وترقب وتوقع لفضل الله ، وهذا يجعل القلب متعلقا على الدوام بذكر الله ، موصول الالتفات اليه ، ومن كان مع الله كان الله معه ، ومن كان معه سعد وفاز •



وما أجمل قول من قال :

اذا اشتملت على اليأس القلوب	وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطنـت المكـاره واطمـأنت	وأرست في مكامنه الخطوب
ولـم تر لانكشاف الضر وجها	ولا أغنـى بحيلتـه اللبيب
أتـاك على قنوط منـك غوث	يمن بـه اللطيف المستجيب
فكـل الحادثات اذا تنـاهت	فموصول بها الفرج القريب !

اللهم لا تحرمنا نعمة الرجاء فيك ، والامل في كرمك وفضلك !



الاخبات

« الاخبات » كلمة فيها معنى الاطمئنان مع اللين ، لانها كلمة مشتقة من مادة « الخَبت » وهو المكان المطمئن الواسع من الأرض . وأخبت الانسان : اذا قصد المكان المطمئن أو نزله . وجـاء في « تاج العروس » أن من المجاز قولهم : أخبت الرجـل الى اللـه ، اذا خشع وتواضـع . وأخبتوا الى ربهم ، أي اطمأنـوا اليه ، ويقـال : فلان يصلـي بخشوع واخبات ، وخضوع وانصات . ولذلك يستعمـل الاخبـات بمعنى اللين والتواضع والوقار .

وقد ذكر القرآن الكريم فضيلـة « الاخبات » في ثلاثة مواطـن ، وتعرض المفسرون لبيان المعنى المراد من الاخبات في لغة التنزيل المجيد ، فذكروا ما يقرب من سبعة معـان هي : الخوف من اللـه ، والانابـة والاطمئنان والخشوع واللين والتواضع والخضوع ، ونستطيع أن نقول ان « الاخبات » فضيلة من الفضائل القرآنية ، وخلق من مكارم الأخلاق الدينية ، يقوم مفهومه ــ تقريبا على مزيج من الخوف والانابة والخشوع والطمأنينة [1] .

وأول موطن جاء فيه ذكر « الاخبات » من القرآن المجيد ، يوجـد

---

(١) تحدثنا بتوسيع عن كل فضيلة من هذه الفضائل في الجزء الاول من هذا الكتاب .

في سورة هود حيث يقول الحق جل جلاله : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم أولئك أصحاب الجنة همفيها خالدون » .
وقد تحدث المفسرون عن معنى قوله في هذه الآية : « وأخبتوا الى ربهم » فقالوا ان المعنى : تواضعوا لربهم وتخشعوا ، واطمأنوا اليه ، وانقطعوا الى عبادته . وكذلك أورد ابن جرير الطبري أقوالا في معنى الاخبات هي أنه الانابة أو الخوف أو الاطمئنان أو الخشوع أو الخضوع ، ثم علق ابن جرير على هذه الآراء بقوله :

« وهذه الأقوال متقاربة المعاني ، وان اختلفت ألفاظها ، لان الانابة الى الله من خوف الله ، ومن الخشوع والتواضع بالطاعة . والطمأنينة اليه من الخشوع له ، غير أن نفس الاخبات عند العرب الخشوع والتواضع » .

وكأن الآية السابقة الذكر — مع ما سبقها وما لحق بها — استعراض لحال المشركين ، وحال الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، لاظهار الفرق بين المتمردين والمخبتين ، ففي الآيات العشرين والحادية والعشرين والثانية والعشرين من سورة هود ، كان الحديث عن المشركين بقوله تعالى : « أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون » .

وتأتي عقب ذلك الآية التي فيها ذكر الاخبات ، وفيها صفة الصحابة المؤمنين ، فتقول كما سبق : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

ثم تأتي عقب ذلك الآية الرابعة والعشرون ، وفيها المقارنة الممتزة بين

الفريقين ، فتقول : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع، هل يستويان مثلا أفلا تذكرون » •

وبسبب هذا الاستعراض وتلك المقارنة نجد المفسر ابن كثير يعلق على تلك الآيات التي سقناها سابقا ، فيقول : « لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء ، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فآمنت قلوبهم ، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولا وفعلا ، من الاتيان بالطاعات ، وترك المنكرات ، وبهذا ورثوا الجنات ، المشتملة على الغرف العاليات ، والسرر المصفوفات ، والقطوف الدانيات ، والفرش المرتفعات، والحسان الخيرات ، والفواكه المتنوعات ، والمآكل المشتهيات ، والمشارب المستلذات ، والنظر الى خالق الأرض والسموات ، وهم فيذلك خالدون ، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ، ولا ينامون ولا يتغطون ، ولا يبصقون ولا يتمخطون ، ان هو الا رشح مسك يعرقون •

ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين ، فقال : (مثل الفريقين) أي الذين وصفهم أولا بالشقاء ، والمؤمنين بالسعادة ، فأولئك كالأعمى والأصم ، وهؤلاء كالبصير والسميع ، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة ، لا يهتدي الى خير ولا يعرفه ، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به : (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) الآية •

وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب بصير بالحق ، يميز بينه وبين الباطل ، فيتبع الخير ويترك الشر ، سميع للحجة ، يفرق بينها وبين الشبهة ، فلا يروج عليه باطل ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ أفلا تذكرون ؟•• أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء » ؟•

ونلاحظ في قوله تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » ان الآية ذكرت الايمان أولا ، ثم ذكرت العمل الصالح ثانيا ، ثم ذكرت الاخبات

بعد ذلك ، وهذا الترتيب يشير الى أن الاخبات كأنه ثمرة للايمان والعمل، والمعنى العام للآية هو أن الذين آمنوا واعتقدوا بربوبية الله اعتقادا جازما ، وصدقوا قوله وحكمه ، ثم قرنوا الايمان بالعمل الصالح ، واطمأنت نفوسهم بالايمان ، ولانت قلوبهم ، وخشعوا واطمأنوا ، فلم يبق عندهم زلزال ولا اضطراب ، أولئك المتصفون بما سبق هم أصحاب الجنة المستحقون لها بالذات ، الخالدون فيها أبدا •



وجاء ذكر المخبتين مرة ثانية في قوله تعالى في سورة الحج : « ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فالهكم اله واحد ، فله أسلموا وبشر المخبتين » أي الخاشعين المتواضعين، أو المطمئنين ، أو الوجلين ، أو الراضين بقضاء الله المستسلمين له ، أو الذين لا يظلمون غيرهم ، أو الذين ان ظلمهم غيرهم لم ينتصفوا ••• هكذا تحدثت التفاسير المختلفة عن كلمة « المخبتين » • ولعل أحسن تفسير لهم هو ما جاء في الآية التالية ، وهي قوله تعالى عقب ذلك : « الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمي الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون » •

والمعنى العام للآية الأولى هو : لقد شرعنا لكل أمة من الأمم السالفة ، من عهد ابراهيم عليه السلام الى من جاء بعده ، ضربا من ضروب القربان ، يذبحونه تقربا الى الله ، من الابل أو البقر أو الغنم ، ليذكروا اسم الله ، والمشرع واحد هو الله ، وانما تختلف التكاليف باختلاف الازمنة والاشخاص ، لاختلاف المصالح • فلا تذكروا على ذبائحكم غير اسم الله ، فالهكم اله واحد لا شريك له ، فاياه فاعبدوا ، وله أخلصوا الطاعة واستسلموا لحكمه ، وانقادوا له في جميع التكاليف ، فمن انقاد كان مخبتا ، وبشر يا رسول الله أولئك الخاضعين لله بالطاعة ،

المذعنين له بالعبودية . المنيبين اليه بالتوبة . المطمئنين الى الله المتواضعين لــه .

والآية الثانية نفهم منهــا أن هؤلاء المتحلين بفضيلــة الاخبــات ، يتصفون بأربع صفات . أولاهــا هي أن قلوبهم تخــاف اللــه وتخشاه ، وثانيتها أنهم يصبرون على ما يسوقه الله اليهم مــن ابتلاء أو اختبار ، وثالثتها أنهم يحافظون على الصلوات ويؤدونها سليمة قوية ، ورابعتها أنهم ينفقون مما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم ، ويحسنون الى الخلق ، مع محافظتهم على حدود الله .

ومما رواه التاريخ بمناسبة قول الله تعالى : « وبشر المخبتين » أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان اذا رأى الربيع بن خيثم قال عنه : « وبشر المخبتين » . فلم كان يقول عنه ذلك كلما رآه ؟!

روى الامام حجة الاسلام أبو حامد الغزالي في ذلك أن الربيع كان كثير الخشوع لله ، وكان يغض بصره ويطرق ، فيحسب الناس أنه كفيف البصر . وكان يزور ابن مسعود ، فاذا طرق عليه الباب ، وفتحت الجارية له . رأته مطرقا غاضا بصره ، فتعود الى ابن مسعود وتقول له : « صديقك الأعمى قد جاء » !..

ويخرج ابن مسعود الى استقباله قائلا له : « وبشر المخبتين ، أمــا والله لو رآك محمد صلى الله عليه وسلم لفرح بك ، أو لأحبك » .

والربيع هذا الذي كان مثلا من أمثلة المخبتين ، ونموذجا من نماذج الخاشعين كان يعد أحد الثمانية الذين انتهى اليهم الزهــد في التــابعين ، فقد جاء في « العقد الفريد » أن العتبي قال : « سمعت أشياخنا يقولون : انتهى الزهد الى ثمانية من التابعين : عــامر بن عبد القيس ، والحسن بن أبي الحسن البصري ، وهرم بن حبان ، وأبي مسلم الخراساني ، وأويس القرني ، والربيع بن خيثم ، ومسروق بن الأجدع ، والأسود بن يزيد »

وهو الذي كان يخشع في صلاته . ويشعر بجلال من يناجيه ويصلي له . وكان يقول : « ما دخلت في صلاة قط فأهمني فيها الا ما أقول وما يقال لي » •

ولقد رأى بعض الناس الربيع بن خيثم يتعب نفسه في العبادة . فقالوا له ناصحين : لو أرحت نفسك ؟• فأجاب : « راحتها أريد » !!•

ولذلك كان يقول : « لو أن لي نفسين . اذا علقت احداهما سعت الأخرى في فكاكها ؟• ولكنها نفس واحدة . فان أنا أوثقتها من يفكها » ؟!

ومن نصائحه أيضا قوله : « كن وصي نفسك ، ولا تجعل أوصياءك الرجال » •

وحينما مرض الربيع بن خيثم قيل له : ألا ندعو لك طبيبا ؟

فقال : أنظروني • ثم فكر وقال : « وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا . قد كانت فيهم أطباء ، فما أرى المداوي بقي ولا المداوى . هلك الناعت ، والمنعوت له ، لا تدعوا لي طبيبا » !•

وأوصى الربيع بن خيثم — وكفى بالله شهيدا ، وجازيا لعباده الصالحين ومثيبا — فكانت وصيته : « اني رضيت بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد رسولا ، وأوصي نفسي ومن أطاعني ، أن يعبد الله في العابدين ، ويحمده في الحامدين ، وينصح لجماعة المسلمين » •

وأوصى أهله بشأن ما يفعلونه عند موته : « لا تشعروا بي أحدا ، وسلّوني الى ربي سلاّ » !!•

لعلنا بعد هذا نعرف لمـــاذا كان ابن مسعود يردد قولــه : « وبشر المخبتين » كلما رأى الربيع بن خيثم ، ولمـــاذا كان يقول له كلمـــا رآه : أما والله لو رآك محمد صلى الله عليه وسلم لفرح بك ، أو لأحبك » •



والموطن الثالث الذي جاء فيه ذكر فضيلة « الاخبات » هو قول الله تعالى في سورة الحج : « وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربــك ، فيؤمنوا به ، فتخبت له قلوبهم ، وان الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم » •

وقوله : « فتخبت له قلوبهم » أي تلين وتخشع ، وتذل وتخضع ، وتذعن للقرآن وتقر بما فيه •

ولنلاحظ أن الآية الكريمة ذكرت العلم بالحق ، ثم ذكرت الايمان ثم ذكرت الاخبات ، ثم ذكرت الاستقامة على صراط الهدى والفلاح ، فكأن الاخبات ثمرة للعلم والايمان ، ومفتاح الاستقامة والاهتداء ، وفي ذلك ما فيه من تذكير بمكانة فضيلة «الاخبات » وشأنها •

ولنلاحظ أيضا أن القرآن الكريم قد ذكــر هؤلاء المخبتين العالمين المؤمنين المهتدين ، في آية تتوسط بين آية سابقة عليها تتحدث عن الذين لهم قلوب قاسية والذي قست قلوبهم ، وآية لاحقــة لها تتحــدث عن الكافرين الذين لا يزالون في شك ومرية ، حتى تأتيهم الساعــة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ، ومن هذا الأسلوب نستطيع أن نفهم أن المخبتين ليس للشيطان عليهم من سبيل •

وهكذا يسير النظم القرآني البليغ في هذا الموطن : « ليجعل مــا يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهــم مرض والقاسيــة قلوبهم • وان الظالمين لفي شقاق بعيد ، وليعلم الذين أوتوا العلم انه الحق من ربك ،

فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وان الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم ، ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم » •



وللصوفية مع « الاخبات » حديث ، فالاخبات عندهم ــ كما يقول الهروي ــ هو أول مقامات الطمأنينة • وكذلك يقول الهروي : « الاخبات ورود المأمن من الرجوع والتردد » • ويقبل ابن القيم على شرح هذه الجملة فيقول : « لما كان الاخبات أول مقام يتخلص فيه السالك من التردد ، الذي هو نوع غفلة واعراض ، والسالك مسافر الى ربه ، سائر اليه على مدى أنفاسه ، لا ينتهي مسيره اليه ما دام نفسه يصحبه ، شبّه حصول الاخبات له بالماء العذب الذي يرده المسافر على ظمأ وحاجة في أول مناهله ، فيرويه منهله ، ويزيل عنه خواطر تردده في اتمام سفره ، أو رجوعه الى وطنه لمشقة السفر •

فاذا ورد ذلك الماء زال عنه التردد وخاطر الرجوع ، كذلك السالك اذا سلك مورد الاخبات تخلص من التردد والرجوع ، ونزل أول منازل الطمأنينة بسفره ، وجدّ في السير » ! •

والاخبات عندهم درجات ومراتب،أولاها أن تسيطر عزيمة السالك على شهوته فلا يميل الى مطالب النفس ، بل تتغلب ارادته على غفلته ، وثانيتها ألا ينقض عزيمته سبب ، ولا تعرض له وحشة في سعيه نحو ربه، ولا تقطع الفتنة عليه طريقه ، وثالثتها أن تعلو همته وتعلو ، حتى يستوي عنده المدح والذم ، فلا يفرح لمدح الناس ، ولا يحزن لذمهم •

وهم يرون أن النفس بشهواتها وميولها هي العائق الأكبر عن الوصول الى صدق التحلي بفضيلة الاخبات الى الله عز وجل ، وهي الحجاب الذي يحول دون وصول العبد الى الله ، ولذلك يقول ابن

القيم : « فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير الى الله عز وجل ، وكل سائر لا طريق له الا على ذلك الجبل . فلا بد أن ينتهي اليه . ولكن منهم من هو شاق عليه ،ومنهم من هو سهل عليه وانه ليسير على من يسره الله عليــه •

وفي ذلك الجبل أودية وشعوب . وعقبات ووهود ، وشوك وعوسج. وعليق وشبرق . ولصوص يقطعون الطريق على السائرين . ولا سيما أهل الليل المدلجين.فاذا لم يكن معهم عدد الايمان ومصابيح اليقين تتقد بزيت الاخبات ، والا تعلقت بهم تلك الموانع ، وتشبثت بهم تلك القواطــع . وحالت بينهم وبين السير ؛ فان أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته •

والشيطان على قلّة ذلك الجبل يحذر الناس من صعوده وارتفاعه . ويخوفهم منه ؛ فيتفق مشقة الصعود . وقعُود ذلك المخوف على قلته ، وضعف عزيمة السائر ونيته؛فيتولد من ذلك الانقطاع والرجوع والمعصوم مَنْ عصمه الله •

وكلما رقي السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع وتحذيــره وتخويفه . فاذا قطعه وبلغ قلّته . انقلبت تلك المخاوف كلهن آماناً ،وحينئذ يسهل السير ؛ وتزول عنه عوارض الطريق ومشقة عقباتها ؛ ويرى طريقا واسعاً آمنا ، يفضي به الى المنازل والمناهل ، وعليه الأعلام وفيه الاقامات قد أعدت لركب الرحمن •

فبين العبد وبيــن السعادة والفــلاح قوة عزيمة ، وصبر ساعــة ، وشجاعة نفس ، وثبات قلب ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » •

فليرفع المؤمن رأسه الى السماء قبلة الدعاء . وليرج ربه أن يحليــه بفضيلة الاخبات والخشوع والطاعة • وليدع كما دعا رسول الله عليــه الصلاة والسلام : اللهم اجعلني لك مخبتا !•• والبشرى للمخبتين !••

القوة

مادة « القوة » تدل على الصلابة والتماسك . يقال : قوي الشخص أو الشيء يقوى،أي تماسكت أجزاؤه . وتستعمل المادة في الأشياء المادية والمعنوية ، فيقال : قويت أطرافه ، وقوي عقله ، وقويت عزيمته ، وقويت مكانته ومنزلته ، وفي مادة « القوة » أيضا معنى القدرة والاستطاعة في الماديات والمعنويات .

ولقد ذكر القرآن الكريم القوة الحسية في البدن حيث قال في سورة الروم : « الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير » . ولكنه ذكر القوة المعنوية في مواطن كثيرة ، وهذه القوة المعنوية فضيلةمن الفضائل يعنى بها رجال الاخلاق والادب ، فالقرآن يستعمل القوة بمعنى صدق العزيمة وصلابة الارادة ، فيقول في سورة البقرة : « واذ أخذنا ميثاقكمورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » . أي تقبلوه واحرصوا عليه ، واعملوا بجد ونشاط ، ولا تميلوا الى الضعف والوهن .

ويقول القرآن عن موسى عليه السلام في سورة الاعراف : « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين».أي خذها بجد وعزيمة.

ومثل هذا في سورة مريم ، وهو : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا » .

والقوة التي تتصل بالمعنويات أنواع وألوان ، فهناك قوة الايمان ، وقوة الأخلاق . وقوة العلم . كما أن هناك قوة العمل وقوة الجهاد ، وقوة الرأي . وقوة الكلمة . فاذا توافرت هذه الانواع لانسان فقد بلغ قمة ملحوظة في تقدير رجال الأخلاق والفضائل ، واذا توافر له جانب من هذه الأنواع كان له من المنزلة بقدر هذا الجانب .

ومما يدل على شرف « القوة » بأجلى برهان هو ان القرآن الكريم وصف ذا الجلال والكمال والجمال سبحانه بالقوة ، فقال في سورة هود: « ان ربك هو القوي العزيز » وقال في سورة الانفال : « ان الله قوي شديد العقاب » . ووصف القرآن رب العزة بأن القوة كلها له فذكر في سورة البقرة : « أن القوة لله جميعا » ، وكرر وصف الله بوصفي القوة والعزة معا سبع مرات .

واذا تطلعنا الى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لوجدناه مثلا باهرا في القوة ، ففوق ما آتاه الله من سلامة الحس والنفس ، ونقاء الجسم وفتوة البدن، آتاه القوة الروحية الاخلاقيةالقائمةعلى الثباتوقوة الارادة وصلابة العزيمة ، ولا عجب فهو القائل وقد تألبت عليه جموع المشركين : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ،على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه » . وهو الذي كان يتحصن به الاشداء الاقوياء من صحابته في ساحات الجهاد وساعات الهول ، حتى يقول عنه الامام علي : « كنا اذا اشتد البأس واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم،فما يكون احد منا أقرب الى العدو منه » .

ويقول البراء : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تشمر

للقتال أشد الناس بأسا ، وكان الشجاع منا هو الذي يقترب منه في الحرب لشدة قربه من العدو » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبب في القوة العاقلة الفاضلة ، فكان يدعو ربه قائلا : « أعوذ بك من العجز والكسل » . ويقول « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وان أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل، فان (لو) تفتح عمل الشيطان » .

وبعض الناس – كما أوضحت في كتابي « من أدب النبوة » يتوهمون حين يسمعون صدر هذا الحديث أن المراد بالقوة فيه هو قوة البدن فحسب ، مع أن اطلاق القوة هنا يشمل قوة البدن وقوة العقل ، وقوة الروح ، وقوة العمل ، كما أن الضعف وهو ضد القوة يكون في هذه الأشياء كلها ، ولذلك ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله : « ليس الشديد بالصرعة ، انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »، والصرعة هو الرجل الموفور القوة ، الذي يعتمد على متانة الأعضاء فحسب [1] .



ويقول القرآن المجيد على لسان ابنة شعيب في حق موسى عليه السلام : « يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين » أي القادر على انجاز عمله بجد ونشاط ، مع أمانة واخلاص . ويروى أن أباها قال لها : وما علمك بقوته وأمانته ؟. فأجابت : انه رفع الصخرة التي

---

(١) انظر كتابي « من أدب النبوة » ص ٢٩٧ – ٣٠١ طبع مطابع الاهرام التجارية بالقاهرة سنة ١٩٧١ .

لا يطيق حملها الا عشرة رجال ، واني لما جئت معه تقدمت أمامه . فقال لي : كوني من ورائي ، فاذا اختلف علي الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق ، لأهتدي اليه .

والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا ــ كما يحدثنا القرآن في سورة آل عمران ــ يستعينون بفضيلة القوة على الثبات في المعارك . فيقول القرآن: «وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير (علماء فقهاء كثيرون) فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا . وثبت أقدامنا . وانصرنا على القوم الكافرين » . ولقد أدرك لوط عليه السلام قيمة القوة وعبر عن فائدتها ، حينما رأى الخبثاء الفاسقين من قومه يحاولون الاعتداء على أضيافه . فقال نهؤلاء الاضياف في ما جاء في سورة هود : « لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد » .

وفي كتابي « الدين للحياة » صفحات تتحدث عن القوة في الاسلام بصفة عامة . وعن القوة في القرآن بصفة خاصة ، وفيها أن الاسلام « هو دين القوة التي لا تطغى ، والشدة التي لا تبغي ، ولعل القرآن الكريم ، وهو دستور العربية الاعلى ــ قد أراد أن يبسط هذا المعنى في أسماع الناس وعقولهم ، وأن يؤكده في قلوبهم وأرواحهم ، حينما احتفل في حديثه عن القوة هذا الاحتفال .

ان القرآن الكريم يحدثنا عن صفات الله ذي الطول والانعام ، فيذكر لنا من هذه الصفات صفة القوة . وفي وصف الله بالقوة أكثر من مرة ايحاء الى المؤمنين بأن يكونوا أقوياء ، لانهم يلجأون الى حصن منيع وعرش رفيع ، فلهم من ذلك قوة ، ولهم من ذلك أسوة . يقول القرآن المجيد : « ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . « ان ربك القوي العزيز » . « وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال » أي شديد القوة.

« والله أشد بأسا وأشد تنكيلا » . « ولينصرن الله من ينصره. ان الله لقوي عزيز » ، « كتب الله لاغلبن أنا ورسلي ، ان الله لقوي عزيز » .

والقرآن الكريم يحدثنا عن جبريل عليه السلام ، وهو أحد الملائكة وسفير الله الى أنبيائه ورسله . وأمينه على وحيه . فيصفه بالقوة أيضا . مع أن طبيعة الملائكة النورانية . ومجاليها الصافية المباركة . قد لا يناسبها — في الظاهر — هذا الوصف . فيقول عنه : « انه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين » . ويقول : « ان هو الا وحي يوحى . علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى » .

والقرآن الكريم يحدثنا عن الرسل ، وهم المعصومون المؤيدون بنصر الله تعالى وهدايته ، الذين تتنزل عليهم جنود السماء . فتقودهم من نصر الى نصر . ومع ذلك نرى القرآن يصفهم بالقوة وشدة البأس وبسطة الجسم وتوافر الفتوة ، فهو يقول عن النبي الملك طالوت:«ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم » .

وهذا موسى عليه السلام يدرك ما في القوة والتعاون بها من خير وسبب للوصول ، فيقول لربه : « واجعل لي وزيرا من أهلي . هارون أخي . اشدد به أزري » ..

والقرآن الكريم يصف رسول الله محمدا عليه الصلاة والسلام ، ويصف أمته ، فينعتهم بالقوة ، فيقول : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

والقرآن يتحدث عن « ذي القرنين » في اصلاحه . فيجعل القوة من اسباب نجاحه . فيقول : « قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما » .

والقرآن يتحدث عن عفريت سليمان الذي أراد أن يحضر له عرش

بلقيس ، فيجعل من أسباب ثقته بفعل ذلك قوته ، فيقول : « قال غفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، واني عليه لقوي أمين » .

وهذه بنت شعيب عليه السلام تجعل قوة موسى عليه السلام مسوغا ومحرضاً على الاستعانة بقوته ، فيقول القرآن الكريم عن ذلك : « قالت يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين » .

والله يتحدث عن القوة في ملكه وخلقه على أنها مظهر من مظاهر الفضل والنعمة ، فيقول : « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم » . ويقول : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » . ويقول : « يرسل السماء عليكم مدرارا، ويزدكم قوة الى قوتكم » . ويقول : « فاذا جاء وعد أولاهما بعثناعليكم عبادا لنا أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار، وكان وعدا مفعولا» . ويقول : وما أروع الاشارة الى الانتفاع بالقوة فيما يقول : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » .

ويأمر الله سبحانه بالقوة حتى في العبادة وتنفيذ الأوامر ، واختيار ما يحتاج الى الجهد ، فيقول : « خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون» ، ويقول : «ان ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا»[1] .



ولقد أتت في التنزيل المجيد آية تشمل الدعوة الى كل أنواع القوة المادية والمعنوية ، وهي قول الله تبارك وتعالى في سورة الأنفال : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ،وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون » .

---

(١) انظر كتابي « الدين والحياة » ص ٥٨ ــ ٦١ طبع دار الكاتب العربي بالقاهرة سنة ١٩٦٨

وقد ذكر السيد رشيد رضا عن هذه الآية أن الله تبارك وتعالى أمر عباده المؤمنين بأن يجعلوا الاستعداد للحرب التي تدفع العدوان وتحفظ النفوس وتصون الحقوق بأمرين : أولهما اعداد جميع أسباب القوة بقدر الاستطاعة ، والقوة هنا قد تكون قوة السلاح أو قوة العلم ، أوقوة الاخلاق أو قوة اليقين ، أو قوة الامداد ، لأن كلمة القوة تشمل كل هذه الانواع وغيرها .

وثانيهما المرابطة على الحدود والثغور بالجنود المدربين ووسائل الانتقال السريع ، وكان أسرع الوسائل عند نزول الآية هي الخيل ، وهذان الامران هما اللذان تعول عليهما جميع الدول التي ارتقت فيها الفنون العسكرية . ومن المعلوم بالبداهة أن اعداد المستطاع من القوة ، يختلف امتثال الامر الرباني فيه باختلاف درجات الاستطاعة في كل زمان ومكان بحسبه ، وقد روي ان الرسول صلى الله عليه وسلم تلا الآية السابقة، ثم قال : « ألا ان القوة الرمي » وكرر ذلك ثلاثا ، وهذا اشارة الى ان أعظم أركان القوة هو الرمي ، وذلك لأن رمي العدو عن بعد بما يقتله أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربة ، واطلاق الرمي في الحديث السابق يشمل كل ما يرمى به العدو من سهم أو قذيفة أو بندقية أو طيارة أو مدفع أو غير ذلك . واذا كان بعض هذه الوسائل لم يظهر في عهد النبي فان لفظ « الرمي » يشمله ، لان الحديث لم يقيد الرمي بشيء دون شيء ، ولعل الله تعالى ــ كما ذكر رشيد ــ قد أجرى ذلك اللفظ على لسان نبيه مطلقا ليدل على العموم لامته في كل عصر بحسب ما يرمى به في كل عصر [1] .

فالواجب على المسلمين في هذا العصر بنص القرآن أن يصنعوا

---

(١) انظر تفسير المنار ، ج١٠ ص ٦٩ــ٧١ الطبعة الثانية ، طبع دار المنار سنة ١٣٦٩ هـ .

أسلحة القتال الحديثة ليحفظوا هيبتهم وحريتهم أمام اعدائهم ، ويجب عليهم أن يتعلموا كل الفنون والصناعات التي تمكنهم من صنع هذه الأسلحة ، والقرآن بعد هذا يقول : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » •



واذا كان كتاب الله تعالى يذكر القوة العاملة الفاضلة ويمجدها ، فانه يحمل على الضعف والعجز ، ولذلك نجد في سورة آل عمران قوله : « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم الا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين » •

ونجد في سورة النساء قوله : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » • ونجد في سورة ابراهيم قوله : « وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ، قالوا لو هدانا الله لهديناكم، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص»

وينبغي أن تتذكر أن قوة الايمان هي أفضل أنواع القوى ، لأنها هي التي تؤدي الى مجموعة من الفضائل كالاخلاص ، وصدق الجهاد ، وصفاء النية ، وطهارة الطوية ، ولذلك خاطب الله المؤمنين مرات كثيرة بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » ثم طالبهم عقب ذلك النداء بتبعات وواجبات لا يقوم بها الا الأحرار الاخيار من الناس ، وكأن تحقق الايمان فيهم هو خير معوان لهم في النهوض بهذه التبعات والواجبات • ولا شك

أن القوي الايمان هو الذي يجهر بكلمة الحق ويستجيب لدعوة الصدق، وهو الذي يؤدي عمله باتقان واحسان ، ويلتزم الصراط في عزيمة ومداومة .

والقرآن المجيد يذكرنا في مواطن منه بأن قوة البغي والطغيان مصيرها الوبال والخسران ، ولذلك يقول في سورة التوبة : « كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة ، وأكثر أموالا وأولادا ، فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، وخضتم كالذين خاضوا ، اولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك هم الخاسرون » . ويقول في سورة القصص : « ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا،وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين، قال انما أوتيته على علم عندي . أو لم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون» وحينما أسرف قارون في طغيانه كانت النتيجة : « فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » .

وفي سورة الروم:«أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم،كانوا أشد منهم قوة.وأثاروا الارض وعمروها اكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . وفي سورة فصلت : « فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ،وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في

أيام نحسات ، لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » . وفي سورة محمد : « وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » .. الخ .

ويعلمنا القرآن ان الطريق الى القوة يكون بالاستمداد من عون الله وقوته ، ولذلك يقول القرآن في سورة الكهف : « لا قوة الا بالله » ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من سره أن يكون أعز الناس فليتق الله ، ومن سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده » .

ومن وسائل تحقيق القوة الحسية والروحية الابتعاد عن الرذائل والفواحش ، والاعتصام بالفضائل والمحامد، واجتناب ما يوهن حس الانسان أو نفسه ، من مسكر أو مخدر أو مفتر ، وما يضعف كيانه من ترف واسراف .

أيها المؤمن ، كن قويا في حسك وعقلك وخلقك وسلوكك ، وكن في قوتك نظيفا شريفا ، فان ربك هو رب الأقوياء الشرفاء !.



غض البصر والصوت

مادة « الغضّ » في اللغة تدل على النقص والخفض والتقليل ، ويذكر ابن فارس في معجمه«معجم مقاييس اللغة ان هذه المادة لها اصلان أحدهما يدل على كف ونقص . ويدل الآخر على لين وطراوة ، فكل شيء غضضته فقد كففته ، والشيء الغض هو الطري . ويقال : غض بصره أي خفضه ، وكذلك غض صوته أي خفضه . واذا كان غض الصوت يدل على استقرار الشخصية وهدوء النفس ، واتزان التفكير وسلامة الحس ، فان غض البصر أدب نفسي وفضيلة أخلاقية تدل على ترفع صاحبها عن الخنا ، وتساميه عن الاستجابة لدواعي الشهوات والأهواء .

ولقد ذكر القرآن الكريم فضيلة « غض البصر » في سورة النور ، ضمن ما أمر الله تبارك وتعالى رسوله أن يبلغه الى عباده ، ويدعوهم اليه ويأمرهم به ، ولم يكتف القرآن بأن يأمر الرجال بغض الابصار ، بل أمر به النساء أيضا ، لأن الفضيلة هنا مطلوبة لهؤلاء وهؤلاء ، فقال : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، ان الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن،ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو ابائهن او آباء بعولتهن ، أو ابنائهن أو ابناء بعولتهن او اخوانهن او بني اخوانهن، او بني اخواتهن او نسائهن ، او ملكت أيمانهن او التابعين غير اولي الاربة من الرجال ، او

الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن،وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون[1] »

ومعنى قوله : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » هو أن يكفوا من عيونهم ، وينقصوا من نظرهم ، ويصرفوه عما يحرم عليهم النظر اليه ، ويقتصروا على نظر ما يحل لهم أن ينظروه ، وحمل النفس على هذا الأدب يحتاج الى ايمان وعزيمة ، والى أرادة صلبة قوية ، لأنهم اذا لم يحفظوا نظرهم ويصرفوا أبصارهم في مثل هذا المقام فان ذلك سيؤول بهم الى شر العواقب ، ولذلك كان الأليق بهم والأطهر لهم أن يكفوا وينصرفوا عما يحرم عليهم أن يتطلعوا اليه •

والمرأة الأصيلة الشريفة العفيفة يعد من يتوقح في نظره اليها وهو أجنبي عنها مثلا لسوء الاخلاق او وضاعة الاعراق ، ولذلك يروي التاريخ أن امرأة عربية مرت على جماعة من بني نمير ، فأحدوا بصرهم اليها ، ولم يغضوا بعيونهم عنها فقالت لهم : يا بني نمير ، والله ما أخذتم بواحدة من اثنتين : لابقول الله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » ولا بقول الشاعر :

فغض الطرف انك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا !

وفيما يتعلق بغض النساء ابصارهن عن التطلع الى الرجال بلا ضرورة تقول السيدة أم سلمة رضي الله عنها : « حماديات النساء غض الاطراف » أي كف الابصار عن التحديق في الرجال الاجانب عنهن ، ويقال ان صحة العبارة التالية هي « حماديات النساء غض الاطراف » أي ان يغضضن من أبصارهن مطرقات راميات بأبصارهن الى الارض • ومعنى قولها « حماديات النساء » أي غاية ما يحمد منهن •

---

(١) وليضربن : وليسدلن . بخمرهن : أغطية رؤوسهن . جيوبهن : فتحات صدورهن . لبعولتهن : لازواجهن . الاربة : الحاجة الى النساء لم يظهروا : لم يطلعوا .

وحث القرآن الكريم على غض البصر بين الرجال والنساء يرتبط في الاصل بما هناك من عورات بين هؤلاء وهؤلاء ينبغي ان تصان وتحفظ ، وعورة الرجل مع الرجل هي ما بين السرة الى الركبة ، والسرة والركبة نفسهما ليستا عورة ، ويرى أبو حنيفة أن الركبة عورة ، ويرى مالك أن الفخذ ليست عورة • وعورة المرأة مع المرأة كعورة الرجل مع الرجل ، فلها النظر الى جسمها الا ما بين الركبة والسرة •

وأما عورة المرأة مع الرجل ، فاما أن تكون المرأة اجنبية ، أو تكون ذات رحم محرم ، فان كانت أجنبية فجميع بدنها عورة بالنسبة الى الرجل الاجنبي عنها ، فلا يجوز ان ينظر الى شيء منها الا الوجه والكفين ، كما لا يجوز أن يتعمد النظر الى وجه الأجنبية لغير غرض ، واذا نظر فلا يكرر نظره ، واذا كان الرجل محرما للمرأة فعورتها بالنسبة اليه ما بين السرة والركبة ، واذا كان الرجل زوجا جاز له ان ينظر الى كل بدن زوجته ، وان كان ينبغي له أن لا ينظر الى فرجها •

وقد قالت الآية : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » فأفاد حرف «من» معنى التبعيض الذي أشار اليه بعض المفسرين بقوله : « لا يستطيع أحد أن يغض بصره كله ، انما قال الله (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » •



وفي غض الصوت يقول الله تبارك وتعالى في سورة لقمان من وصية لقمان لابنه : « واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك ، ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » • أي كن وسطا في مشيك ، وتواضع فيه ، ولا تستكبر ولا تستعجل ، واخفض من صوتك ، واجعله معتدلا قاصدا ، فان أقبح الأصوات ، هو ما كان مرتفعا عاليا بلا موجب ، فيكون شبيها بصوت الحمير •

وخفض الصوت مظهر لأدب النفس وعنوان على ثقة الانسان بما يقوله أو يذكره . فهو مطمئن الى صدق كلامه ، ولذلك لا يحتاج الى استعانة برفع الصوت كأنه يصارع أو يشاجر . وهذا الخفض يدل في الوقت نفسه على احترام المتكلم للسامع الذي يخاطبه ، ومن هنا كان خفض الصوت لائقا بمواقف العبادة كالصلاة . حيث يقول القرآن في سورة الاسراء : « ولا تجهر بصلاتك . ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا » .

وكذلك موقف الدعاء ، اذ ينبغي أن يكون الدعاء بين الجهر والمخافتة ، لان انخفاض الصوت بالدعاء يكون معوانا على الخشوع والصفاء ، ولذلك قال القرآن : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » ، وقال عن نبي الله زكريا : « اذ نادى ربه نداء خفيا » ، ولقد ذكر الامام ابن القيم أن خفض الصوت بالدعاء يكون أدل على الايمان ، اذ يفهم الداعي حينئذ ان الله سميع للدعاء مهما كان خفيا ، وكذلك يدل على الادب من العبد وحسن تعظيمه لله ، ويكون أبلغ في التضرع والرجاء والاخلاص ، ويكون معوانا على جمع القلب على الله تعالى في الدعاء ، لان رفع الصوت يؤدي الى التشتت والتفرق ، ويكون أيضا رمزا الى قرب صاحبه من ربه ، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره ، يسأله سؤال أقرب شيء اليه ، فيسأله مسألة القريب للقريب ، لا مسألة نداء البعيد للبعيد ، وكذلك يكون أدعى الى اتصال السؤال ودوام الطلب ، لان اللسان مع خفض الصوت لا يمل ، والجوارح لا تتعب ، بخلاف ما لو رفع صوته .

ولقد جاء في السنة أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه سمع أناسا يجهرون بالتكبير ، فقال لهم : « اربعوا على أنفسكم — أي ترفقوا بها — فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، انكم تدعون سميعا بصيرا ، والذي تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق راحلته » .

واذا كان خفض الصوت أمرا محبوبا وخلقا كريما ، اذا كان المتحدث يحدث من يحترمه أو يعزه أو يجله ، فان هذا الخلق يلزم أن يأتي على كماله وتمامه اذا كان الخطاب موجها الى رسول الله خير الانسانية عليه الصلاة والسلام ، ولذلك نرى القرآن الكريم يقول في سورة الحجرات : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وانتم لا تشعرون ، ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم » .

ثم عاب القرآن عقب ذلك مباشرة على طائفة من الناس لم تغض صوتها وهي تخاطب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم » .

وكانت هذه الآيات درسا أي درس ، ليتعلم الناس من حول الرسول أن يغضوا أصواتهم عند خطابه ، لان رفع الصوت يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام ، وها هوذا الآلوسي يقول عند حديثه على هذا الدرس : « المعنى نهيهم عما كانوا عليه من الجلبة ، واستجفاؤهم فيما كانوا يفعلون ، هو نظير قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة). (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) أي جهرا كائنا كالجهر الجاري فيما بينكم ، فالأول نهي عن رفع الصوت فوق صوته صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا نهي عن مساواة جهرهم لجهره عليه الصلاة والسلام ، فانه المعتاد في مخاطبة الأقران والنظراء بعضهم لبعض ، ويفهم من ذلك وجوب الغض ، حتى تكون أصواتهم دون صوته صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقيل : الأول مخصوص بمكالمته صلى الله تعالى عليه وسلم لهم ، وهذا بصمته عليه الصلاة والسلام ، كأنه قيل : لا ترفعوا أصواتكم فوق

صوته اذا نطق ونطقتم ، ولا تجهروا له بالقول اذا سكت وتكلمتم .

ويفهم أيضا وجوب كون أصواتهم دون صوته عليه الصلاة والسلام ، فأيا ما كان يكون المآل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتعهدوا في مخاطبته اللين القريب من الهمس ، كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم ، وحافظوا على مراعاة أبهة النبوة وجلال قدرها » .

ولقد حافظ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على غض أصواتهم مع النبي ، وخاصة بعد أن تلقوا هذا الدرس البليغ ، فهذا أبو بكر يقول للنبي : « والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله ، لا أكلمك الا كأخي السرار » . وكان عمر اذا تكلم مع النبي لا يسمع النبي كلامه حتى يستفهم النبي عنه ، وكان ثابت بن قيس يقول : « لا أرفع صوتي أبدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

بل لقد حافظوا على غض الصوت مع الرسول بعد وفاته ، فكانوا يكرون رفع الصوت عند قبره الطاهر ، فقد روي عن عمر أنه سمع صوت رجلين يرفعانه في مسجد الرسول ، فأقبل عليهما غاضبا يقول : أتدريان أين أنتما ؟ من أين أنتما ؟ فقال : من أهل الطائف . فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا .

ولذلك قال الفقهاء : انه يكره رفع الصوت عند قبر النبي ، كما كان رفع الصوت مكروها عنده في حياته .

ولقد ضرب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أروع مثل في غض البصر والصوت ، فقد كان عفيف النظرة ، شديد الحياء ، وكان أشد حياء من العذراء في خدرها ، وكان لا يثبت نظره في وجه أحد ، وجاء في السنة أنه كان اذا فرح غض طرفه ، أي كسره وأطرق ، وانما يفعل ذلك ليكون أبعد من الأشر والفرح ، وكان اذا عطس غض صوته ، أي خفضه ولم يرفعه بالصياح .

ولقد عني الحديث النبوي عناية كبيرة بالتحذير من نظرة العين التي

يراد بها السوء ، فجاء قوله : « النظرة سهم مسموم من سهام ابليس ، فمن تركها خوفا من الله تعالى أعطاه الله تعالى ايمانا يجد حلاوته في قلبه » • وقوله : « زنى العينين النظر » • وقوله : « لتغضن أبصاركم ، ولتحفظن فروجكم ، ولتقيمن وجوهكم ، أو لتكسفن وجوهكم » •

وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم « غض البصر » في طليعة حقوق الطريق ، وقال : « لا تجلسوا على ظهر الطريق ، فان أبيتم فغضوا الأبصار ، وردوا السلام ، واهدوا الضال ، وأعينوا الضعيف » • وقال : « غضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم » •

وسما النبي بمكانة غض البصر ، ونوه بثمرته الجليلة ، فقال : « من حفظ بصره أورثه الله نورا في بصيرته » • وقال : « ما من مسلم ينظر الى محاسن امرأة ، ثم يغض بصره ، الا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها » • وقال : « كل عين باكية يوم القيامة ، الا عينا غضت عن محارم الله ، وعينا سهرت في سبيل الله ، وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله » •

واذا علمنا أن الله تبارك وتعالى يعفو عن النظرة المفاجئة التي تأتي بلا تعمد أو ترصد أدركنا مفهوم قول الرسول لعلي : « يا علي ، لا تتبع النظرة النظرة ، فان لك الأولى وليست لك الآخرة » • وقول جابر : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة فقال لي : انصرف نظرك » •

ولقد سمع النبي رجلا ينعت امرأة ويصفها وصفا دقيقا من توقحه في تكرار نظره اليها ، فقال له النبي : « لقد غلغلت النظر ــ أي عمقته ــ يا عدو الله » •

ومهما يكن من أمر فما أشد خوفنا لو نذكر حق التذكر قول ربنا عن رقابته واحاطته : « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » • والعين الخائنة هي التي تنظر في تستر واستخفاء ، وتنتهز فرصة الغفلة من الغير فتتطلع الى ما لا يجوز لها أن تنظر اليه •

ويروى عن السيد المسيح عليه السلام أنه قال : « اياكم والنظرة ، فانها تزرع في القلب شهوة ، وكفى بها فتنة » • وقال : « لا يزني فرجك ما غضضت بصرك » • ويقول بعض الحكماء : « رب نظرة ، كانت بذرة ، لأخبث شجرة » •

ويقول آخر :

كل الحوادث مبداها من النظر	ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمــرء ما دام ذا عين يقلّبها	في أعين العين[1] موقوف على الخطر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها	فعل السهام بلا قوس ولا وتر
يسر ناظــره ما ضر خــاطره	لا مرحبا بسرور جاء بالضرر

على أن هناك مواطن يتسامح الدين فيها اذا لــم يتوافر فيهــا غض البصر ، لوجود أغــراض مشروعــة تبيح النظــر ، ومنهــا ــ كما ذكر النيسابوري ــ أن يريد زواج امرأة فينظر الى وجهها وكفيها ، ومنهــا أن ينظر الى المرأة عند تحمل الشهادة • ومنها أنه يجوز للطبيب الأمين أن ينظر الى بدن المرأة الأجنبية للعلاج ، كما يجوز للخاتن أن ينظر الى عورة المختون لأنه محل ضرورة •• وهكذا ، فان كان هناك شهوة وفتنة فالنظر محظور •

وكذلك الشأن في « غض الصوت » ، فاذا كان الانسان يغض صوته مع من يعزه أو يحترمه أو يترفق به ، أو حيث يحاور الانسان أو يدعو ، فان هناك بعض المواقف التي تحتاج الى جهارة الصوت ، كما في الانــذار أو التحذير ، أو بين الجمع الكبير ، وهكذا •



ثم نأتي الى الصوفية وغض البصر ، حيث نجد طريقتهم الخــاصة بهم في تناول الأمور الأخلاقية والتهذيبية ، فقد سئل الشبلي عن معنى قوله

---

(١) العين ــ بكسر العين ــ : جمع عيناء ، والمراد المرأة الجميلة العينين.

تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » فأجاب : « يغضوا أبصار الرؤوس على المحرمات . وأبصار القلوب عما سوى الله تعالى » •

ويتحدث القشيري في «لطائف الاشارات» عن غض المؤمنين أبصارهم فيقول : « يغضوا من أبصار الظواهر عن المحرمات ، ومن أبصار القلوب عن الفكر الردية ، ومن تصور الغائب عن المعاينة ، ولقد قالوا : ان العين سبب الحين ، وفي معناه أنشدوا :

وأنت اذا أرسلت طرفك رائدا   لقلبك ـ يوما ـ أتعبتك المناظر

وقالوا : من أرسل طرفه اقتضى حتفه •

وان النظر الى الأشياء بالبصر يوجب تفرقة القلوب • ويقال ان العدو ابليس يقول : قوسي القديم ، وسهمي الذي لا يخطىء النظر • وأرباب المجاهدات اذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الردية لم ينظروا الى المحسات ، وهذا أصل كبير لهم في المجاهدة في أصول الرياضة •

ويقال : قرن الله النهي عن النظر الى المحارم بذكر حفظ الفرج فقال : « ويحفظوا فروجهم »تنبيها على عظم خطر النظر ، فانه يدعو الى الاقدام على الفعل • ويقال قوم لا ينظرون الى الدنيا وهم الزهاد، وقوم لا ينظرون الى الكون وهم أهل العرفان، وقوم هم أهل الحفاظ والهيبة، كما لا ينظرون بقلوبهم الى الأغيار لا يرون أنفسهم أهلا للشهود ، ثم الحق سبحانه يكاشفهم من غير اختيار منهم أو تعرض أو تكلف » •

ثم تحدث عن غض المؤمنات أبصارهن فقال : « المطالبة عليهن كالمطالبة على الرجال لشمول التكليف للجنسين ، فالواجب عليهن ترك المحظورات ، والندب والنفل لهن صون القلب عن الشواغل والخواطر الردية ، ثم ان ارتقين عن هذه الحالة فالتعامي بقلوبهن عن غير المعبود، والله يختص برحمته من يشاء » •

اللهم زكّ نفوسنا فأنت خير من زكاها ، واحفظ من الانحراف حواسنا ، فأنت خير الحافظين •

قائمة مختصرة

بمؤلفات الدكتور احمد الشرباصي

١	حركة الكشف	دار الطباعة المصرية	١٩٣٦
٢	محـاولة	مطبعة الشرق	١٩٣٨
٣	بين صديقين	مطبعـة الشرق	١٩٣٩
٤	نفحات من سيرة السيدة زينب	مطبعة دار التأليف ــ دار التاليف	١٩٤٦
٥	المحفوظات الازهرية	مطبعة الرسالة	١٩٤٨
٦	لمحات عن ابي بكر	مطبعة الرسالة	١٩٤٨
٧	واجب الشاب العربي	مطبعة الرسـالـة	١٩٤٨
٨	في رحاب الصوفية	مطبعة دار التأليف ــ دار التأليف	١٩٥٠
٩	رسالة النبي (بالاشتراك)	مطبعة الاهرام ــ جريدة الاهرام	١٩٥٠
١٠	تحقيق كلمة الاخلاص (بالاشتراك)	مطبعة مصر	١٩٥٠
١١	صفوة التصوف للمقدسي (تحقيق)	مطبعة دار التأليف ــ دار التأليف	١٩٥٠
١٢	صلوات على الشاطىء	دار الكتاب العربي ــ بيت الكويت	١٩٥١
١٣	محاضرات الثلاثاء	دار الكتاب العربي	١٩٥١
١٤	مذكرات واعظ أسير	دار الكتاب العربي	١٩٥٢
١٥	عائد من الباكستان	المطبعة السلفية	١٩٥٢
١٦	النيل في ضوء القرآن	دار الكتاب العربي	١٩٥٢
١٧	أيام الكويت	دار الكتاب العربي	١٩٥٣
١٨	امين الامين ابو عبيدة بن الجراح	مطبعة الاعتصام ــ مجلة الاعتصام	١٩٥٣
١٩	من اجل فلسطين	المطبعة السلفية	١٩٥٤
٢٠	غربة الاسلام لابن رجب (تحقيق)	دار الكتاب العربي	١٩٥٤
٢١	القصاص في الاسلام	دار الكتاب العربي ــ جماعة الازهر	١٩٥٤

٢٢ في عالم المكفوفين (الجزء الاول) دار الكتاب العربي ١٩٥٦
٢٣ الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز (مسرحية) مطبعة نهضة مصر ١٩٥٦
٢٤ خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز (جزءان) . مطابع الشعب ١٩٥٩
٢٥ في عالم المكفوفين (الجزء الثاني) مطبعة لجنة البيان ١٩٥٩
٢٦ وسائل تقدم المسلمين مطبعة العالم العربي ـ مؤسسة المطبوعات الحديثة ١٩٥٩
٢٧ طبقات الصوفية (تيسير) مطابع الشعب ـ دار الشعب ١٩٦٠
٢٨ التصوف عند المستشرقين المكتب الفني للنشر ١٩٦٠
٢٩ الاسلام دين الاشتراكية (بالاشتراك) الدار القومية للطباعة والنشر ـ وزارة الثقافة ١٩٦١
٣٠ الدين والمجتمع في ضوء الميثاق مطبعة وزارة التربية والتعليم ـ وزارة التربية والتعليم ١٩٦٢
٣١ قصة التفسير مطبعة دار القلم ـ وزارة الثقافة ١٩٦٢
٣٢ بطولات اسلامية وعربية (الأول) دار الكتاب العربي ـ وزارة الثقافة ١٩٦٢
٣٣ عمر بن عبد العزيز لابن كثير (تحقيق) الدار القومية للطباعة والنشر ـ وزارة الثقافة ١٩٦٢
٣٤ الاشتراكية والدين مطبعة التحرير ـ ادارة التوجيه المعنوي ١٩٦٢
٣٥ مسرحيات اسلامية الدار القومية للطباعة ـ وزارة الثقافة ١٩٦٢
٣٦ مولد الهدى (مسرحية) الدار القومية للطباعة ـ وزارة الثقافة ١٩٦٢
٣٧ سيف الله خالد بن الوليد الدار القومية للطباعة ـ وزارة الثقافة ١٩٦٢
٣٨ أمين الأمة أبو عبيدة (طبعة ثانية) الدار القومية للطباعة ـ وزارة الثقافة ١٩٦٢
٣٩ بطولات اسلامية وعربية (الثاني) الدار القومية للطباعة ـ وزارة الثقافة ١٩٦٣
٤٠ أحاديث الجهاد والفروسية الدار القومية للطباعة ـ وزارة الثقافة ١٩٦٣
٤١ دستور الطالب الدار القومية للطباعة ـ وزارة الثقافة ١٩٦٣
٤٢ شكيب أرسلان من رواد الوحدة العربية الدار القومية للطباعة ـ وزارة الثقافة ١٩٦٣
٤٣ ايام في الاسلام مطبعة دار القلم ـ وزارة الثقافة ١٩٦٣
٤٤ الدين والميثاق مطبعة التحرير ـ ادارة التوجيه المعنوي ١٩٦٣
٤٥ أمير البيان شكيب أرسلان (جزآن) مطبعة دار الكتاب العربي معهد الدراسات العربية العليا ١٩٦٣

٤٦ حفيدة الرسول السيدة زينب الدار القومية للطباعة ــ وزارة الثقافة ١٩٦٣
٤٧ شكيب أرسلان داعية العروبة والاسلام مطبعة مصر ــ وزارة الثقافة ١٩٦٣
٤٨ دعوة الاسلام (رسائل متوالية) دار الكتاب العربي ــ جمعية الشبان المسلمين ١٩٦٣
٤٩ سلاح الشعر الدار القومية للطباعة ــ وزارة الثقافة ١٩٦٤
٥٠ الحركة الكشفية عربية الأصول والمصادر مطابع دار الشعب ــ المكتب الكشفي العربي ١٩٦٤
٥١ الأئمة الأربعة مطبعة دار الهلال ــ دار الهلال ١٩٦٤
٥٢ حب الوطن في نظر الدين الدار القومية للطباعة ــ وزارة الثقافة ١٩٦٤
٥٣ الاسلام والاقتصاد الدار القومية للطباعة ــ وزارة الثقافة ١٩٦٥
٥٤ الدين وتنظيم الأسرة (طبعتان) مطابع دار الشعب ــ وزارة الشؤون الاجتماعية ١٩٦٥ و ١٩٦٦
٥٥ الغزالي والتصوف الاسلامي مطبعة دار الهلال ــ دار الهلال ١٩٦٦
٥٦ مع المجاهد مطبعة التحرير ــ ادارة التوجيه المعنوي ١٩٦٧
٥٧ مع المجاهد (طبعة ثانية) مطبعة التحرير ــ ادارة التوجيه المعنوي ١٩٦٧
٥٨ الدين والحياة دار الكاتب العربي ــ وزارة الثقافة ١٩٦٨
٥٩ نافذة على الاسلام دار التحرير ــ جريدة الجمهورية ١٩٦٩
٦٠ ملامح أدبية مطبعة الرسالة ١٩٦٦
٦١ المقصورة في الأدب العربي مطبعة الرسالة ١٩٦٩
٦٢ أدب الأحاديث القدسية مطبعة الشعب ــ دار الشعب ١٩٦٩
٦٣ الفداء في الاسلام مطبعة دار المعارف ــ دار المعارف ١٩٦٩
٦٤ رشيد رضا صاحب المنار مطابع الأهرام التجارية ــ المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ١٩٧٠
٦٥ بين الدين والدنيا مطابع الأهرام التجارية ــ المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ١٩٧٠
٦٦ يسألونك في الدين والحياة دار الرائد العربي ببيروت ــ دار الرائد العربي ببيروت ١٩٧٠
٦٧ فدائيون في تاريخ الاسلام دار الرائد العربي ببيروت ــ دار الرائد العربي ببيروت ١٩٧٠

٦٨ الدين والمجتمع المطبعة النموذجية ـ معهد التعاون ١٩٧٠
٦٩ مدرسة الأستاذ الامام مطبعة الرسالة ١٩٧١
٧٠ صراع (مسرحية) دار الرائد العربي ببيروت ـ دار الرائد العربي ١٩٧١
٧١ أخلاق القرآن دار الرائد العربي ببيروت ـ دار الرائد العربي ١٩٧١
٧٢ حدث في رمضان دار التعاون ـ الاذاعة والتلفزيون ١٩٧١
٧٣ عودة الى الاسلام شركة الاعلانات الشرقية ـ جريدة الجمهورية ١٩٧١
٧٤ من أدب النبوة مطابع الأهرام التجارية ـ المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ١٩٧٢
٧٥ التربية الدينية (بالاشتراك) دار التأليف بالقاهرة ـ وزارة التربية والتعليم ١٩٧٢



فهرست